شخصية الحاكم

في ضوء القصص القرآني

تأليف

رأفت «محمد رائف» رأفت المصري

تقديم

فضيلة الدكتور أحمد نوفل

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم إيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٧/٥/١٥١٤)

١٥١٤ المصري ،رأفت

شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني / رأفت محمد رائف المصري .

عمّان:دار الفاروق للنشر ، ٢٠٠٧

(٣٢٠) ص.

ر. إ: (٢٠٠٧/٥/١٥١٤)

الواصفات: /القصص القرآني //القرآن/.

تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الفاروق

للنشر والتوزيع

عمّان – العبدلي – عمارة جوهرة القدس - تلفاكس: ٤٦٤٠٠٦٤

E-mail: daralfarouq @ yahoo.com

الإهداء

أهدي رسالتي إلى والديّ العزيزين..

أهديها إلى شيوخي الذين كان لهم فضل كبير عليّ..

أهديها إلى الذين سعوا إلى إقامة دولة الخلافة، وإلى إعادة هذه الأمة إلى مصافّ القيادة والصدارة..

وإلى الذين طالبوا وما زالوا يطالبون بتحكيم شريعة الله سبحانه..

أهديها إلى كل هؤلاء، وإلى الأمة التي بدأت تستيقظ من غفلتها..

أصل هذا الكتاب رسالة علمية قدمت لنيل درجة الماجستير في التفسير من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية.
وقد نوقشت وأجيزت بتاريخ ٢٨/ ٥ / ٢٠٠٣.

الإهداء

أهدي رسالتي إلى والديّ العزيزين..

أهديها إلى شيوخي الذين كان لهم فضل كبير عليّ..

أهديها إلى الذين سعوا إلى إقامة دولة الخلافة، وإلى إعادة هذه الأمة إلى مصافّ القيادة والصدارة..

وإلى الذين طالبوا وما زالوا يطالبون بتحكيم شريعة الله سبحانه..

أهديها إلى كل هؤلاء، وإلى الأمة التي بدأت تستيقظ من غفلتها..

أصل هذا الكتاب رسالة علمية قدمت لنيل درجة الماجستير في التفسير من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية.
وقد نوقشت وأجيزت بتاريخ ٢٨/ ٥ / ٢٠٠٣.

شكر

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف:١٥).

يطيب لي أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذي ومعلمي فضيلة الدكتور أحمد نوفل – حفظه الله -، الذي كان له فضل كبير في توجيهي، وصياغة أسلوبي، فجزاه الله عني كل خير.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الفضلاء الذين سعوا إلى تقويم هذا البحث، وكانوا لجنة مناقشة لها.

وأشكر شيخي صاحب الفضل عليّ الدكتور همام سعيد – حفظه الله – وجزاه عني كل خير.

وأشكر أخي يوسف قراعين، الذي قام ببذل جهد كبير في طباعة رسالتي والصبر على ما أحدثته من تغييرات.

كما وأشكر كل من كان له إسهام في إنجاز هذه الرسالة.

تقديم

هذا القرآن كنز لا ينفد ، ومعين لا ينضب، وعطاء لا ينقطع ، وإعجاز على مر الزمان يتجدد . والتفسير الموضوعي من بين علومه واحة فينانة، وحدائق مزدانة، ونباتات ريانة بكل ثمر شهي ملآنة .... وهو بلا مبالغة بحر بلا ساحل ، كيف لا والقرآن الذي ينطلق من حماه التفسير الموضوعي ، بلا انتهاء ، ثم إن الواقع متجدد بلا توقف ، ثم إن العقل البصير الذي ينظر في القرآن وفي التفسير في ازدياد بلا توقف ، فالتقت ثلاثة أطراف كلها لا تنتهي ، وكلها في ازدياد لا نقص معه او فيه .

ومن حدائق التفسير الموضوعي ، كانت هذه الزهرة الجميلة المتميزة ، بحث يتصل بالحاكم ومواصفاته كما بينها القرآن الكريم ، وكانت في الأصل رسالة ماجستير قدمها رأفت المصري إلى كلية الشريعة في الجامعة الأردنية ، وأسعدني وشرفني أن كنت المشرف على هذه الرسالة ، التي نوقشت فحظيت بالتقدير والثناء .

واليوم تجد هذه الرسالة طريقها إلى الانتشار كتاباً مطبوعاً، وجهداً ينبيء عن نفسه، وموهبة تفصح عن مكنونها ، وقانون الله في كونه أنه : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وإني أعتقد أن هذه الرسالة - إن شاء الله - مما ينفع الناس ، ومما سيمكث في الأرض ولله الأ مر من قبل ومن بعد .

والحاكم في حياة أي أمة بمثابة الرأس من الجسد ، فإن صلح صلحت ، وإن فسد فسدت ، وإن استقام استقامت ، وإن توجه توجهت وإن حيّ حيت ، وإلا فإنه الموت الدماغي الذي

يتعطل معه كل شيء .

ولا يظن ظان أن الغرب صادق في دعواه أنه يريد الإصلاح في عالم الغرب ، أو يريد "دمقرطة" العالم الإسلامي ، فهذا مستحيل بعينه . ولن نناقش أحداً في الديموقراطية ، فلمَ نختلف على اسم الصبي ، والحمل كاذب ، هذا إن كان ثمة حمل أصلاً.

وبعد فإ ن الذهن الذي توجه إلى مثل هذا الموضوع وقادٌ مستنير ، هداه التفكير إلى هذا الموضوع الكبير الخطير . هذا أولاً .ثم وفق ثانياً في المعالجة ، فما كل موضوع كبير عولج كيفما اتُفق يظل كبيراً فقد يغدو بسوء المعالجة صغيراً وهو في الأصل كبير .

لكن الأخ رأفت كان موفقاً مجداً يطيل النظر ويديم الفكر في القضية حتى تنضج ويقلبها من وجوهها فلا يفوته منها شيء مهم ، جهد طاقته وبعد . فهذا موضوع في التفسير الموضوعي الذي أعدُه من أعظم ميادين التفسير ، وأَعدُ هذا الموضوع بالذات من أولى الموضوعات بالمعالجة ، والباحث رأفت – بما وهب – من أكفأ من يتصدى لمثل هذا الموضوع .

أسأل الله للباحث دوام التوفيق ، ولبحثه القبول وسعة الانتشار ليغدو للطلبة المجدين مثالاً وأن لله لا يضيع أجر المحسنين .

الدكتور أحمد نوفل

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وقائدنا وقدوتنا محمداً رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن استنّ بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله جلّ وعلا قد أنزل إلينا هذا القرآن دستوراً ومنهجاً ، رسم لنا فيه خطوط الحياة الربانية المشرقة ، وصوّر لنا فيه معالم منهجه الفريد تصويراً دقيقاً موشَّحاً بأجمل ألوان العرض والتصوير ، تسري في عروقه نبضات الحياة ؛ التي تهيء لقارئ هذا القرآن أن يعيش في ظلاله حياة حقيقية ، ويتفاعل مع صوره وكأنه جزء منها .

هذا القرآن – وهو يستعمل أساليب التعبير المعجزة هذه - نزل ليكون ديناً.. يحكم حياة أمة ، تتكون من أفراد يشكلون بمجموعهم أمّة بكل مقوماتها .. أمة تحمل عبء الرسالة العظمى، أمة تصل إلى درجة «أستاذية العالم»[1] ، فتحكم الأرض بقانون الله ، وتعبّد الناس لربهم جل في علاه .

أمة كهذه ، هذه وظيفتها لا شك أنها متميزة كل التميز .. متميزة بأفرادها ، متميزة بحكامها ، متميزة بعلاقاتها وسياساتها .

نعم ، جاء القرآن ليحدّد هذا التميز ، ويرسمه صورة حقيقية ، ويمثل له بنماذج واقعية ، تقرّب المطلوب إلى الأذهان ، وتجلّي الأمر للعيان .

ولا شكَّ أن منصب الحاكم في الأمة -أي أمة- ركن ركين في رسم سياستها وتوجيه مسارها وأهدافها - كما سنرى - . ولما كان الأمر كذلك، وجدنا القرآن أولى أهمية خاصة

---

(١) كما عبّر الإمام حسن البنا في مجموعة الرسائل – رسالة ص٣٦١ ، دار الحضارة الإسلامية ، طبعة بدون .

لهذا المنصب الخطير وضبط شؤونه وفصل فيها بما لا يدع مجالاً للخلط والحيرة.

فأسند الحاكمية لله سبحانه ، ورجع حقّ التشريع إليه جل وعلا ، قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (يوسف: من الآية٤٠) . وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (المائدة: من الآية٤٩) .

وأعلن أن اغتصاب حاكمية الله هو ادعاء للألوهية، ومنازعة لله سبحانه فيها[1]، ومن ثم فقد نفى الإيمان وحكم بالكفر على من حكم بشريعة الطاغوت أو تحاكم إليها .

قال الله سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة: من الآية٤٤) ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (النساء: من الآية٦٠) .

وجاءت السنة – وهي الشارحة للقرآن- لتقرر أن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(البخاري ٦٨٢٠، مسلم ١٨٤٠)، لتوضح متى تخلع الأمة من عنقها طاعة حاكمها.

وقد كانت مادّة القصص القرآني مادة خصبة في هذا الموضوع – كما سنرى- ، فعرضت نماذج من الحكام خلّدت ذكرهم في هذا القرآن ، منهم من خلدت ذكره بخير كمثال يحتذى به كحاكم صالح ، و منهم من خلدت ذكره لكن كمثال يحذر ويجتنب للحاكم الطاغية.

وقد وجدت في نفسي ميلاً للكتابة في هذا الموضوع ، إذ إنني كنت دائم الميل إلى هذين الموضوعين : موضوع الحاكمية وما يتصل بها ، وموضوع القصص القرآني ،

(١) أنظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٤٤/٣، وفي مواضع أخرى ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٢٥، ١٩٩٦م.

فلما فكرت في موضوع لرسالتي الجامعية رأيت أن أجمع بين هذين الموضوعين لأخرج بعنوان لها : «شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني» ، وقد كان هذا بتوفيق الله ، وقد قسمت رسالتي هذه إلى مقدمة وبابين .

أما المقدمة فتضمّ إضافة إلى التمهيد موضوعين :

الأول : مدى الحاجة إلى دراسة مثل هذا الموضوع .

الثاني : القصص القرآني وقضية الحكم .

وأما الباب الأوّل ، فتناولت فيه شخصية الحاكم الصالح في القصص القرآني ، أحلل صفاتها وأقف مع سياسات حكمها كما ترسمها الآيات .

وقد أتعرض لأثرها على مجتمعها ودولتها ، كلُّ ذلك ضمن حدود آيات القرآن الكريم لا أعدوها إلى غيرها – مراعاة لطبيعة الرسالة - .

ويتكون هذا الباب من أربعة فصول ، يمثّل كلّ فصل منها، شخصية لأحد الحكام الصالحين في القصص القرآني، كل فصل يتكون من مباحث ومطالب يقتضيها المقام .

اكتفيت بأربع شخصيات تمثل هذا الحاكم الصالح ، وهي : يوسف ، وداود ، وسليمان، وذو القرنين عليهم وعلى نبينا السلام .

وقد يتساءل أحد عن عدم ذكر غيرهم ، فأقول : إن كان السؤال وارداً فإنما يرد إما على طالوت أو على ملكة سبأ ، ولكل منهما لديّ سبب في عدم ذكره .

فأما طالوت، فإنني قد عددته قائداً عسكرياً، وأنّ ملكه يظهر في الجانب الجهادي كما ذكر ذلك في أول القصة ، قال تعالى على لسان بني إسرائيل : ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية٢٤٦) .

وجملة ﴿نُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملة تعليلية . والدليل : أنهم ذهبوا إلى نبي لهم طالبين ملكاً ليقاتلوا . ويفهم منه أن النبي كان يدير شؤونهم ، لكنهم احتاجوا إلى ملك لا ليحكم بل ليقاتل بهم .

أما ملكة سبأ فعدم إيمانها سبب كافٍ لاستثنائها من صف الحكام الصالحين، ويكفيها فساداً في حكمها أنها تترأس قومها في السجود للشمس، وهذا رأس الفساد – الفساد العقدي - أضف إلى ذلك أمراً ، وهو أن طريقة الشورى التي أبرمت في قصَّتها لم تكن مثالاً يحتذى على أن المفسرين عدّوها كذلك ، فجواب قومها لسؤالها الثوريّ إنما هو جواب تقليدي للحكام الطغاة (نحن أولوا.. والأمر إليك ..) فهم يتنازلون عن حقهم وواجبهم المتمثل في صدق الرأي والنصح .

هذا بالنسبة للباب الأوّل ، أما الباب الثاني فيختص بدراسة شخصية الحاكم الطاغية ، كشخصية مقابلة للشخصية الأولى .

وقد اقتصرت في هذا الباب على شخصية واحدة أحللها وأقف على طريقة حكمها وأبين معالمها المميّزة . هذه الشخصية هي شخصية فرعون عليه لعنة الله .

اكتفيت بدراستها كنموذج للطاغية لأمرين :

الأول : أن درب الطغاة واحد ، وأن أساليب حكمهم في كلّ زمان ومكان لا تتغير .

الثاني : أنه الشخصية الوحيدة التي فصّل فيها القرآن وأطال في ذكرها . إذ إن الملك في زمن سيدنا إبراهيم – وهو الطاغية الآخر المذكور في القصص القرآني- لم يُسهب في ذكره وتفصيل مواقفه، اللهم إلا آية البقرة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٨) الآية .

أضف إلى هذا وذاك مخافة الإطالة ، وأن الرسالة لم تهدف إلى الاستقصاء .

غني عن الذكر أن كلاً من هامان وقارون ليسا حاكمين، بل هما ركنان من

النظام الفرعوني ، يتم التعرض لهما خلال هذا الباب .

ولا بدَّ من الإشارة إلى أن الحكام الأربعة المذكورين في الباب الأول – الحاكم الصالح - منهم الأنبياء ، ومنهم من ليس نبياً كذي القرنين . ولا شك أن النبوة في الحاكم أو في غيره لها أثر ملحوظ في تكوين شخصيته . ومن ثمَّ فإن التحليل لصفات هذه الشخصيات قد تناول ما هو انعكاس لأثر النبوة في شخصية هذا الحاكم النبي . لكنّ البحث عندما تطرق إلى تحليل صفات الشخصية درسها بغضّ النظر عما هو أثر للنبوة ، إنما هدف إلى تحليل الشخصية كما هي.

وأود أن أشير إلى أنه إذا كان النص القرآني يحتمل أكثر من معنى فإنني أستشهد بالنص ذاته في الموطن الذي أسوقه إليه ، مع الإشارة إلى ذلك .

وقد رجعت في كتابة الرسالة هذه إلى نوعين من المصادر :

النوع الأول : كتب التفسير المختلفة .

النوع الثاني : كتب القصص القرآني .

وقد أعدو ذلك في اليسير النادر ، حسب ما يقتضيه البحث العلمي .

وأسأل الله سبحانه التوفيق والسداد ، وأسأله جل وعلا أن يجعل هذا في ميزان حسناتنا، إنه أكرم مسؤول .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

أولاً : مدى الحاجة إلى هذه الدراسة :

لا بدَّ للإنسان أن يعيش في مجتمع ، ولابد لهذا المجتمع من سلطة آمرة ، أو

حاكم يدير شؤونه ويسيّر أموره[١] . ولهذا فإننا نجد علماءنا قديماً وحديثاً يذكرون أهمية عقد الإمامة ، وينقلون الإجماع على وجوب عقدها لمن هو أهل للقيام بها، قال الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب»[٢] .

وذكر رحمه الله الشروط المعتبرة في مَن تُعقد له الإمامة ، ويُقلَّد منصب الحاكم في الإسلام[٣]. وقد عدَّ سبعة ، منها ما هو متفق عليه ومنها ما هو مختلف فيه[٤].

ومعلوم أن الإسلام دين ودولة ، وأنَّ امتزاج هذين معاً هو ملاك تحقيق الدين في الواقع الأرضي ، وعلى هذا فإنه لا بد لهذا الدين من دولة تدعو إلى عقيدته وتقيم شعائره وشرائعه ، وتحطم الأنظمة المستعبدة للناس التي تحول بينهم وبينه .

ومن المعلوم أن لكل دولة أركاناً ودعائم لا غنى للدولة عنها، وأن هذه الأركان والدعائم هي التي تحدد قوة الدولة وتأثيرها ، وما من خلاف أن رأس هذه الدولة وحاكمها يعتبر من أهم تلك الأركان .

«فالحاكم إذا كان صالحاً، مستوفياً للصفات الشرعية، فإنه يكون أحد الدعائم القوية التي تشد من أزر دولة الإسلام وتعينها على القيام بوظائفها السامية خير قيام استجلاباً للخير ودفعاً للشر»[٥] .

---

(١) قبس قرآني على المجتمع ، د.محمد أحمد درنيقة ، دار الإيمان ، طرابلس ، لبنان ، ط١، ١٩٩١، ص١٣.

(٢) الأحكام السلطانية ، لأبي الحسن الماوردي ، تحقيق: سمير مصطفى ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠١، ص١٣.

(٣) الأحكام السلطانية ، ص١٤.

(٤) انظر نظام الحكم في الإسلام لتقي الدين النبهاني ، دار الأمة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٠ ، ص٤٨ . والنظام السياسي في الإسلام للدكتور محمد أبو فارس ، دار الفرقان ، عمان ، ط٢ ، ١٩٨٦م ، ص١٩٣.

(٥) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، ٢عبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، ط١ ، ١٩٩٥ ، ٤٧٩/٢ .

إن منصب الحاكم منصب خطير جداً ، لما يترتب عليه من النتائج الهامة بالنسبة للأمة كلها ، فإن كان الإمام ضعيفاً في تفكيره وعزيمته انعكس هذا الضعف عليها ، وإن كان قوياً انعكست هذه القوة على الأمة[1] ، لتقوم هي بالتالي بأداء دورها الذي أنيط بها .

إذا كان ذلك كذلك ، فإنه لابد لمن يتبوّء هذا المنصب الخطير من صفات سامية، وشخصية متميزة ؛ لها خصائصها وسياساتها ، كي تقود هذه الأمة إلى مصافّ القيادة بين الأمم.

ثم إن الناظر في حال أمتنا اليوم ، يجد أن من أسباب تأخرها وتخاذلها ومن أسباب تفريطها في حقوقها وتألُّب الأمم عليها أنّ الذين يتقلدون مناصب القيادة فيها قد ابتعدوا كثيراً عن النماذج التي رسمها القرآن للشخصية الحاكمة الصالحة، هذا في الوقت الذي اقتربوا فيه من الشخصية الأخرى .. شخصية الحاكم الطاغية .

لقد رسم القرآن من خلال قصصه صوراً لكلا الشخصيتين: شخصية الحاكم الصالح، وشخصية الحاكم الطاغية ، «فها هي ذي سيرة الكثيرين من الأنبياء الذين تولّوا مسؤولية الحكم تظهر منها الصور المشرقة والأمثلة الرفيعة للحكم الأحسن والأمثل ، هذا في حين يمثل الطواغيت – كأمثال فرعون وهامان وقارون وغيرهم - أسوأ النماذج في الجبروت والاستبداد الذي يتكرر في أزمنة وأمكنة مختلفة [2].

وقد علم الله سبحانه أن من طبيعة الإنسان أن يستجيب للتوجيه مقتدياً بمن أحبه وأن ينفر من سلوك طريق سلكه شخص يبغضه ، فجعل سبحانه في القصص القرآني تصويراً للمثل الأعلى للشخصية الحاكمة الصالحة في صورة شخص يقتدى

---

(١) النظام السياسي في الإسلام ، للدكتور أبو فارس ، ص١٧٨.

(٢) انظر الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، عبد العزيز كامل ، ٢/٥٥٨.

به في خلقه وسلوكه ، وتصويراً لسبيل الشر والجبروت والطغيان في صورة شخص كريه يمضي إلى نهايته المحتومة[1].

بعد هذا أقول: إن حال أمتنا اليوم يطالبنا بأن نستخرج الرؤية القرآنية لشخصية الحاكم الصالح كي نسعى إليها في واقعنا ، ويقتدي بها حكامنا . وأن نستخرج الرؤية القرآنية للشخصية الطاغوتية التي تأبى الخضوع لشرع الله ومنهجه ، وتصرُّ على أن تعبد الناس لكبريائها وغرورها وصلفها ، نستخرجها كي نأبى أن نكون عبيداً لها ، وكي نسعى لإزالتها ومواجهتها بالطريقة التي وجهنا إليها القرآن .

ولعل هذه الدراسة خطوة في هذا الطريق، إذ إني حَرَصْتُ على بيان الأمثلة القرآنية للحاكم الصالح، وكشف صفاتها الشخصية، وسياسات حكمها في إدارة شؤون البلاد والعباد. وبالمقابل بحثت في الشخصية الطاغوتية، وحلَّلت صفاتها وسياساتها وما يتعلق بذلك .

* * *

(١) انظر القصص القرآني- إقناع وإبداع، السيد عبد المقصود عسكر، دار البشير للثقافة والعلوم طنطا، ط١، ٢٠٠٠، ص١٣.

ثانياً : القصص القرآني وقضية الحكم:

لقد عانت البشرية خلال تاريخها الطويل من فساد بيّن وواضح في عقيدة الألوهية بالذات . ولذلك فإننا إذا استعرضنا دعوات الرسل جميعاً وجدنا أنهم قد بدؤوا دعوتهم بالدعوة إلى توحيد الألوهية ، وهذا كثير في كتاب الله سبحانه ، وقد جلّاه القصص القرآني أيّما تجلية ، وسلطت الضوء عليه كلَّ التسليط .

إننا إذا استعرضنا – على سبيل المثال - سورة هود، وجدنا أن الجملة التي اتفق عليها جميع الأنبياء – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام- هي : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: من الآية٥٠) . بدأ بها نوح وهود وصالح وشعيب .

وهذا يظهر أن انحراف البشرية الأوّل كان في هذه العقيدة .. عقيدة الألوهية .

ولا يخفى أن من أخص خصائص الألوهية - التي دعا إليها الأنبياء - مسألة ردّ الحكم ورد حق التشريع والأمر والنهي إلى الله جل وعلا.

ولمّا كان القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء[1] ، سلك لإيصال أغراضه سبلاً شتى ، لها منهج تربوي فريد ؛ كانت القصص هي إحدى تلك الوسائل، التي احتلت حيزاً كبيراً من هذا الكتاب[2] ، لما للقصة من سهولة على النفس، وقبول لها فيها .

وقد سيقت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية بحتة، وقد تناولَتْ من هذه الأغراض عدداً وفيراً من الصعب استقصاؤه، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية[3]. ولا شكَّ أن من أعظم هذه الأغراض وأخطرها شأناً ، تلكم القضية الحساسة.. قضية الحكم والحاكمية ، وقد تناولها القصص القرآني في مواطن كثيرة .

---

(١) التصوير الفني ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٨٣م ، ص١٤٣.

(٢) القصص القرآني – إقناع وإبداع -، السيد عسكر ، ص١٣.

(٣) التصوير الفني ، ص١٤٤.

فتارةً يَعرض لها من خلال الحوار بين شخصيات القصة .

فها هو يوسف – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أثناء حواره مع الفتَيين في السجن يصرّح بها ، موضحاً أن أمر الحكم إنما ينبغي أن يكون لله وحده ، لا لأحد سواه . ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (يوسف: من الآية٤٠) .

ثم هو ذا أبوه يعقوب عليه السلام أثناء حواره مع أبنائه يعيد تلك الكلمة ذاتها – في إشارة إلى أن أمر الحكم من مرتكزات العقيدة السليمة والدين القيم - يقول سبحانه على لسان يعقوب : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: من الآية٦٧) .

أضف إلى ذلك ما جاء في خطاب الله إلى داود[1] في سورة ص ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ (صّ: من الآية٢٦) وما في هذا الخطاب من أمر صريح بالحكم بشرع الله ونهجه ، وهذا ما توحيه كلمة : (خليفة) ، وما تصرح به كلمة (بالحق) إذ كل ما كان مخالفاً لشرع الله فهو باطل قطعاً. وغير ذلك مما سنأتي عليه تفصيلاً .

وتارة أخرى يعرض لمسألة الحكم هذه – في القصة القرآنية - من خلال تجسيد شخصية الحاكم الصالح ورسم صفاته وسياساته أو تجسيد شخصية الطاغية الذي لا يقرّ لله بالحاكمية فتُصور ملامح شخصيته وسياسات حكمه .

والقصة القرآنية استطاعت أن تحلل النفس بما لها من أبعاد متشعبة تحليلاً عميقاً وتبين نزعاتها الطارئة في إطار عواطفها ، وتحت تأثير الظروف الخارجية ، وتصور واقعها في حيرتها واهتدائها، وفرحها وحزنها ، وغضبها وهدوئها[2].

---

(١) سيأتي ذكره بالتفصيل .

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن ، التهامي نقرة ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، والكتاب عبارة عن رسالة دكتوراة جامعية ، الجزائر ، ١٩٧١م ، ص١٠.

وشخصية الحاكم - صالحاً كان أو طاغية- من الشخصيات التي وقفَتْ معها القصة القرآنية طويلاً ، فأبرزته وسلطت الضوء عليه .

ولكن الجدير بالذكر أن القرآن لم يبرز هذا العنصر لذاته ، ولكن للتأسي بالشخصية الخيرة، والتنفير من الشخصية الشريرة، لذلك لم يعن برسم الخطوط الشكلية للشخصية وإبراز ملامحها الخارجية ، كما يفعل بعض المولعين بالقص، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين، ونحو ذلك من الأوصاف الفسيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان.. وإنما يكشف عن مزاج الشخصية وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها وسياساتها من خلال الوصف أو حكاية الأقوال أو الأحداث[1] .

تصف شخصية الحاكم الصالح ليكون قدوة ونموذجاً لمن يلي أمر المسلمين ويحكمهم، تصف لنا شخصية الطاغية حتى تحذّر منه، وتكشف هويته، وتحدد طرق مواجهته .

وقد تعددت في القرآن سير عطرة لنماذج من الحكام الصالحين في ومضات سريعة حيناً، وإضاءات مسهبة حيناً آخر ، فتركت لنا هذه وتلك أنواراً تسكب على القلوب فتكسبها يقيناً على يقين بأن هذا الدين من عند الله، وأن هؤلاء الرهط الكرام هم أولياؤه وأصفياؤه ، فليكن لحكامنا فيهم أسوة، ولتكن لنا في اتباعهم بإحسان قدوة[2].

هذا، في الوقت الذي أفاضت فيه في الحديث عن شخصية «الطاغوت»: فرعون. فكشفت خفايا نفسه الخبيثة، ومؤامراته التي ملأت البلاد ظلماً وجوراً. وجعلته نموذجاً لكل طاغوت بعده. لتبيّن للناس أن ملة الكفر واحدة، وأن كل

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص٣٦٠.

(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، ٢/٥٥٧.

حاكم بغير شرع الله هو فرعون، مهما تباعدت الأزمان، واختلفت الأمكنة. فالكلام هو ذات الكلام، والصفات هي نفسها، والأساليب في مواجهة الدعوة هي نفسها لا تزيد ولا تنقص.

وهذا القصص يؤكد لنا حقيقة هامة، وهي أن منهاج العدل التام هو منهاج الوحي المتمثل في رسالات الأنبياء. والواقع التاريخي القديم والحديث يؤكد أن العدل الرباني والطغيان الإنساني نقيضان لا يجتمعان ، وأن الذين كانوا يحكمون بما أنزل الله قولاً وعملاً ويستندون في سلطتهم إلى الوحي الإلهي حقيقة وواقعاً، هم أعظم حكام البشرية عدلاً وإنصافاً، وأكثرهم رحمة و تواضعاً، وإنهم من أجل ذلك حققوا في دنيا الواقع ما كان يحلم به الفلاسفة في عالم الخيال[1].

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، ٢/٥٥٧.

الباب الأول

الحاكم الصالح

في القصص القرآني

وفيه:

الفصل الأول: يوسف -عليه السلام- الحاكم الصالح.

الفصل الثاني: داود - عليه السلام- الحاكم الصالح .

الفصل الثالث: - سليمان - عليه السلام - الحاكم الصالح .

الفصل الرابع: ذو القرنين الحاكم الصالح.

الفصل الأول

يوسف عليه السلام

الحاكم الصالح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عوامل صاغت شخصية يوسف - عليه السلام..

المبحث الثاني: صفات شخصية يوسف عليه السلام .

المبحث الثالث: - القرآن يرسم الملامح العامة لسياسة يوسف - عليه السلام - في الحكم .

الفصل الرابع: ذو القرنين الحاكم الصالح.

المبحث الأول

عوامل صاغت شخصية يوسف

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: الاصطفاء الرباني .

المطلب الثاني: البيئة العائلية المتدينة .

المطلب الثالث: المحن والإبتلاءات .

المطلب الأول

الاصطفاء الرباني

إن اصطفاء الله سبحانه وتعالى ليوسف قد صاغ شخصيتهُ صياغة نقية متميزة . كيف لا؟ وهو الذي يعدُّه ربه لأمر خطير، ومنصب ذي أثر في فترة مزدحمة بالأحدث الجسام ، التي ستشكِّل مرحلة حرجة تخوضها البلاد وما حولها .

وهذا الاصطفاء الرباني لهذه الشخصية المتميزة يظهر في بداية حياة يوسف عليه السلام، حيث يتجلّى في الحوار الذي جرى بينه وبين أبيه نبيِّ الله يعقوب - عليه السلام- .

يقول الله سبحانه على لسان يعقوب يخاطب ابنه يوسف – عليهما السلام -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ (يوسف: من الآية٦) .

والمعنى: وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه سبحانه سيجتبيك ويختارك لأمور عظام في مستقبل الأيام، حيث يهبك من صدق الحس، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكاً سليماً [1] .

يقول أبو السعود :« ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك لجناب كبريائه ويستنبئك»[2] .

ولابدَّ لنا – ونحن نبين أثر الاصطفاء الرباني في شخصية يوسف عليه السلام-

---

(١) القصة في القرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص٢٠٦.

(٢) تفسير أبي السعود ، للقاضي أبي السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩، ٣/٣٦٤.

أن نقف مع هذه الكلمة ﴿يَجْتَبِيكَ﴾.

جاء في كتاب «مؤتمر سورة يوسف» حول هذا اللفظ ما نصه: «يقال جباه الله واجتباه جمعه إليه وأدناه منه ، فهو مجتبى منخول، مختار مصطفى كلها كلمات متقاربة، والجابية تجمع الماء وجمعها جوابي.. وكلمة جبى تشارك (جاب) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع، .. ووجه المقاربة في ما بينهما من المعنى : أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها. فمعنى يجتبيك في الآية : يختارك و يصطفيك ويدنيك منه، ويجمعك إليه، ويقتطعك من دون العالم إلى حضرته، تبارك المعطي الوهاب، فالله اجتبى يوسف وانتحله على إخوته واختاره على عموم من سواهم من الأسرة. واصطفاه على سائر أهل عصره، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرها، لأنه أصفاهم جوهراً، وأروضهم نفساً وأطيبهم قلباً، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع يجتبيك باعتبار ما سيكون ليوسف آنذاك في القريب العاجل» [1] ا.هـ.

يقول الإمام القرطبي في تفسيره : «الاجتباء: اختيار معالي الأمور للمجتبى» [2].

ويقول الراغب: الاجتباء: الجمع على طريق الإصطفاء.. واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء ومن يقاربهم من الصديقين والشهداء[3] .

وإننا إذا تأملنا التعريفين السابقين للاجتباء – تعريف الإمام القرطبي وتعريف الراغب - ثم نظرنا إلى أحداث قصة يوسف عليه السلام؛ وجدنا لمسات الإصطفاء

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ، ١/٢٢٦ .

(٢) تفسير القرطبي ، لمحمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٩٦م ، ٩/٨٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، والدار الشامية، بيروت ، ط٢، ١٩٩٩، ص١٨٦.

والإختيار تلازمها ولا تفترق عنها .

إن هذا الحاكم الملهم قد رافقته العناية الإلهية والإصطفاء الرباني منذ صغره، فابتلاءاته، فوصوله إلى الحكم .

ويلاحظ هذا في الأفعال التالية وإسنادها:

يجتبيك ربك ، يعلّمك ، يتم نعمته عليك .

مكنّا ليوسف ، ولنعلّمه .

آتيناه حكماً وعلماً .

لنصرف عنه السوء .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن .

علمني ربي .

مكنا ليوسف .

كدنا ليوسف .

منَّ الله علينا .

وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن .

آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث .

إن أثر رعاية الله واصطفائه ليوسف عليه السلام ظاهرة في كل ذلك ، فالله سبحانه هو الذي يصرّف لهذا النبي أنواع النعم ومعالي الأمور بلا سعي منه – كما عبر القرطبي والراغب -.

ثم لنقف مع قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: من الآية٢٤).

إن هذا العبد – لاحظ إضافته إلى نون العظمة العائدة إلى الله- من المخلَصين أي: من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار[1] .

ولنقرأ قول الله سبحانه : ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ (يوسف: من الآية٥٦) ، وقوله : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ (الأنعام: من الآية٨٣) ، وقوله على لسان إخوة يوسف : ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (يوسف: من الآية٩١) .

لا شكَّ أن قضية «الاصطفاء الرباني» هي أهم ما صاغ شخصية الحاكم الصالح يوسف عليه السلام. إن صلاحه عليه السلام – ونقاء سريرته وسيرته زكياه كي يصل إلى هذه الرتبة العظيمة، والمنزلة الرفيعة. ومن ثم كان لها أكبر أثر في سداد آرائه وتصرفاته ، والتوفيق في شؤون حياته وشؤون حكمه وإدارته .

* * *

(١) تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، مؤسسة الريّان ، بيروت، ط٢ ، ١٩٩٦م ، ٦١٨/٢.

المطلب الثاني

البيئة العائلية المتدينة

لا شكَّ أن للبيئة التي ينشأ فيها الإنسان ، ويتلقى فيها بذور أفكاره وسلوكياته الأثر الكبير في صياغة شخصيته ، وقولبة اتجاهاته .

فالعنصر الكريم والبيئة الطيبة التي يعيش فيها يكون لهما أعظم الأثر في توجيهه الأخلاقي ، فالإنسان يقتدي بأسلافه ، فلا يقدم على ما يمسّ كرامته ويلوث بيئته ويعرض أسلافه للذم والتجريح[1].

ويوسف عليه السلام قد انحدر من عنصر كريم، كان له – ولا شك - أثر في صياغة شخصيته. انظر حديث رسول الله ﷺ حين سئل عن أكرم الناس، قال: «أتقاهم» . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : «فأكرم الناس يوسف ، نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» [2].

فحين تبادر إلى ذهنه ﷺ السؤال عن شخصية أخلاقية؛ ذكر يوسف عليه السلام، وكأنه حين قال: «نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» يريد أن يبين أثر التربية أو الوراثة في الأخلاق ، لهذا قال بعد هذا: «خيارهم في الجاهلية

---

(١) نظرات في أحسن القصص ، محمد السيد الوكيل ، الدار الشامية ، بيروت ، ودار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص٤٠٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ وقوله ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً﴾ ، وقوله ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ ، برقم (٣١٩٤) ، ١٢٣٥/٣ .
ومسلم في صحيحه في كتاب الفضائل ، باب: من فضائل يوسف عليه السلام، برقم (٢٣٧٨) ، ١٨٤٦/٤.

خيارهم في الإسلام» إذ إن المعادن الأصيلة تظل أصيلة[1].

والبيت الذي نشأ فيه يوسف - عليه السلام - بيت نبوة، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتأثر بهذه الأجواء النبوية التي تعاهدته بالرعاية والاهتمام. كيف لا يكون ذلك؟ ونحن نلحظ ذلك التأثير حتى في كلام إخوة يوسف الذين فعلوا به ما فعلو . انظر إلى قولهم: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:٩).

أي تائبين إلى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لأعمالكم بما يكفِّر إثمها ، وعدم التصدي لمثلها، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم [2].

نلحظ في كلامهم – كما يقول صاحب كتاب الوحدة الموضوعية في سورة يوسف - أنهم وإن كانوا يمثلون الشر في قمته إلاّ أنهم في الوقت نفسه يمثلون الخير في أوّل بذوره فهم قد عدلوا عن قتله إلى طرحه أرضاً ، ثم أتبعوا ذلك بقولهم ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾[3].

فإذا كان الإخوة – وهم على ما هم عليه من ضلال في التفكير والسلوك - قد جرى على ألسنتهم ما يشير إلى تأثرهم- فلا شك أن يوسف عليه السلام قد كَمُل تأثره ببيئته وبيته.

فقد تلقى يوسف من تربية أبيه يعقوب على الإيمان والتوحيد ما يكفي لصياغة شخصيته، وكان من بديع صنع الله لعبده يوسف أن أُخرج من حجر أبيه وقد بلغ

---

(١) يوسف في القرآن ، أحمد ماهر البقري ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ط بدون ، ص٩٥.

(٢) المنار ، محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ١٢/٢٢٢.

(٣) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، د.حسن باجودة ، منشورات تهامة ، جدة ، السعودية ، ط٢ ، ١٩٨٣م ، ص١٣٩ . وقد ذكر المؤلف عدداً من اللفتات التي تشير إلى بذور الخير منهم، ومدى تأثرهم بالبيئة النبوية .

سنّ التمييز أو بعده ، بمعنى أنه تحصل له العقل الكافي الذي يستوعب دعوة الإيمان[١].

ومن ثم فإن أثر التربية التي عاشها يوسف في كنف والديه وهو صغير ظل يحرك سلوكه نحو الخير إلى آخر مدى. إذ كان أبوه يذكره بأجداده: إبراهيم وإسحاق، ليتمثل أعمالهم دائماً ، ويقول في نفسه: إنه لا ينبغي أن ألوث سمعتي وشرف الأسرة بعمل دنيء استجابة لنزوة حقيرة طارئة [٢].

فهذا أبوه يعقوب - عليه السلام - يخاطبه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف:٦) .

إن يعقوب عليه السلام يربي يوسف على هذا الكلام ، يعلمه أن الله يفضله ويجتبيه ويعلمه ، ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأن إتمام النعمة هذا ليس حدثاً في بيته ، إنما هو عريق في أسرته! يربى يوسف على هذه المعاني ، وينشأ هو عليها فلا بد أن يكون لها الأثر العظيم في تكوين شخصيته[٣].

وهنا أمر آخر لا بد من الإشارة إليه، ذلكم أن قوة العلاقة بين الأب وابنه، ومقدار الحب المتبادل بينهما، يسهّل العملية التربوية، ويجعل من عقل هذا الابن وقلبه حقلاً خصباً للتلقي والتنفيذ.

نلاحظ هذا في الحوار بين الأب وابنه ومقدار ما فيه من إشعاعات دافئة .

اقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

(١) سورة يوسف ، دراسة تحليلية ، د.أحمد نوفل ، دار الفرقان ، عمان ، ط٢ ، ١٩٩٩م ، ص١٥٣.

(٢) يوسف في القرآن ، البقري ، ص٩٦.

(٣) انظر : نظرات في أحسن القصص ، الوكيل ، ص٤٠٣.

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يوسف:٤-٥) .

إن الجو الذي يدور فيه الحوار بين يوسف ويعقوب ودّيّ للغاية، فالغلام يوسف يضمّن حديثه قوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ الذي كان بإمكانه أن يستغني عنه ، ولكن الود والجو الروحي لم يكونا ليسمحا بذلك[١] .

وإن الشيء نفسه يقال عن قول يعقوب : ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾، إذ إن هذا التصغير كناية عن تحبب وشفقة [٢] . فإن الأب الحنون ليتقدم ابنه في هذا المضمار، فيأتي بهذا اللفظ الموحي بعمق الحب والقرب، ليلائم هو أيضاً ذلك الجو المليء بالمشاعر الدافئة الرقيقة .

كلُّ هذا الذي ذكرنا، كان له في توجيه شخصية هذا النبي الكريم أثر عظيم، ليكون بعد ذلك من يسوس الدولة سياسة راشدة ، منبثقة عن الشرع الإلهي الرباني، الذي سار بمصر في ذلك الوقت إلى بر الأمان .

* * *

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، ص٣٣٨.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، ط بدون، ٦/٢١٣.

المطلب الثالث

المحن والإبتلاءات

إن المحن التي هي سنة الله في الدعوات وأصحابها وإن كان ظاهرها الضر والشرّ ، ولكنها - في حقيقة الأمر- تحمل في طياتها الخير الكثير، فهي منح في صورة محن[1].

وإن هذه الشخصية التي تُعدُّ للقيام بدور عظيم على صعيد مصر ومن حولها – دور النبي الحاكم - لتحتاج إلى عناية الله ورعايته لتربيتها وصياغتها حتى تتمكن من النهوض بما أوكِل إليها من مهام .

يقول صاحب كتاب «سيكولوجية القصة في القرآن»: «يصور بعض القصص القرآني ما أكرم الله به رسله من عناية، وما أحاطهم به من رعاية لتوجيههم وتربيتهم تربية تُعدّهم للنهوض بتبليغ الرسالات السماوية، ومجابهة قوى الشر والطغيان في الأرض، فابتلاهم بشتى البلايا والمحن، ليقوّي عزائمهم بالشدائد.. ويحيي فيهم الشعور بالضعف أمام قوته، وبالذلة أمام عزته ، وبالحاجة أمام غناه، وبالرجاء في استجابة الدعاء»[2].

إننا إذا نظرنا إلى شخصية يوسف عليه السلام وما فيها من صفات - كما سنرى في المبحث التالي- لنجد أثر المحن والابتلاءات التي خاضها وخرج منها سليماً معافى ، بارزاً في إضفاء طابع الثبات والجرأة والالتجاء إلى الله على شخصية هذا الحاكم الفذّ .

---

(١) من فقه الدعوة ، مصطفى مشهور ، دار التوزيع ، القاهرة ، ط بدون ، ١٩٩٥م ، ص٧٩.

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن ، ص٥٥٣.

فيوسف عليه السلام قد واجه ابتلاءاتٍ متنوعةً في طبيعتها واتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة، وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات، ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً[1].

إن اللبنات التي تعدُّ حتى تكمل بناءً ما، لا تصل إلى مرحلة الصلاح لذلك البناء حتى تمر بمرحلة الحريق، إن كان كذلك، خرجت هذه اللبنات من الحريق لبنات صلبة تتحمل الضغط الشديد، ولا يذيبها الماء، والمحنة تمثل مرحلة الحريق حتى تزداد هذه النفوس إيماناً وصلابة ، وتصاغ هذه الشخصيات صياغة تمكنها من القيام بمسؤولياتها العظيمة[2].

يقول عبد الوهاب نجار صاحب كتاب «قصص الأنبياء»: «إنكم ترون يوسف تقلب في حالين: بؤس ورخاء، وتداولته أيدي ريحين: زعزع ورخاء، وهو كالذهب الإبريز، لا يزيد على التقلب في النار إلا صفاء ، أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران»[3] .

إن أوّل ما أصاب يوسف عليه السلام من البلاء، محنة عظيمة، كان ولا شك في حاجة إلى مثلها كي تدعكه الحياة وتعلّمه ، فهو الفتى الصغير، القريب من قلب أبيه. هذه المحنة وإن كانت صعبة أليمة في وقتها وفي سببها وفي من حاك خيوطها ونسج أثوابها إلا أنها كانت بداية الطريق، وحجر الزاوية في الحوادث المثيرة التي حفلت بها حياة يوسف عليه السلام والتي انتهت إلى وصوله إلى الحكم.

«يوسف في الجب يحتويه ظلامه، ويشتمله سكونه، محنة يمتحن بها هذا الفتى

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/١٩٥٢.

(٢) انظر : من فقه الدعوة ، ص٨٢.

(٣) قصص الأنبياء ، عبد الوهاب نجار دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٦م ، ص٢٠٢ . وانظر تيسير المنان ، ص٢٩٤.

الكريم، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب، ويفتنهم بضروب الآلام، ليكونوا أقدر على ما يلقى عليهم من مهمّات الأمور وعظيماتها»[١].

ويتجاوز يوسف المحنة الأولى.. محنة حقد الإخوة وتآمرهم عليه، وينجيه الله من هذه المحنة، ليدخل في محنة أخرى، وهي محنة الإسترقاق، حيث يعيش رقيقاً في مصر ، وهو الكريم الشريف[٢] . ويلاقي هناك في بيت العزيز لوناً آخر من المحن «إنها محنة التعرّض للغواية في جوّ القصور ، وفي جوّ ما يسمّونه (الطبقة الراقية) وما يغشاها من استهتار وفجور.. ويخرج منها سليماً معافى، لكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها»[٣] وتعدُّه هي بدورها لمنصبه القادم: «الحاكم الصالح».

ويدخل السجن بقرار ظالم يصدره من هم في سدة الحكم، ليكون هذا السجن مدرسة أخرى .

إن مثل هذه القرارات الظالمة تعدُّ امتحاناً وابتلاءً يمتحن به الأبرياء المخلصون، ليصبروا ويتعلموا في السجن أو المنفى مدرسة الصبر الجميل[٤].

ويتعرف منه على عامّة الناس وعلى «الطبقة العاملة»، ليعرف احتياجات هذه الطبقة ومشكلاتها ، وطبيعة تفكيرها، ليكون هذا الآخر عوناً له في القيام بأعباء الحكم .

وبهذه الشخصية القوية التي ذاقت ألوان البلاء جلّى يوسف - عليه السلام- في إدارة دفّة الحكم في قطر عظيم كمصر، وضبط الأمور في يسر وسلاسة بلا عنت على الناس ولا رهق ولا بطش ولا عسف ، وزاد الإنتاجية وأنقذ البلاد[٥].

---

(١) قصص القرآن ، جاد المولى ، ص٧٦.

(٢) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ٢/١٠٩.

(٣) في ظلال القرآن ، ٤/١٩٧٨.

(٤) مدرسة الأنبياء عبر وأضواء ، محمد الزين ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص١٣٩.

(٥) انظر : سورة يوسف ، دراسة تحليلية ، ص١٣٢.

المبحث الثاني

الصفات الشخصية ليوسف – عليه السلام –

كما يعرضها القرآن

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول: العلم .

المطلب الثاني: العفة والصلاح .

المطلب الثالث: العفو والوفاء .

المطلب الرابع: الشجاعة والثبات.

المطلب الخامس: الوعي والذكاء.

المطلب السادس: شخصيته الدعوية – عليه السلام –

المطلب الأول

العلم

يقول الإمام الماوردي في كتابه (نصيحة الملوك): «ثم إن مما يجب على الملك أن يقتنيه من الفضائل والمآثر والمناقب والمفاخر ما لا يستغني عنها، أو يحتاج إليها في الديانة والسياسة الحكمية الملّية، يكسب بها الحمد، ويستحق بها المدح ويستأهل بها الفضل: العلم»[1] .

لقد وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا يوسف عليه السلام مراتٍ بهذه الصفة وفي عدة مراحل من حياته عليه السلام:

أولها: وهو صبي صغير يقصُّ رؤياه على أبيه ، يقول سبحانه على لسان يعقوب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾(يوسف: من الآية٦) .

ثم يذكر سبحانه أنه مكن ليوسف في الأرض، حين جعل من بيت العزيز مثوىً كريماً له ليعلمه تأويل الأحاديث: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾(يوسف: من الآية٢١) .

ويصفه بالعلم مرة أخرى حين بلغ أشده في بيت العزيز :﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) .

فيوسف عليه السلام يعيش في بيت العزيز، لا كما يعيش من هم في سنّهِ من

---

(١) نصيحة الملوك، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: محمد الحديفي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط بدون، ص٢٠٩.

الشباب حياة اللهو والعبث، بل عاش حياة فكر وتأمل وعلم، ودراسة واقعية للساحة التي تحيط به لما تقتضيه الحكمة من معايشة للواقع، وفهم له، وملاحقة لخصوصيات التجارب المختلفة، كي يصدر الحكم على الأشياء من قاعدة الوعي العميق لطبيعتها، وطبيعة انطلاقها وحركتها، وقد وهبه الله من فضله ما يكفل وصوله إلى الغايات التي يريدها من حركة حياته في خط رسالته وتدبيره، كونه أحسن النية، وصدق العمل، وسار في الطريق المستقيم ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ فأصبح من أولي الحكم الذين يقصدون للحكم من موقع فكري عميق واسع، وعلم غزير شامل، جزاءً لصبره وإحسانه[1].

وهذا ما فسّره الإمام القرطبي لقول الله سبحانه: ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ قال: «أي آتيناه علماً بالحكم»[2].

ويقول صاحب المنار: «أي وهبناه حكماً إلهامياً وعقلياً بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقروناً بالحق والصواب ، وعلماً لَدُنّياً فكرياً بحقائق ما يعنيه من الأمور»[3].

ثم بعد هذا – وحين يدخل السجن - يصف يوسف عليه السلام نفسه بالعلم، ويعترف بأن ذلك محض فضل من الله سبحانه، بعد أن عبَّر لصاحبيه في السجن رؤييهما، فقال :﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف: من الآية٣٧).

ثم يستدعيه الملك ويعرض عليه أن يستعمله في المنصب الذي يختاره بعد أن استخلصه لنفسه، فيعيِّن يوسف عليه السلام (خزائن الأرض) ويصف نفسه بالعلم مرة أخرى. ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ (يوسف:٥٥) .

---

(١) من وحي القرآن ، محمد حسين فضل الله ، دار الملاك ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٨م ، ١٨٢/١٢.

(٢) تفسير القرطبي ، ١٠٧/٩.

(٣) المنار ، ٢٣٠/١٢.

«فقوله ﴿إني حفيظ عليم﴾ تعليل لجعله على خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استحفظه عليه من شؤون الدولة ، عليم بتصريف الأمور وإدارتها على وجه مرضي لا اتكال فيه ولا تعقيد» [1].

وهاتان الصفتان تعمّان وجوه التثقيف والحيطة، لا خلل معهما لعامل[2] .

ثم يصفه الله سبحانه بالعلم أثناء فترة حكمه، لمّا فعل بإخوته ما فعل ليأخذ أخاه قال الله سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: من الآية٧٦) .

وتختم الأحداث التي قصها الله علينا فيما يخص قصة يوسف، بأن وصف نفسه أثناء دعائه بالعلم ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: من الآية١٠١) .

ويذكر المفسرون أقوالاً في تفسير ﴿تأويل الأحاديث﴾ تعود إلى قولين – على ما يذكر الزمخشري-[3]: الأول: الأحاديث بمعنى الرؤيا، وتأويلها عبارتها، والثاني: أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها.

يقول الشنقيطي في أضواء البيان: والظاهر أن الآيات المذكورة تشمل ذلك كله

---

(١) دعوة الرسل إلى الله، محمد أحمد العدوي ، ص١٣٠، دار المعرفة، بيروت، ط بدون، ١٩٩٧م، ص١٣٠.
وانظر: تفسير الكشاف، للإمام أبي القاسم الزمخشري، ٤٦٣/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٤٦٣/٢ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٩٣م ، ٢٥٧/٣.

(٣) انظر : الكشاف ، ٤٢٧/٢.

من تأويل الرؤيا ، وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء[1] .

ومجيء وصف شخصية يوسف عليه السلام بالعلم في كلّ مرحلة من مراحل حياته، وذكر هذا في المشهد الأوّل من قصته ، وذكره أيضاً في المشهد الأخير، ليعطي تصوراً واضحاً عن تلك الشخصية التي زينها العلم وكان لها عوناً في رسم صورة: (الحاكم الصالح) ، الذي ساس البلاد ونجا بها في أحلك الظروف التي خاضتها[2].

ونظرة إلى تعبيره لرؤيا الملك كفيلة بإبراز علمه في الزراعة والاقتصاد، وتصويره بصورة الخبير فيهما . قال الله تعالى يقصّ علينا ذلك: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف:٤٦-٤٩) .

لم يكتم يوسف - عليه السلام- علمه ، بل أخبر السائل بتأويل الرؤيا، وحمّله رسالة إلى الملك يوصيه فيها باتباع سياسة زراعية ناجعة لمواجهة أزمة الجفاف والقحط في السنين السبع الثانية[3]، وإذا به خبير اقتصادي وخبير زراعي، وخبير مالي، وخبير تمويني، وخبير في التخطيط، أضف ذلك كله إلى خبرته في تأويل

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ٣/٤٠.

(٢) ومن الجدير بالذكر أن العلماء قد اشترطوا فيمن تعقد له الإمامة أن يكون عالماً، كما قال الماوردي في الأحكام السلطانية . وقال الجويني في كتابه : غياث الأمم والتياث الظلم، بعد أن اشترط في الحاكم العلم: والدليل عليه أن أمور معظم أصول الدين تتعلق بالأئمة. (غياث الأمم، ص٤٥، وضع حواشيه: خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م) .

(٣) مدرسة الأنبياء عبر وأضواء ، ص١٣٤.

الأحاديث وتعبير الرؤى[1]. ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي بشكل مستمر، لتكون أعوام الخصب أعوام زراعة مركزة ، يستفاد منها في كل ساعة من ساعاتها، ومن كل شبر صالح للزراعة من الأراضي ، على أن تتَّبع سياسة ترشيد الاستهلاك، إذ يأكل الناس ما يحتاجون . ويخزنون الفائض بطريقة علمية متقنة ، وهي أن القمح في سنبله ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾، وكأن يوسف - عليه السلام - في هذه النصيحة التخزينية يقدم لنا خطة لما يسمّى الآن بصوامع الغلال في المستودعات التموينية . ويدعو إلى ما يمكن أن يسمّى تقنين وترشيد الاستهلاك ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاّ قليلاً مما تحصنون﴾[2] . ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بمجيء العام الثامن – وهو الخامس عشر من ابتداء سنوات الرؤيا- مباركاً خصباً كثير الخير غزير النعم، وعلم هذا العام بطريق الوحي[3] .

نرى أن يوسف – عليه السلام- قد جمع من العلم ما يحتاجه الحاكم السائس لشؤون رعيته: علم الدين و علم الدنيا .

* * *

(١) انظر القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ٢/١٦٠.

(٢) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ٢/١٦١ ، ومدرسة الأنبياء ، ص١٤٣.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق وتعليق: عادل عبد الموجود، علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ٥/٣١٥.

المطلب الثاني

العفة والصلاح

شكلت شخصية يوسف - عليه السلام - صورة مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم والحاكم الصالح، وضربت أروع الأمثلة في الصلاح والعفَّة، وبينت حق البيان ضرورة كون الحاكم الصالح حسن السيرة نقيّ السريرة، قويم المسلك، عَطِر التاريخ .

وآيات سورة يوسف تجلّي بشكل واضح هذا الجانب المشرق من شخصية هذا الحاكم الصَّالح.

فإننا نلاحظ تردد وصفه بالإحسان كثيراً في السورة الكريمة، المرة الأولى في قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) .

والمرة الثانية التي وصفه بها ربه تعالى في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦) .

إن من ثمرات الإحسان في الدنيا التمكين للمحسنين في الأرض مع ادخار أجرهم كاملاً يوم القيامة. وكم يكون الحاكم بالذات، بحاجة إلى التمكين في الأرض؟ وكم هي أمتنا بحاجة اليوم إلى هذا الوعد الكريم؟

وفي مرة ثالثة وصف يوسف بالإحسان على لسان السجينين : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: من الآية٣٦) . ولقد أنبأ السجينان عن إحسان يوسف - عليه السلام - ومسلكه في السجن ، وخلقه الرفيع في المعاملة ، وتهذيبه العالي .

ومرة وصف بالإحسان، ولكن على لسان إخوته، وهم لا يشعرون من يمدحون، حين رجوه قائلين : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٧٨) .

ومرة يأتي الحديث على لسان يوسف نفسه في حديثه عن سنة الله التي أُكرم يوسف بمقتضاها، يقول : ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠)[1] .

ثم نرى هذا الحاكم الصالح، المخبت لربه، اللاجئ إليه يرفع يديه ويدعو الله سبحانه – في آخر مشاهد القصة- أن يلحقه بالصالحين، ويجعله في ركبهم، إذ إنه قد أمضى حياته على نهجهم: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١) .

وإننا نرى كثرة ذكر يوسف لربه والتجاءه إليه، ونسبة الفضل إلى كبريائه وعظمته جل وعلا. وهذا من علامات الصلاح التي تميز هذه الشخصية .

قال الله سبحانه على لسان يوسف - عليه السلام - حين راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣) .

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣) .

---

(١) انظر : سورة يوسف دراسة تحليلية ، ص١٤٧.

وقال : ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف: من الآية٣٨) .

وقال :﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾(يوسف: من الآية٩٠).

وغير ذلك من المواقف التي يذكر فيها هذا الحاكم الصالح ربه سبحانه ويستعيذ به ويلتجئ إليه .

ومن الأمثلة البينة على صلاح يوسف - عليه السلام- وعفته، والتي تطبع هذه الشخصية بطابع مميّز ، قصته مع امرأة العزيز.

فقد كان يوسف رجلاً، ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده، وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب، والجمال والملاحة يدعوانه إلى الهوى والترف، وكان مستغرقاً في النعمة، هنيء العيش، محبوراً بمثوى كريم، وذلك من أقوى أسباب التهوس والترف[1].

هذا كله إلى جانب ما واجهه من تلك المرأة (ذات المنصب والجمال) .

ويذكر لنا ابن قيم الجوزية – رحمه الله - وجوه قوة الداعي الذي دعا يوسف - عليه السلام- إلى تلك المرأة وهو مع ذلك كله «يستعصم» .

يقول ابن قيم الجوزية عن تلكم الوجوه التي تمثل قوة الداعي :

«**أحدها** : ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ..

الثاني : أن يوسف - عليه السلام - كان شاباً ، وشهوة الشاب وحدّته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة .

---

(١) قصص القرآن الكريم ، د.فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، عمان ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص٤٠٠.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة ، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ..

السادس: أنها كانت غير ممتنعة ولا أبيّة ..

السابع: أنها طلبت وأرادت ، وراودت وبذلك الجهد، فكفتهُ مؤنة الطلب، وذلّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها..

التاسع: أنه لا يخشى أن تنمّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي..

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والإحتيال، فأرته إياهن[1]، وشكت حالها إليهن لتستعين بهنّ عليه ..

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه ..

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما .. بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (يوسف: من الآية٢٩) وللمرأة : ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (يوسف: من الآية٢٩). وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع . وهذا لم يظهر منه غيرة»[2].

---

(١) لعل الأصوب : فأرتهن إياه .

(٢) الجواب الكافي ، ص٣٥٠ وما بعدها (باختصار) .

كلُّ هذه الدوافع – التي كان يكفي أحدها - لم تزحزح الإيمان، ولم تسلب العفة من هذه الشخصية القدوة .

إن الله صرف عن يوسف الهمّ بامرأة العزيز[1]، وأبعد عن ذهنه التفكير بارتكاب الفاحشة، وذلك ليصرف عنه السوء والفحشاء، ولينزهه عن مقارفة الزنا والفاحشة، وليبقيه طاهراً عفيفاً[2] ، إذ إن هذا ضرورة للمهمة الخطيرة التي تُعدُّ لها هذه الشخصية العظيمة.

ولست بصدد الحديث عن تفصيلات الحادثة، واختلاف المفسرين حولها، إلاّ أنني أقف مع بعض الإشراقات التي تظهر مكنونات نفس يوسف - عليه السلام-.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ[3] ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣) .

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز، والمتمثلة في: المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها: (هيت لك) بدواعي العفاف الثلاث التي ردّ بها يوسف عليها، والمتمثلة في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: من الآية٢٣)[4].

---

(١) الصحيح أن الهم لم يحدث أصلاً من يوسف - عليه السلام - وإنما كاد ، إذ أنه رأى برهان ربه. انظر: قصص القرآن الكريم للدكتور فضل عباس، ص٣٩٢، سورة يوسف دراسة تحليلية للدكتور أحمد نوفل، ص٣٤٣ ، وما بعدها ، القصص القرآني للدكتور صلاح الخالدي، ١١٩/٢.

(٢) القصص القرآني ، د. صلاح الخالدي ، ١٢١/٢.

(٣) يقول الدكتور إبراهيم السامرائي : «المراودة من (راد يرود) إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التجمّل لمواقعته إياه) . انظر: من بديع لغة التنزيل، للدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دار الفرقان ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص١٦٣.

(٤) القصة في القرآن للطنطاوي ، ص٢٢٠.

استمع إلى قوله: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾. كيف أعصي ربي الذي أحسن مثواي؟ أكرمني ورحمني، وكان معي في كل محنة ومنَّ عليَّ بكل نعمة!!

وكأني بيوسف - عليه السلام - في تلك اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، فيتذكر حاله عندما ألقاه إخوته في الجبّ المظلم، وإذ برحمة الله تدركه، فتبشره وهو في القعر المظلم ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: من الآية١٥) [١].

ثم انظر إلى قوله الله سبحانه على لسان امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: من الآية٣٢) (استعصم) إنها برهان العظمة، ودليل القوة.. كان أقوى من كل شيء، أقوى من الشهوة العارمة، (استعصم) ارتفع فوق كل مظاهر ما يعجب به الناس، (استعصم) فلم يعبأ بكل مظاهر الأبهة والسلطان والترف[٢].

وتوحي صياغة الفعل الماضي (فاستعصم) بمقدار الجهد والمعاناة، والمجاهدة التي قام بها يوسف، حتى نجا ونجح وفاز. إن الحروف الثلاثة في الفعل: الهمزة، والسين والتاء، تدلّ على استحضار العصمة وطلبه لها، وقوة برهان ربه في قلبه الذي عصمه من الفاحشة .

واستعصم أمام ماذا؟ أمام المراودة. يقول الرافعي في وحي القلم: «وأعجب من هذه الكلمة (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لو بعد لون ، ذاهبة إلى فنّ راجعة من فنّ، لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها ، تذهب وتجيء في رفق»[٣]

---

(١) الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، ٤٥.

(٢) قصص القرآن الكريم ، د.فضل عباس، ص٤٠٠.

(٣) وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي دار الكتاب العربي، بيروت، ط بدون، ١٠٤/١ .

وقول الله سبحانه على لسان يوسف - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: من الآية٣٣) إنه جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبياً، وهيأه لأن يكون زعيماً. جوابٌ ما أبردَه على قلب المؤمن، وأحبه إلى نفسه!![1].

ويدفع يوسف -عليه السلام- ثمن طهارته بأن يغيَّب في السجن بضع سنين[2].

ولكن هيهات هيهات أن يتألّم البحر من ساذجٍ يقف على شاطئه ويضرب بقدميه أمواجه المتلاطمة، ظاناً أنه بهذا ينال من البحر العظيم.

ويلبث يوسف في السجن بضع سنين، ويأتيه مبعوث الملك حاملاً معه تلك الرؤيا، ويفيض يوسف في تأويلها، وينصح في ما يقول، ويعود مبعوث الملك إلى الملك، وينقل إليه ما قاله يوسف.

ويأمر الملك باستدعاء يوسف إلى حضرته، وماذا كان الرد؟

﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: من الآية٥٠) ارجع إلى ملكك، واطلب منه أن يُعيد بحث قضيتي من جديد. إن الناس لا يعرفون حقيقة قضية يوسف وقصته مع امرأة العزيز ومع نسوة المدينة. لقد شوَّه الإعلام الرسمي – الذي يشرف عليه عزيز مصر- سمعة يوسف، وقدّمه للناس بصورة الظالم المجرم، الذي عوقب عقوبة السِّجن هذه للجريمة الأخلاقية البشعة التي أقدم عليها.

فهل يخرج للناس بهذه الصورة والسمعة؟ وهل يرضى بأن يمنّ عليه الملك بعفوه وتجاوزه عن جريمته؟ وهل من المناسب أن يليَ المراكز الإدارية العليا – فضلاً

---

(١) دعوة المرسل، ص١١١.

(٢) مدرسة الأنبياء، ص١٣٣.

عن الحكم نفسه - وهو بهذا الماضي الأسود كما يبدو للناس؟[1] اللهم لا .

ويطلع الملك على «ملف» القضية، وتثبت براءة يوسف -عليه السلام-، ويعلم الجميع حقيقة ما جرى، وتوسم سيرته - عليه السلام - بقول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (يوسف: من الآية٥١) .

وهذا يبرز أهمية كون الحاكم نظيف السيرة ، حسن السُّمعة ، بعيداً عن الشبهات. وإن في قصة يوسف وصموده أمام إغواء امرأة العزيز درساً في العفة وفي مغالبة الشهوة والإنتصار عليها، مما يعتبر أعظم مثل يمكن أن يقتدي به الكثيرون الذي يبتغون السمو الإنساني. فشهوة الجنس هي تلك القوة العارمة التي خضع لها وركع أمامها عظماء التاريخ – وليسوا عظماء - من ملوك وقواد جيوش. ولكن الإنتصار عليها هو مفتاح العظمة الحقيقية، ولا سيما إذا لابستها تلك الظروف والإغراءات والتهديدات التي حصلت ليوسف - عليه السلام-[2] .

إن الثبات في هذا الموقف الذي تزل فيه الأقدام ، هو – بعد تدبير الله وفضله - الذي أوصل يوسف إلى ما وصل إليه من تسلُّم إدارة البلاد ، ثم اكتسابه لثقة شعبه، وقدرته على إيجاد تفاعل شعبي مع خططه. فثقة الشعب بطهارة هذه الشخصية واستقامتها قد جعلته يسلم قيادته لها، ويتوسم فيها «شخصية الحاكم الصالح» .

* * *

(١) القصص القرآني، د.صلاح الخالدي، ٢/١٦٤-١٦٥.

(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم، لعفيف عبد الرحمن طبارة، دار العمل للملايين، بيروت، ط٢١، ٢٠٠١م، ص١٩٣.

المطلب الثالث

العفو والوفاء

صفة أخرى ميَّزت شخصية يوسف - عليه السلام-، تلكم الصفة التي زينته وزادته جمالاً نفسياً إلى جانب جمال مظهره الخارجي؛ هي عفوه عن من أساء إليه، وعن من اقترف في حقه أبشع الجرائم ، سواءٌ أكانت هذه الجرائم نفسية أم جسدية.

وهل لهذه الصفة أثر على الشخصية من حيث كونها شخصية حاكمة؟

قد قيل: إن الحِلْم والعفو في الحكام من الصّفات التي تدلّ على علوّ أقدارهم وعظيم سلطانهم[1].

وقيل: «المُلْك أبقى بالعفو»[2] .

ولنقف مع الآيات والمواقف التي تقصّ علينا مظاهر العفو والحِلْم في شخصية يوسف -عليه السلام- .

قبل ذلك أشير إلى الخلاف الذي ذكره الإمام القرطبي في سبب جعل قصة يوسف - عليه السلام- أحسن القصص . يذكر لنا - رحمه الله - أقوالاً منها ما نحن بصدد الحديث عنه.

يقول: «وقيل: سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم – بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم حتى قال : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (يوسف: من الآية٩٢)[3] .

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ، ١١٧٤/٢ . انظر يوسف دراسة تحليلية ، ص٥٣٦.

(٢) نصيحة الملوك ، ص٢٤٤.

(٣) تفسير القرطبي ، ٨٠/٩.

وهذا فيه إشارة إلى عظم هذا الخلق وكرم صاحبه» .

أوّل المواقف التي يتجلّى فيها عفوه -عليه السلام-، موقفه عندما جاءه السّاقي يسعى يريد منه أن يؤوّل رؤيا الملك -- وقد كان ذلك حين مرّ على يوسف في السجن الذي دخله ظلماً وجوراً بضع سنين قبل أن يتولّى يوسف - عليه السلام - مقاليد الحكم .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف:٤٥-٤٩) .

أين يظهر الخلق العظيم ليوسف -عليه السلام- في هذا الموقف؟

الحقيقة أن خلق العفو في هذه الآيات يظهر في يوسف -عليه السلام- من جانبين :

الأول: نذكر أن يوسف - عليه السلام- حين سأله السجينان تعبير رؤييهما وفعل هو ذلك ، كان - عليه السلام - قد طلب من الذي ظن أنه ناجٍ منهما أن يذكر قضيته ومظلمته أمام الملك، لعلّ الحقيقة تظهر ولعل الظلم يزاح. لكن ما الذي كان؟

إن الناجي منهما قد نسيَ الأمر، وقد سبب هذا الخطأ مكث يوسف - عليه السلام - في السجن سنين طويلة .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف:٤٢) .

ثم يعود السّاقي بعد أن تذكر يوسف بعد كلّ تلك السنوات – والظاهر أن الساقي إنما تذكره لمصلحة كما يبدو من السّياق ، وهي التملّق للملك بالإسهام في إيجاد جواب لما طلبه- أقول: يعود الساقي بعد أمة من السنوات ليطلب من يوسف أن يؤول الرؤيا!

فماذا كان ردّه - عليه السلام-؟

«يؤول يوسف الرؤيا، ونلحظ أن النفوس الكبيرة تنسى أو تتناسى كثيراً من حظوظها لأن لها عناية بما فيه خير الآخرين وصلاحهم ، وها نحن لم نسمع كلمة من يوسف -عليه السلام- فيها شيء من التأنيب أو العتاب لذلك السّاقي الذي طلب منه يوسف -عليه السلام- أن يذكره ، وتمرّ السّنون ولا يخطر له ببال»[1] .

أما الثاني : فنلحظه من تعبير يوسف -عليه السلام- لرؤيا الملك وما تخللها من نصائح.

إننا جميعاً لنقف بإجلال وإكبار أمام هذا الخلق العظيم الذي اتصفت به شخصية يوسف -عليه السلام-، الذي أُسيء له في ذلك المجتمع الإساءة كلها ، والذي كان مازال في السجن الذي زُجّ فيه. ولا نتبيّن هذا الخلق العظيم – خلق العفو- من تعبيره للرؤيا فقط والذي يعود بالنفع العظيم على ذلك المجتمع، وإنما من نصحه البعيد المدى الغريب الصفة للقوم وإعطائهم بسخاء علم العام الخامس عشر ، ذلك العلم الذي منحه الله إياه وخصه به، والذي لو فرض أنه سكت عنه ، فلن يخطر بحال على بال أحد السؤال عنه أو الإحساس بفقده[2] .

والموقف الآخر الذي يتجلّى فيه العفو في شخصية يوسف -عليه السلام-؛

---

(١) قصص القرآن الكريم ، د.فضل عباس ، ص٤٢٤.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، " بتصرف " ، ص٣٩٦.

موقفه من إخوته، الذين تآمروا عليه وألقوه في ظلمة الجبّ بعد أن انتزعوه من أبيه الحاني ، وتركوه وحيداً[1] يصارع أمواج الحياة المتلاطمة .

وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة - بعد أن صار يوسف عزيز مصر بل حاكمها الأوّل- وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة . ويجيء إخوة يوسف، ويدخلون عليه، فيعرفهم وهم له منكرون. ما أعظم حكم الله!! تلك لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف ، إنها البداية التي كان يترقبها . يعرفهم ، ولكنه يتمالك نفسه -بحلمه- ويستطيع على رغم كلّ ما يتفاعل فيها أن يخفي الأمر[2]، ويتصرف بكل هدوء وحكمة. ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (يوسف:٥٨) .

ويتعامل معهم وفق خطة محكمة - بتوفيق الله وتدبيره- ، ولمّا دخلوا عليه بعد أن أصابهم ما أصابهم من أخذ أخيهم، وحيرتهم من لقاء أبيهم، يدخلون بنفوس منكسرة، وحالٍ تعلن سوء مصابهم على يوسف -عليه السلام- . قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (يوسف:٨٨) .

لمّا شعر بأنهم وصلوا إلى درجة كبيرة من الذلّ، وأحسّ بحالتهم النفسية السيئة رأى أنه حان الوقت كي يكشف لهم عن هويته ، لكن كيف يبدأ؟

قال سبحانه : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (يوسف:٨٩) .

﴿هل علمتم﴾ قدَّرَ أن هذا الخبر إذا ألقيَ إليهم في غير حكمة كان وقعه شديداً

---

(١) لكن رحمة الله وعنايته تداركته .

(٢) انظر قصص القرآن الكريم ، د.فضل عباس ، ص٤٣٢.

عليهم وربما صعقوا له، ولهذا فهو يدخل عليهم بهذا الخبر بتلك المقدمة التي تشبه الإستئذان على أهل الدار[1].

ويذكر صاحب كتاب «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف» كلاماً قيماً حول هذه الجملة التي بدأ بها يوسف -عليه السلام-، يقول:

«كان هذا التذكير اللطيف من يوسف مصدر تعجب منهم، إذ ليس هناك مناسبة بين هذا التعبير الهيّن الليّن، وبين الجريمة التي ارتكبوها بحقه! ما أنبل هذا الأخ!! ألا يقول الآن: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ إن واو العطف تفيد مطلق الجمع، أليس كذلك؟ بلى. ولكنه يأتي بعد الواو التي هذه صفتها بأخيه مباشرة، فما معنى هذا؟ معنى هذا أن أخانا النبيل يوسف ذا الخلق العظيم؛ يهوّن من جريمتنا في حقه. فهو من ناحية يصف هذه الجريمة بالفعل. أي أنه وصفها بمجرد كونها فعل، على الرغم من استحقاقها لوصف الجرم وغيره. ومن ناحية ثانية هو يساوي بين ما فعلنا مع شقيقه وفعلنا معه. ألم يقل: ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ إن عطف الأخ هنا - الذي لا يمكن أن يوصف فعلنا السيء معه بأنه جريمة- على لفظ يوسف في القول «بيوسف وأخيه» يظهر عملنا مع يوسف الذي يعتبر جريمة حقاً مساوياً لعملنا مع أخيه»[2].

إن مثل هذا الخطاب الرقيق في مثل هذه اللّحظات لهو دليل على عظم الخلق المكنون في ثنايا هذه الشخصية العظيمة.

ففي هذه الأحداث يتجلّى خلق العفو عند المقدرة، فقد كان يوسف - عليه السلام- في موقع الرئاسة والملك، وكان إخوته بين يديه في موقع السائلين

---

(١) قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط بدون، ص١٣٠.
(٢) الوحدة الموضوعية، ص٤٤٦.

المضطرين، وكان بإمكانه أن يوقع بهم أنواعاً من الإنتقام، كان يستطيع أن يأمر بحبسهم كما كانوا سبباً في حبسه ، وكان يستطيع أن يمنعهم من الميرة ويحرمهم من الطعام كما ألقوه في الجبّ دون طعام أو شراب، وكان قادراً على أن يلومهم ويعنفهم مقابل ما فعلوه ، وهو أقل ما يمكن أن يعمله![1] .

لكن ما الذي كان من يوسف -عليه السلام- ، بعد أن عرفوه وأقروا بخطئهم أمامه؟ فلنبق مع الآيات.

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٨٩-٩٢) .

اعترفوا أمامه بخطئهم، وأقروا بذنبهم وجريمتهم وأعلنوا أنهم كانوا خاطئين في كيدهم ومؤامرتهم وكذبهم. يكفي هذا الإعتراف منهم، ولا داعي لتطويل المحاسبة والمعاتبة، ولا داعي لتطويل اعترافهم وإقرارهم، ولا داعي لإجراء محاكمة لهم ، وفتح ملفات التحقيق معهم واستجوابهم على كل ما فعلوه به. إن عفوه يأبى عليه أن يفعل بإخوته هذا ، ولهذا اكتفى منهم بالاعتراف بخطئهم، ثم سارع[2] إلى إنهاء الموقف المخجل المحرج الذي يقفونه أمامه ، فأعلن لهم تجاوزه عن كلّ ما فعلوه

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، لعبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٩٦. ونظرات في أحسن القصص، ١/٣٩٠ ، ومع الأنبياء في القرآن الكريم ، ص١٩٧.

(٢) انظر لطائف الإشارات ، لأبي القاسم القشيري ، وضع حواشيه : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ٢/٩١.

به ، وصفحه عنهم ، وإغلاق ملفّ الماضي بكلّ ما فيه من آلام وأحزان![1] .

قال لهم : ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾.

قال الإمام الرازي: أي لا أثرِّبكم اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بسائر الأيام؟[2].

وقال البيضاوي: ﴿لا تثريب عليكم﴾ أي: لا تأنيب عليكم . تفعيل من الثرب ، وهو الشحم الذي يغشى الكرش، للإزالة كالتجليد [3] فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه [4] .

إنه في هذا يعلن لهم عفوه عنهم، ويدعوهم إلى فتح صفحة جديدة للعلاقة به، تخلو من الحقد والحسد واللؤم، والمكر والكيد والتآمر، وتحكمها المحبة والمودة والأخوة. إنه موقف كريم، لا يقفه إلاّ رجل محسن كريم، وإنه عفو وتسامح وصفح لا يقدر عليه إلا رجل حليم متسامح[5].

صفة كريمة، يزيِّن بها يوسف -عليه السلام- شخصيته الصالحة، وكم هو جميل ممن هو في موقع السلطة والقوة والحكم أن يجعل من العفو وشاحاً يزيده محبة إلى قلوب الناس؟ ويقربه إليهم، ويزيدهم ثقة فيه ؟؟ .

---

(١) القصص القرآني ، د. صلاح الخالدي ، ٢/٢٢٩.

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٤، ٢٠٠١م ، ٦/٥٠٦.

(٣) أي إزالة الجلد ، قال في حاشية الشيخ زاده على البيضاوي: والتثريب: إزالة الثرب، كما أن التجليد إزالة الجلد، وسمي التقريع تقريعاً تشبيهاً له بالتثريب في اشتمال كل منهما على معنى التمزق (حاشية الشيخ زادة على البيضاوي، لمحمد بن مصلح الدين القوجي الحنفي، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ٥/٧٥) . وانظر تفسير أبي السّعود ، ٣/٤٢٦.

(٤) تفسير البيضاوي أو أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٩٩٩م ، ١/٤٩٥.

(٥) القصص القرآني ، ٢/٢٢٩.

ثم إننا نلحظ في ثنايا الأحداث صفة أخرى جميلة ، وخلقاً آخر فاضلاً ، تميزت به شخصية يوسف -عليه السلام- ، ذلك الحاكم الصالح.

الوفاء، وحفظ المعروف، وتذكّر الجميل؛ مما تميز به يوسف -عليه السلام- ويمكننا أن نتناول هذه الصفة فيه من عدة جوانب .

أولها : وفاؤه مع الله سبحانه وتعالى :

قد ذكرنا - في أثر العوامل التي صاغت شخصيته -عليه السلام- الاصطفاء الرباني، وكيف أن الله سبحانه قد صنعه على عينه، وتعاهده بحفظه ورعايته؟ وأنه لم يكله إلى نفسه في لحظة من لحظات حياته المليئة بالأحداث .

وما كان لشخصية كشخصية يوسف أن تتنكر لبحر النّعم الذي تعيش فيه!! وأن تنسى تلكم اللحظات التي تركه أقرب الناس إليها وحيداً في ظلمة البئر ووحشته!! ثم يجد معية الله تصاحبه في كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته.

ومن وفائه لله سبحانه ذكره له، والتجاؤه إليه يوم أن راودته امرأة العزيز عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك.

قال الله سبحانه : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

﴿إنه ربي﴾ الله ربي هو الذي هيأ لي المكان والمنزل، وهو الذي أحسن مثواي وإقامتي، وهو الذي أنعم عليّ بهذه النعم، وعليَّ مقابل هذا أن أقوم بشكره على إنعامه وإحسانه، وليس من الوفاء في شيء أن أقابل هذا كلَّه بمعصيته[1] .

---

(١) انظر : القصص القرآني ، للخالدي ، ١١٨/٢.

وفي هذه الكلمة إبراز معنى الوفاء وإظهاره في وقت يعزّ فيه الوفاء، فإن يوسف حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه وأبرزت له من مفاتنها؛ في هذا الوقت الذي يعجز فيه العقل عن مقاومة الرغبة ، وينعدم فيه التفكير إلا في إشباع النزوة، في هذا الوقت بالذات يتجلى في يوسف معنى الوفاء[1] .

ومن وفائه لله سبحانه أيضاً نسبة الفضل إليه ، والإعتراف له بالنعمة .

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ (يوسف: من الآية٣٧) ، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ (يوسف: من الآية١٠٠) . وغير ذلك مما ذكرنا سابقاً .

ومن الجوانب التي برز فيها وفاؤه -عليه السلام- ، وفاؤه مع العزيز، الذي رباه في بيته، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (يوسف: من الآية٢١).

يظهر ذلك في موقفه مع امرأة العزيز السابق . فقد اختلف المفسرون في المراد بـ (ربي) في قوله : ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ على قولين:

الأول : أي الله سبحانه وتعالى . وعليه بنينا كلامنا السابق .

والثاني : (ربي) بمعنى : العزيز الذي رباني .

ونحن وإن كنا لا نرى إلا الرأي الأول، فقد ذكرنا في المقدمة أنه إن وجد خلاف استدللنا بالآراء في المواطن المختلفة، مع بيان الراجح منها.

يقول الشوكاني: (إنه ربي): يعني العزيز: أي سيدي الذي ربَّاني وأحسن مثواي[2].

---

(١) نظرات في أحسن القصص ، للوكيل ، ١/٣٩٠.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الأرقم، بيروت ، ط بدون ، ٣/١٩ ، وانظر الكشاف، ٢/٤٣٧، وتفسير الرازي ، ٦/٤٣٨.

وعلى هذا فإن يوسف -عليه السلام- يذكر إحسان العزيز له، ويواجه المرأة التي أسدلت ستار الشهوة على عقلها وخلقها : قائلاً: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾: إنه سيدي الذي رباني وأحسن إليّ، حيث أمرك بقوله: ﴿أكرمي مثواه﴾، فكيف أخونه في أهله، وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟[1] .

﴿إنه ربي﴾ الذي رباني بما تتضمنه الكلمة من معنى التربية والرعاية والسيادة ﴿أحسن مثواي﴾ في ما أعده لي من منزل وإحسان وحرية وراحة ، فلا بد أن أواجه الإحسان بالإحسان [2].

ومن وفائه -عليه السلام- للعزيز، واعترافه له بالجميل، أنه لم يذكر العزيز حين طلب من الملك فتح ملف القضية[3]، بل قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: من الآية٥٠) .

يوسف -عليه السلام- يضرب المثل الأعلى في الوفاء والأمانة، إنه ليذكر جيداً إكرام العزيز الفائق له، وإنه ليسعى إلى ردّ معروفه إليه، ويحرص على إظهار الوفاء وشكران الجميل. فبعد ثبوت براءته يجيء عنه[4] قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (يوسف: من الآية٥٢) .

ومن وفائه -عليه السلام- ، وفاؤه بالأمانة التي وكلت إليه وتحمّل مسؤوليتها، وهي أمانة الحكم وسياسة البلاد. حيث وفّى بها حين راعى حق الله فيها، ووصل بمصر إلى بر الأمان ولنترك تفصيل هذا إلى موضعه - إن شاء الله - .

---

(١) فتح القدير، ١٩/٣.

(٢) من وحي القرآن، ١٨٤/١٢.

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص١٣٧.

(٤) على قول من قال : إن هذا من كلام يوسف -عليه السلام-. وهو لا يصح. انظر: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف .

ومن جوانب وفائه أيضاً، وفاؤه مع إخوته بعفوه عنهم، ووفاؤه بأبويه ببره بهما وإكرامه لهما. قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ (يوسف: من الآية ١٠٠).

وجملة القول أن نبي الله يوسف كان مثالاً صالحاً في الوفاء ورعاية حق المحسنين وما أجدر الحاكم أن يتصف بهذه الصفة.

* * *

المطلب الرابع

الشجاعة والثبات

شجاعٌ ذلكم الرجل الذي امتلأت حياته بالأحداث، وسجلت له مواقف جسام ، لو كانت لغيره لكان - على حلمه - فيها حيراناً. وثابت هو كل الثبوت حين تزل الأقدام ، وتشرئبُّ الأعناق إلى الوصول والنجاة .

لا شك أن يوسف -عليه السلام- كان يعلم حين قال لتلك المرأة المتنفذة ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: من الآية٢٣) . رداً على طلبها الجريء. أقول: كان يعلم حين قال ذلك، عواقب هذا الأمر ومغبته، وما قد يترتب عليه من ثمن باهظ . لكنه الثَّبات الذي وصل به إلى أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ (يوسف: من الآية٣٣) . ثبات عجيب، وجرأة متناهية تلكم التي جعلت وسف يقف في صفٍّ، وتقف نساء القصور مع ما لهن من نفوذ وسلطان في الصف الآخر .

ثم هو ذا في السجن، يأتيه الفتيان يطلبان منه أن يعبر لهما الرؤيا. ويبدأ كلامه معهما بمقدمة. ولنقف مع هذه المقدّمة من ناحية كونها مقدمة تتجلى فيها بوارق الجرأة في قول الحق.

قال الله سبحانه: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٣٧-٤٠).

انظر قوله - عليه السلام - لهما: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾. وإنا لنتساءل عن هؤلاء القوم، فنقول: أي قوم عناهم يوسف بقوله هذا؟ والمسألة لا تخلو بين كونه يعني المجتمع الذي فيه آل يعقوب، أو المجتمع الذي باعته السيارة فيه. ولا يمكن أن يقصد يوسف المجتمع الذي فيه آل يعقوب لسببين:

الأول: هو أنه يمكن أن يكون ليعقوب فيه آثار حسنة.

والثاني: هو أن الفتيين اللذين يوجه إليهما الحديث لا يعرفان شيئاً عن ذلك المجتمع، ولو عرفا عنه شيئاً لما عرفا أن يوسف يعنيه بالذات. ولم يبق بعد ذلك سوى أن يوسف يقصد المجتمع المصري الذي عاش فيه الفتيان[1] .

إن يوسف - عليه السلام - في هذه الآية وما يليها ليهاجم بصراحة وبجرأة عقائد القوم ويحطمها بألفاظه المجلجلة ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف: من الآية٣٧) .

ثم يعود ليخاطب الفتيين بعد قليل بتاء الخطاب (تَعبدون) ، ويوجِّه إليهما الكلام مباشرة مسفهاً آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، ومهاجماً العقول التي ابتدعتها - وهي عقولهم وعقول آبائهم - لينسف كلّ أصلٍ وبرهان تقوم عليه ربوبية هذه الآلهة وألوهيتها .

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن

---

(١) الوحدة الموضوعية ، ص٣٨٢.

دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

«ثم يقرر .. أن ما يقوله لهم هو الدّين القيِّم، بمعنى أن ما هم عليه هو الدّين الأعوج»[1] .

إن كل هذا في الأحوال الطبيعية ليستدعي جرأة وشجاعة من قائله، فهو مهاجمةٌ لعقائد المخاطبين ومُسلَّماتهم، و تسفيه مُبَطَّن لعقولهم وعقول آبائهم، وهذا بالطبع قد يجرُّه إلى مشكلات قد يكون في غنى عنها، خصوصاً في هذه الظروف.

ثم التفت إلى قوله: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلاّ إياه﴾ .

إن يوسف هنا ينبه إلى أمر خطير جلل، يصرح به ويعلنه بلا تردد و لا وجل!! أعني: إن الكلام في شؤون الحكم، ونقد النظام القائم، يعتبر - في كثير من الأحيان - تعدياً للخطوط الحمراء، ومَظنةً للتورّط في المشكلات. أضف إلى ذلك كون المخاطَبَيْن مصريِّيْن ، أحدهما - على الأقل- من حاشية الملك. وقد تسوُّل لأحدهما نفسُه أن يشيَ بهذا السجين ، ويثبت ولاءه لبلاط الملك ونظامه.

لكنّ شجاعة يوسف - عليه السلام - وإيمانه ينهيانه عن أن يقيم لغير الله وزناً، ويمنعانه من كتم الحقّ وإخفائه - ولو لمصلحة موهومة - .

موقف آخر يظهر شجاعته وثباته -عليه السلام- . قال الله سبحانه : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٠) .

وذلك بعد أن أوّل رؤيا الملك. ولعلّ الملك فوجئ بهذا الموقف من يوسف، إذ

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية ، ص١٥٦.

كيف يرفض سجين عبد رقيق تلبية دعوة الملك للقدوم إليه، والمثول بين يديه، وهو لم يطلب المقابلة، ولم يرجُ الخروج، إن الملك هو الذي يبادر بالدعوة، ويعفيه من عناء الطلب والرجاء والشفاعة، فكيف يرفض هذا السجين ذلك؟ بل ويطلب من الملك نفسه تولّي التحقيق في قضيته! من هو هذا السجين؟ وأي نوع من الرجال هو؟[1].

وإذا تأملنا في هذا الموقف ذاته، وما جرى على لسان يوسف - عليه السلام -، فإننا نتبين من استعماله لجملتي فعل الأمر (ارجع) و (فاسأله) عزة الإيمان.

إن يوسف ليتعمد صيغة جملة فعل الأمر مرتين، وليس أي صيغة أخرى، لأنها تقلّ قوة أبداً، ثم إنه يجيء على لسانه قوله : (ربك) وليس (ربي) .

وهذا كلُّه يظهر مدى الثبات والشجاعة التي ميزت هذه الشخصية الفذة. يقول الشهيد سيد قطب معلقاً على هذا الموقف الثابت الشجاع: «فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام -وهم أبرياء مطلقوا السراح- فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء، وعلى حظوة الاتباع لا مكانة الأصفياء .. يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أنّ الكرامة والإباء والاعتزاز تدرّ من الربح - حتى المادّي- أضعاف ما يدرُّه التمرّغ والتزلف والانحناء»[2].

ويعلّق رحمه الله على موقف يوسف في قول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف:٥٤) .

ما موقف يوسف عندما قال له الملك ذلك؟ يقول سيد -رحمه الله- : «إنه لم

---

(١) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ١٦٩/٢.

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٠٠٥/٤.

يسجد شكراً، كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت. ولم يقل: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كما يقول المتملقون للطواغيت! كلا إنما طالب[1] بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك»[2].

ثم إنَّ من شجاعته أن يقبل بذلك المنصب المهم، وأن يتحمل تلك المسؤولية الثقيلة في مثل تلك الظروف. والتي قد يؤدِّي إخفاقه في اجتيازها إلى أن يدفع ثمناً باهظاً.. قد يكون حياته!

مثل هذه الشخصية الشجاعة الثابتة على إيمانها وفكرها، هي التي توسَّم الملك فيها أنها الشخصية المناسبة للمرحلة القادمة، المؤهلة لقيادة البلاد.

* * *

(١) يبدو - والله أعلم - أنه لم يطالب وإنما عيَّن المنصب فقط .

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/٢٠٠٥.

المطلب الخامس

الوعي والذكاء

تظهر هذه الصفة في شخصية يوسف من خلال حسن تصرفه في المواقف الضيقة، واستغلاله الأحداث واستفادته منها، ثم من ذكائه الظاهر، وتدبيره الخفيّ - بفضل الله ورعايته له-.

يصف الشهيد سيد قطب يوسف - عليه السلام- بقوله: «إنه نموذج الرجل الواعي الحصيف»[1] . ثم يذكر بعض المواقف التي تجلّي ما يقول. ألخصها بشيء من التصرف.

أولاً : حين همّت به المرأة وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ (يوسف: من الآية٢٥) ، ثم تقع المفاجأة التي يحذرها: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (يوسف: من الآية٢٥) وتجد المرأة الجواب حاضراً، إنها تتهم الفتى ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف: من الآية٢٥) ، وغير يوسف كانت تناله «اللخمة»، و لكن يوسف الواعي الذكي، يجيب بهدوء الواثق: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾(يوسف: من الآية٢٦) ويستشهد بقميصه المقدود من الخلف، ويجد من يؤيده في استشهاده من أهل المرأة ذاتها: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف:٢٦-٢٧) .

ثانياً: هو ذا هنا يفسر الرؤيا لصاحبي الملك في السجن، فإذا عرف أن أحدهما

---

(١) التصوير الفني ، ص٢٠٥.

سينجو وأنه سيعود إلى خدمة سيده، لم ينس يوسف الواعي أن يطلب إليه ذكره عند ربه. ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: من الآية٤٢).

ثالثاً: حين رأى الملك رؤياه، وتذكر الساقي يوسف بعد سنين، ويأتي إليه ليفسر الرؤيا، فيجد لها تفسيراً، فيطلبه الملك ليراه.. وهنا يظهر الحصيف، لقد دخل السجن ظلماً، وإن حوله للغطاً، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يرد إلى السجن، كما دخل إليه أول مرة، فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: من الآية٥٠).

رابعاً: بعد اعتراف امرأة العزيز أمام الملك بالخطيئة، وكشفها للحقيقة ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: من الآية٥١) يعقب يوسف على هذا الإعتراف، وفي تعقيبه هذا يبدو الرجل الحصيف المقتصد في التعبير، الذي لا يبالغ في شيء، إنما يضع الاحتمالات والاحتياطات لكل حالة[1]: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ (يوسف: من الآية٥٢-٥٣).

خامساً: عندما رأى أنس الملك به، وارتياحه لتأويله، وسمع منه قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: من الآية٥٤) لم يدع الفرصة تذهب بل ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥) فيجاب إلى طلبه في أنسب الظروف.

سادساً: يدلّ تصرّف يوسف سني الحصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والإقتصاد فقد أشرف على المالية والتموين أربع عشرة سنة، لا على تموين

---

(١) هذا على القول بأن الكلام الآتي هو من كلام يوسف - عليه السلام -.

مصر وحدها بل على تموين البلاد القريبة المجاورة، التي أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين.

سابعاً: ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون جعل حصوله منهم على أخيه، ثمناً لحصولهم على القوت[1] فإذا جاؤوا بأخيه وأراد احتجازه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ (يوسف:٧٠) فإذا أنكروا السرقة ، وطلبوا تفتيشهم وأخذ من تظهر الكأس في أمتعته ثمناً للكأس، تبدّت الحصافة والذكاء ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف: من الآية٧٦) ، وتركهم يعودون بدونه، ثم يرتدُّون بأوعيتهم إليه فيكشف لهم في هذه المرة عن نفسه ، بعد أن يلقي عليهم هذا الدرس، وبعد أن يحملهم تلك المشقة؟ وهذه كلها تصرفات الرجل الواعي الحصيف[2].

هذا الرجل - الواعي الحصيف - يمثله يوسف - عليه السلام- الذي عركته الحياة منذ نعومة أظفاره وصقلته التجارب فكان مثال العمل الدائب الجاد[3].

يقول الدكتور أحمد نوفل واصفاً ذكاء يوسف - عليه السلام- وحكمته: «تجلت حكمته - عليه السلام- في مواقف كثيرة من تدبيره لاستقدام أخيه الشقيق، وتأمَّل كيف أنه لم يظهر نفسه لإخوته ، وأخفى انفعاله وتحكم في أحاسيسه أن يبديها ،

---

(١) والمسوغ لهذا كما قال البعض هو أنه قال لهم يوسف حين أخبروه عن أخيهم: إن بقاءه عند أبيكم يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم، وهذا شيء عجيب لأنه مع جمالكم وعقلكم وأدبكم ومحبته لأخيكم أكثر منكم فإن هذا يدلّ على أن هذا الأخ أعجوبة في العقل والفضل والأدب، فجيئوني به حتى أراه. انظر الآباء والأبناء في القرآن الكريم، إبراهيم الجرمي، دار عمار، عمان، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٧٧.

(٢) انظر التصوير الفني ، ٢٠٥-٢٠٩.

(٣) الوحدة الموضوعية ، ص٥٠٩.

وكيف استطاع أن يستخرج منهم في أثناء حديثه معهم أن لهم أخاً من أبيهم بقي وراءهم؟ وبالطبع لا يتصور أن يكون يوسف هو الذي بدأهم بالحديث عن أخيهم ورتب عليه طلب إحضاره معهم، وإنما المتوقع منه أن يكون استدرجهم في الحديث حتى انطلق منهم هذا الأمر أو تفلّت، وهنا يطلب يوسف منهم إحضار هذا الأخ... ثم تأمّل من تدبيره الحكيم منعه الكيل منهم في المرة المقبلة حتى يحضروا أخاهم معهم، ثم تشجيعهم على المجيء وترغيبهم فيه بعد الترهيب، بأن وضع بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون...»[1].

هذا وإن لباقة يوسف - عليه السلام-، وأدبه في الكلام ليعدُّ مؤشراً آخر على كون شخصيته شخصية واعية ذكية، سنمر على شيء منها في الفصل التالي.

* * *

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص١٤٥.

المطلب السادس

شخصيته الدعوية -عليه السلام-

إنّ عمق إيمان المؤمن ، وشدة تعلقه بدينه، وإيمانه بفكره؛ يدفعه دفعاً حثيثاً نحو الدعوة إلى هذا الفكر، واستقطاب الناس من حوله نحو هذه العقيدة.

وكيف تقوم دولة تزعم حمل رسالة إلى العالم ثم يكون القائمون عليها أبعد الناس عن هذه الرسالة؟ كيف وقد قيل: فاقد الشيء لا يعطيه؟

إن علامة تغلغل الإيمان في القلب، ومخالطتهِ له، هي تحوّل هذه العاطفة إلى عمل وحركة، ودعوة وجهاد. وإن من خصائص دولة الإسلام أنها دولة ربانية، تحمل دعوة الله تسير بها وتدعو إليها.

إذا كان ذلك كذلك، فلا بدّ أن تتميز شخصية الحاكم الصالح الذي يسيِّر شؤون هذه الدولة، ويدير دفَّة الحكم فيها، ويوجِّه طاقاتها، أقول لا بد أن تتميز بالإيمان العميق المترجَم إلى عمل ودعوة.

أما يوسف -عليه السلام- فكان مثال ذلك كلِّه، داعية صادق، حياته دعوته، وهمُّه هداية الناس إلى طريق الله، وتعبيدهم لله عز وجل[1].

ونستطيع من خلال آيات سورة يوسف أن نستشف معالم منهجه الدَّعوي، ومواقفه وآثاره الدعوية.

لا شكَّ أنّ ما ذكرناه من صفات سبق بيانها كان له أثره البالغ في صياغته الدعوية. وأهم تلك الصِّفات، والتي تعتبر ركناً من أركان أي شخصية دعوية، صفتا: العلم، والعفة.

---

(١) تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد، ص٢٧٣.

فعلمه الواسع قد مَكَّنه من هضم فكرته، واختيار أنجح السبل، وأنجع الوسائل لإيصالها إلى الغير، وإقناعه بها .

أما العفة، فهي عنوان الانتصار على النفس، ولا بدّ للداعية أن ينتصر على نفسه قبل أن يدعو الآخرين إلى ذلك، أضف إلى ذلك كونها برهاناً على صدق الانتماء إلى العقيدة التي يدعو إليها.

ويوسف -عليه السلام- قد «نجحت تجربته في الانتصار على الآخرين وعلى نفسه قبل أن يبدأ بدعوة الآخرين إلى ممارسة هذا الانتصار على أنفسهم وعلى الآخرين لتجتمع للرسول الداعية في حياته قوة التجربة الناجحة، وقوة الحجة البالغة[1] .

ويمكننا أن نقسم حياة يوسف -عليه السلام- ونحن ندرس الجانب الدعوي فيها - إلى ثلاث مراحل:

أولاً: حياته إلى دخوله السجن.

ثانياً: السنوات التي قضاها داخل السجن.

ثالثاً: حين كان عزيز مصر، بل حاكمها الأوّل.

أما المرحلتان الأولى والثالثة ، فليس ثمة ما يصرّح بشيء يصلح لأن نستدل به في هذا الموطن، وإنما سنستشف من خلال النصوص القرآنية التي تعرض الأحداث والشخصيات ما يمكن أن يكون دليلاً على حركته الدعوية، وأثره الإيماني. وأما المرحلة الثانية - مرحلة السجن- فهي التي سنقف معها حتى نحللها ونستنتج منها ما نحن بصدده .

---

(١) الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، (نقلاً عن سورة يوسف دراسة تحليلية ، للدكتور أحمد نوفل، ص٤٧) .

ذكرنا سابقاً أن التربية الإيمانية التي نُشِّئ عليها يوسف في بيت أبيه يعقوب -عليهما السلام- كانت كافية لصياغة شخصيته، وأنه ما أخرج من بيت أبيه إلا بعد أن تحصّل له العقل الكافي الذي يستوعب دعوة الإيمان - بفضل الله وتدبيره-. ولما بلغ أشده كبرت معه تلك المعاني واشتد إيماناً بها وتفاعلاً معها، بدليل ما حصل بينه وبين امرأة العزيز ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: من الآية٢٣) .

إذا كان هذا ، فلا يتصور من مثله إلا أن يكون دعا إلى ربه في المواقف التي تستدعي ذلك - على الأقل -، ولا يتصور إلا أن سلوكه القويم المتميز عمّن حوله جعلهم يسألون يوسف -عليه السلام- عن منطلقاته في الحياة التي تجعله متميزاً عنهم، ولا يتصوّر حينئذ إلا أنه بيَّن لهم دينه ودعوته[1]، الأمر الذي أثر فيهم، وأكسبهم قيماً ظهرت بعد حين. وأقوى دليل على ما نقول: موقف امرأة العزيز في آخر القصّة، حين فتح الملك القضية بناءً على طلب يوسف السجين -عليه السلام-. وهذا الموقف منها ، يدلُّ على تصوّر عالٍ للقضية الإيمانية، لا يعقل أن يكون تكوّن لديها في لحظة المحاكمة، ولكنه نضج لبذرة ألقاها يوسف في نفس كل من كان في البيت العزيزي، تفاعلت هذه البذرة مع السنين فأنتجت ما أنتجت من كلام امرأة العزيز في هذا الموقف[2]﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٢) .

أما في السجن، فقد كان دوره دور الأخصائي الاجتماعي - كما نسميه في هذه الأيام- فمن حيث سلوكه: كان قدوة لأهل السجن جميعاً، ومن حيث تعاونه كان

---

(١) انظر سورة يوسف دراسة تحليلية، د.أحمد نوفل، ص١٥٣.

(٢) انظر سورة يوسف دراسة تحليلية، د.أحمد نوفل، ص١٥٣.

يواسي النزلاء، ويعطف على أهل البلاء، فيعود المرضى، ويحسن إلى المحتاج، ويرعى حقوق كل إنسان. وكانت هذه المعاملة الحسنة التي لم يرها أهل السجن مذ سجنوا حتى دخله يوسف سبباً في محبة الناس جميعاً له[1].

انظر إلى السجينين الذين دخلا معه السّجن يتركان من في السجن جميعاً ويقبلان على يوسف - عليه السلام -، يعرضان عليه رؤييهما ويختمان طلبهما بوصفه بالإحسان . قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦) .

وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأيا من سعة علمه ، وحسن سيرته مع أهل السجن ما وجّه إليه وجهيهما ، وعلّق به أملهما [2].

نستشف من هذا أن سيدنا يوسف- عليه السلام - كان يوظف علاقاته الحسنة مع المدعوّين، كي يوصل إليهم دعوته، ويجعل من دوره الاجتماعي في خدمة الناس - الأمر الذي يجعله محطَّ أنظارهم وقلوبهم- جسراً يعبر بوساطته إليهم بدعوته .

وإذ يتوجّه السجينان بسؤاليهما إلى يوسف - عليه السلام -، ينتهز هو هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته ، ودعوته[3] .

ولنقف مع (البيان الدعوي الإيماني)[4] الذي يلقيه يوسف- عليه السلام- في هذه المناسبة .

---

(١) نظرات في أحسن القصص، ١/٣٩٢.

(٢) المنار، ١٢/٢٥٣.

(٣) انظر : الظلال ، ٤/١٩٨٨، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ١/٥٦٦ .

(٤) أتيت بهذا التعبير من كتاب «القصص القرآني» للدكتور صلاح الخالدي، ٢/١٤٥.

قال الله سبحانه : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف:٣٧-٤١) .

لعل هذا (البيان الدعوي الإيماني) يكشف عن معالم أسلوب يوسف - عليه السلام - في الدعوة .

فها هو يبدأ حديثه إلى صاحبيه في السجين من موضوعهما الذي يشغل بالهما، فيطمئنهما ابتداءً إلى أنه سيؤول لهما رؤيهما ، لأن ربه علمه علما لدنّياً خالصاً، جزاء على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء، هو وآباؤه من قبله، وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤييهما، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه[1] .

يقول صاحب المنار:

«بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله، وهي إظهار ما منّ الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب، وأقربُها إلى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتوجبه الرسالة من جوابهم» [2] .

---

(١) الظلال ، ٤/١٩٨٨ .

(٢) المنار ، ١٢/٢٥٣ ، وانظر روح المعاني ، ١٢/٥٨٨.

وإذ يبدأ يوسف بوصف نفسه بما وصفها به، لم يكن -عليه السلام- في صدد الإيحاء بإمكاناته العلمية في تأويل الأحلام أو في غيره من الأمور، بل كان يتوسل هدايتهما إلى الطريق المستقيم من خلال ذلك. ككل داعية إلى الله، يتحسس ضرورة استخدام كل طاقاته في سبيل الدعوة والهداية، ويحرّك علاقاته بالناس في هذا الاتجاه، وهذا ما أراد يوسف - عليه السلام - أن يثيره أمامهما عما وهبه الله من إمكانات علمية[1].

ونجد يوسف – عليه السلام - يجيد انتقاء الألفاظ التي تساعده ظلالُها على الوصول إلى هدفه الدعويّ، ويجيد اختيار المدخل إلى نفسيتي هذين المسجونين[2].

﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾. «ترزقانه».. يشير إلى مصدر هذا الرزق، ويشد انتباههما إلى كونه «رزقا» من الله سبحانه[3].

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. «تركت».. أوَ كان كذلك ثم تركه؟ اللهم لا، لكنه عبّر عن الامتناع بالترك استجلاباً لهما لأن يتركا تلك الملّة التي هم عليها على أحسن وجه، وليقتديا به في ذلك[4].

ثم هو ذا يُنكِّر «قوم»، تلطفاً بهم، وحرصا منه على أن لا يفاجئهما بما يثير عواطفهما ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ تُرى ما الفائدة الدعوية المتحصلة من هذا الكلام؟

فلنترك الإجابة للإمام الرازي - رحمه الله - الذي أجاب عن هذا السؤال، يقول

---

(١) من وحي القرآن، ١٢/٢٠٧.

(٢) الكلام هنا طويل لا يتسع المقام لتفصيله. انظر سورة يوسف دراسة تحليلية، ص١٥٥وما بعدها. والوحدة الموضوعية، ص٣٧٨ وما بعدها .

(٣) المرجعين السابقين، نفس الصفحات .

(٤) تفسير أبي السعود، ٣/٣٩٦ ، وروح المعاني، ١٢/٥٨٩.

رحمه الله: «أنه - عليه السلام - لما ادّعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب، قرن به كونه من أهل بيت النبوة، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله، فإن الإنسان متى ادّعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه، وأيضاً ، فكما أن درجة إبراهيم - عليه السلام - وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال، فكان انقيادهم له أتم، وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل»[1].

مدخل لطيف، وخطوة خطوة في حذر ولين ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ويفصح عن عقيدته، ويكشف عن فساد اعتقادهما وقومهما، وفساد ذلك الواقع النكد الذي يعيشون فيه[2].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ .

يناديهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان، ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليُقبلا عليه ويقبلا نصيحته[3].

ومن ثم فهو لا يدعوهما دعوة مباشرة ، وإنما يَعرض القضية على أنها قضية عامة موضوعية، لا يمكن معها إلا أن يجيباه إلى ما يريد[4] . ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إنه يطرح عليهما القضية على صورة استفهام، ويبرز لهما - من خلاله - ما يدلُّ على بطلان ما هما عليه ، لكن بصورة لا تنفرهما من المفاجأة بإبطال ما ألفاه

---

(١) تفسير الرازي ، ٦/٤٥٦.

(٢) الظلال ، ٤/١٩٨٩.

(٣) تفسير أبي السعود ، ٣/٣٩٥.

(٤) الظلال ، ٤/١٩٨٩ .

دهراً طويلاً، وقضت عليه أسلافهما جيلاً فجيلاً[1].

ثم يصارحهما ويوجّه إليهما الخطاب ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وذلك بعد أن هيأ نفسيهما لقبول مثل هذا القول.

«وهكذا كاد يوسف ألا يسكت حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود، وفي الخبر: «من أحب شيئاً أكثر من ذكره»[2].

وبعد أن أنهى الكلام - الذي أراد أن يُسمعه لهما - وكان حريصاً - كما يبدو من النص المختصر - على أن لا يمللهما، ولا يشعرهما بأنه قد خرج من الموضوع الذي أتيا لأجله - أقول: وبعد أن أنهى كلامه رجع إلى سؤالهما ليجيبهما ويؤول لهما الرؤيا، ليزيدهما ثقة بما قال، على الثقة التي اكتسبها أثناء المحادثة معهما.

أما المرحلة الدعوية الثالثة، فهي نشاطه الدعوي في مرحلة تولّيه منصب العزيز وكونه حاكم مصر الفعلي .

وهنا يظهر لون جديد من صور الدعوة في حياة يوسف - عليه السلام-، ذلكم هو الدعوة من خلال الموقع الجديد الذي أصبح فيه حاكم مصر، ولا بدّ أنّ آفاقاً جديدة واسعة للدعوة قد تفتحت أمامه - عليه السلام - في إدارته لمصر وتنظيم شؤونها، والإتصال بالعالم الخارجي، ولا شك أنه وظف كل هذه الإمكانات في سبيل رسالته ودعوته ، يبلغ الدين للناس، وهم يثقون بكلمته ويرون نجاحه[3] .

وإننا إذا اعتبرنا زيارة إخوته الأولى إليه حين عرفهم وهم له منكرون، إذا

---

(١) انظر روح المعاني ، ١٢/٥٩٢.

(٢) لطائف الإشارات ، ٢/٧٨.

(٣) انظر سورة يوسف دراسة تحليلية ، ص١٥٧.

اعتبرناها نموذجاً لكل قافلة دخلت عليه تمتار منه الطعام، فإننا ولا شك سندرك أنه وظَّف منصبه، وطبيعة تعامله مع الناس في سبيل عقيدته والدعوة إليها كلّ التوظيف. إذ إنه كان يبادلهم الكلام الطويل- من خلال استدراج إخوته إلى ذكر أخيهم الأصغر- حين كان يشرف مباشرة على عملية تزويد القوافل بالطعام.

وبإمكاننا أن نتصوّر حرص يوسف السَّجين على دعوته في السجن، ومقدار جهده وسعيه لكسب الرجلين إلى صفّها هذا وهو سجين. على الرغم من حالة السجين النفسية وكدره المعنوي، فإذا كان يوسف في سجنه شعلة دعوة إلى الله فكيف به إذا صار حاكم مِصْر ورجلها الأوَّل!!

ذلكم هو حاكم مصر، وداعيتها ﷺ.

* * *

المبحث الثالث

القرآن يرسم الملامح العامة لسياسات يوسف – عليه السلام – في الحكم

وفيه:

المطلب الأول: وجود تصور عن الحكم ومنهج فيه .

المطلب الثاني: الإدارة وعناصرها في حكم يوسف –عليه السلام - .

المطلب الثالث: يوسف – عليه السلام – في النظام .

المطلب الأول

وجود تصوّر عن الحكم ومنهج فيه

لما كانت الدولة القائمة على أمر الله دولة دعوة ورسالة، وفكرة ومنهج؛ كان لا بدَّ لحاكمها أن يحمل فكرها، وأن يتقلَّد زمام الأمر وقد نضج فكره، وتشكلت في ذهنه صورة واضحة عن الحكم، وارتسمت لديه خطوط منهج فيه، وإلا انعكس ذلك على سياسة الدولة ودورها داخلياً وخارجياً.

أما يوسف - عليه السلام- فإننا نلحظ - إذا نحن أنعمنا النظر- في تتابع أحداث قصته ، ما يدلُّ على وجود نظرة مسبقة لديه، ومنهج فكري حمله فيما يختصُّ في الحكم.

وبإمكاننا أن نضع أيدينا على ما نستدل به على ذلك، وأن نعتبره معالم بارزة لفكر يوسف - عليه السلام - .

أولاً: تكلّمنا فيما سبق[1] أن يوسف -عليه السلام- أثناء كلامه الدعوي مع السجينين، وبعد أن قدّم لهما بمقدمه لطيفة، وبدأ يدعوهما بأساليب مختلفة إلى دعوته، قال لهما : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (يوسف: من الآية ٤٠).

أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلّه لله وحده[2] .

وهذا وإن كان بناءً عقدياً يتوجه به يوسف إلى السجينين، إلا أنه في الوقت ذاته يمثل أصلاً فكرياً يقوم عليه الحكم، كما يمثل نقداً سياسياً للنظام القائم في مصر آنذاك .

---

(١) انظر الشجاعة والثبات من صفات يوسف الشخصية .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢/٦٢٣.

وهذا الجملة على قصرها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ إلا أنها تحوي معانٍ كثيرة، تمثل في مجملها واجهة فكرية صلبة، لا غنى عنها لكل من ولي للمسلمين أمراً.

فالحكم لا يكون إلا لله، مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادّعى الحقّ فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء أَدّعى هذا الحق فرد أم طبقة أم حزب أم هيئة أم أمة أم الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة.. وادّعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدّعي من دائرة الدين القيم، وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه ، فليس من الضروري أن يقول: «ما علمت لكم من إله غيري» أو يقول «أنا ربكم الأعلى» كما قالها فرعون جهرة. ولكنه يدعي هذا الحق، وينازع الله فيه بمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية - أي التي تكون هي مصدر السلطات - جهة أخرى غير الله سبحانه، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية[1] .

ثم يتبع يوسف -عليه السلام- حصر حق الحكم والتشريع بالله وحده، يتبعه بتعليل ذلك، فيقول: ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾، فالرضا بمشرعٍ غير الله سبحانه هو عبادة له من دون الله.

فكما أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله- حكماً معلوماً من الدين بالضرورة - فكذلك الذين يقرُّون المنازع على ادّعائه، ويدينون له بالطاعة، وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه، فكلهم سواء في ميزان الله[2] .

---

(١) في ظلال القرآن ، ٤/١٩٩٠.

(٢) في ظلال القرآن ، ٤/١٩٩١.

كلُّ هذا يندرج في قول يوسف للفتيين: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾[1] وهو كما ترى يمثل فكراً ومنهجاً في الحكم، أوّلُ أصوله وأبرز معالمه: إسناد الحاكمية لله عز وجل.

بهذا الفكر دخل يوسف إلى ذلك المنصب الجديد، وبهذا الفكر ينبغي أن يدخل كل حاكم مسلم صالح، وعليه تقوم كلّ دولة مسلمة، تحمل مسؤولية هذا الدين.

ثانياً: لابد للحاكم «الصالح» ، أن يحمل في طيات فكره وسياسات منهجه نظرة إلى قضيتي الظلم والعدل. نظرة ازدراء وحذر من الظلم وما يؤدي إليه، ونظرة إعجاب وعمل بالعدل وما يؤدي إليه.

ومن المعلوم – من نصِّ الكتاب- أن الظلم مدعاة لهلاك الأمم، وعلامة تشير إلى انتهاء الدول، ومسامير تدقُّ في نعوشها.

قال الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يونس:١٣) .

وموقفان من يوسف -عليه السلام-، يظهران نظرته إلى الظُّلم وأهله، ويضربان أروع الأمثلة في محاسبة النفس أن تظلم.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٧٩).

وإذا علمنا أن تعبير ﴿معاذ الله﴾ لم يرد في القرآن غير مرتين ، كلتاهما على لسان يوسف، وكلتاهما استعملتا مع الظلم، أدركنا كم كان يخاف -عليه السلام- أن تعلق شائبة ظلم في نفسه[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية :

(٢) انظر يوسف في القرآن، ص١٠٢.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

هكذا: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ إنها قاعدة حقيق بيوسف الحاكم- وغيره من الحكّام- أن يتمثلوها في كلّ حين، ويعملوا بها في كل وقت.

ثالثاً: قالوا: إن السياسة الاقتصادية السليمة هي مفتاح النجاح لكل دولة فالاقتصاد هو عصب الحياة تسود به الدول، كما يترأس به الأفراد[1]. إذا عرفنا هذا، علمنا سبب اختيار يوسف عليه السلام -في بداية الأمر- خزائن الأرض.

إن يوسف -عليه السلام- علم أنَّ هذا المنصب كفيل بأن يوصله إلى التصرُّف المطلق في البلاد - إن هو أحسن إدارته - ليبث من خلاله دعوته وعقيدته، وليحكِّم من خلاله شرع الله ودينه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٤-٥٥).

إذن، لم يختر يوسف هذا المنصب عبثاً، إنما اختاره عن فكر سديد ونظرة مسبقة إلى الاقتصاد وطرائق الوصول إلى الحكم، وأثر المال في توجيه السياسات العامة للدول[2].

فيوسف-عليه السلام- بما وفقه الله عز وجل من تدبير السياسة الاقتصادية، استطاع أن يتوصّل إلى تدبير السياسة العامة للدولة، لأن سلامة تقديره، وضبطه للوضع الاقتصادي جعله يتربّع بجدارة على عرش مصر، بل على قلوب المصريين قبل أن يتمكّن من سياسة دولتهم[3].

---

(١) نظرات إلى أحسن القصص، ١/٣١٧.

(٢) وقد مرّ معنا في تأويله لرؤيا الملك علمه في الزراعة والاقتصاد، من خلال توجيهاته التي صاحبت تأويله للرؤيا.

(٣) نظرات في أحسن القصص، ١/٣٩٩.

المطلب الثاني

الإدارة وعناصرها في حكم يوسف - عليه السلام-

سبق وذكرنا أن تعبير يوسف -عليه السلام- لرؤيا الملك تشير إشارات واضحات إلى أنه - عليه السلام- كان صاحب فكرة مسبقة عن الحكم وأساليبه.

ولا يخفى ما لحسن الإدارة والتدبير من أثر في نجاح الحاكم في قيامه بواجبه تجاه أمته.

تعبير يوسف للرؤيا لم يقف عند هذا، بل تعدّاه إلى الكشف عن الجوانب الإدارية في شخصيته كحاكم.

ولنقف لحظة مع علماء الإدارة المُحدثين يبينون لنا ماهيتها..

يقول هنري فايول أحد علماء الإدارة الكبار: «أن تقوم بالإدارة معناه أن تتنبأ وأن تخطط وأن تنظم، وأن تصدر الأوامر وأن تنسق وأن تراقب»[1] .

هذا هو التعريف الحديث للإدارة، هل يجوز لنا أن نسأل: هل كانت إدارة يوسف -عليه السلام- ترتقي إلى هذا المستوى؟

أقول: قبل أن نجيب على سؤالنا هذا ، فلنعرض الجوانب الإدارية في شخصية يوسف - عليه السلام- .

لا شكَّ أن التخطيط أول دعائم الإدارة الناجحة، وإننا إذا تملينا تعبير يوسف للرؤيا وجدنا أنها عبارة عن خطة خمس عشرية طويلة، نلمح في ثناياها مستوىً راقٍ من الفهم الإداري الدَّقيق.

---

(١) المفاهيم الإدارية الحديثة، د. فؤاد سالم وآخرون، ص١٣، مركز الكتب الأردني، الأردن، ط٤، ١٩٩٢م.

ومن المعروف أن كل خطة لا بدَّ أن تتضمن عناصر ثلاثة، هي: الأهداف، الوسائل، التفريغ الزمني للوسائل بما يحقق الأهداف[1] .

أولاً : الأهداف :

نستطيع أن نقسّم الأهداف إلى نوعين: أهداف استراتيجية عامّة، وأهداف مرحلية مؤقتة.

ويوسف- عليه الصلاة والسلام- ضمَّن خطته- كما نفهم- هذين النوعين من الأهداف.

أما النوع الأول من الأهداف، الأهداف الإستراتيجية العامة طويلة الأمد، فإنه ولا شك الوصول بالبلاد وما حولها إلى برّ الأمان، وتجاوز المحنة الطويلة القادمة. وهذا الهدف هو الهدف العامّ من الخطة في سنواتها الخمس عشرة.

أما النوع الثاني، وهو الأهداف المرحلية، فهي أهداف تخصّ كل مرحلة من مراحل الخطة على حدة، حيث يتناسب هذا الهدف والطبيعة المتوقعة للمرحلة[2] .

وسنتكلم بعد قليل عن طبيعة كلٍّ من مراحل الخطة، ولكن قبل ذلك نشير مسرعين إلى هدف كلٍّ منها.

أما المرحلة الأولى: وهي مرحلة الزراعة الدائبة والثمار الوافرة، فهدفها المرحلي: توفير أكبر مخزون ممكن من الطعام.

وأما المرحلة الثانية - وهي لبُّ المشكلة- فالهدف تجاوزها والنجاة بمصر منها.

---

(١) انظر دليل التدريب القيادي، هشام الطالب .

(٢) ذكرنا فيما نقلناه في تعريف الإدارة في بداية الموضوع أن التنبؤ بالمستقبل واستشرافه ضرورة إدارية، وهذا ما فعله يوسف بتعبيره للرؤيا .

وأما الثالثة - وهي العامُ الأخير من الخطة والذي لم يرد في رؤيا الملك، وإنما هي -والله أعلم- بوحي من الله سبحانه أكرم به نبيه ﷺ .

لكن السؤال؛ ما الهدف في إدراجها كمرحلة أخيرة في الخطة، إذ هي كما ترى ليست مرحلة ذات أحداث خطيرة تستدعي الإستعداد لها والحذر منها؟

إن الإداري الناجح هو الذي ينفث التفاؤل بالنجاح في نفوس من حوله، ولعلّ هذه المرحلة الأخيرة من الخطة ما هي إلا علامة النجاح للخطة المرسومة، لتتشوَّف النفوس للوصول إليها بعد سنوات القحط التي تأكل المخزون أكلاً.

ثانياً : الوسائل:

لا بدَّ لكل هدف من الأهداف كي يتحقق من وسائل وآليات تتناسب مع طبيعته . فالهدف المرحلي الأول - وهو توفير أكبر مخزون ممكن من الطعام- لا بدَّ أن يرافقه ما يناسبه من الوسائل.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (يوسف: من الآية٤٧) . تعرض الآية وسائل مناسبة للهدف المحدّد. ومن هذه الوسائل:

أ-الإنتاجية[1] :

في الآية إشارة إليها، وإرشاد لهم أن يستخدموا كل طاقة متاحة للمساعدة في الإنتاج: انظر قوله: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾، في قوله: ﴿تزرعون﴾ إرشاد لهم أن يستغرق العمل كل قادر على بذل أي مجهود[2] فهو خطاب عام لكل من أفراد الأمة

---

(١) وهي الوصول إلى أعلى مستوى من الأداء والإنتاج باستخدام أقل ما يمكن من الموارد. انظر سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤١٣.

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤١٤ .

المخاطبة . أضف إلى ذلك أن قوله ﴿تزرعون﴾ خبر يراد به الأمر ومن مراميه أنه يريد أن يتحرك الناس بانبعاث ذاتي لا بأمر خارجي[1].

ولئن التفتنا إلى قوله ﴿سبع سنين دأباً﴾ للمحنا إرشاداً لهم إلى استغلال هذا الوقت استغلالاً كاملاً بحركة زراعية دائبة دائمة.

ب-**الادخار** : وهذه هي الوسيلة الثانية من وسائل تحقيق ذاك الهدف.

﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾ فيوسف - عليه السلام- يأمر[2] بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي ﴿فذروه في سنبله﴾ والسنبلة- كما نعلم- عند طحنها توجه إلى ثلاثة أبواب رئيسية: الأول: طعام الإنسان، والثاني: طعام الحيوان، ويمكن الاستفادة من قشرها أيضاً في صناعة الطوب، فكأن تنظيم الخطة هنا شمل أكثر من جانب من جوانب الحياة فضلاً عما في حفظ السنبلة كاملة بتركها كما هي في قشرها[3] .

ج-**تحديد الاستهلاك** : يظهر هذا في قوله : ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾.

وهذه الوسائل الثلاث كفيلة بتحقيق الهدف المنشود.

وإذا تأملنا المرحلة الثانية، وجدنا وسائل تناسب هدفها مختلفة عن وسائل المرحلة الأولى ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (يوسف:٤٨) .

من الوسائل المشار إليها: توفير الأقوات سبع سنين عجاف، وتنظيم دقيق يصل به الطعام إلى كل فم حتى نهاية هذه المرحلة.

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٢٦ .

(٢) انتبه إلى أننا نقلنا في تعريف الإدارة السابق أن من وظائف الإدارة والمدير «أن يصدر الأوامر».

(٣) مواقف إسلامية د.عبد العزيز كامل، دار المعارف ، مصر، القاهرة، ص٨٣، ط٢، ١٩٧١م.

ثم ينبغي أيضاً مع هذا التوفير والتنظيم ألاّ تأتي السنوات العجاف على كل المدخرات بل يبقى القليل الكافي لإعادة الإستثمار في المرحلة القادمة ﴿إلاّ قليلاً مما تحصنون﴾ .

أما المرحلة الثالثة، فقد ذكرنا أن هدفها بثّ التفاؤل في النفوس إلاّ أن فيها أيضاً وسائل وإرشادات، منها: إعادة استثمار المدَّخرات، وعصر الثمار حفظاً لها من التلف. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف:٤٩) .

ثالثاً : التفريغ الزمني للوسائل: ويظهر هذا بتقسيم المراحل وتعيين مدة كلٍّ منها: ﴿تزرعون سبع سنين.. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد.. ثم يأتي من بعد ذلك عام..﴾ .

وبهذه العناصر الثلاثة نرى يوسف - عليه السلام- يرسم خطة متكاملة حتى بمفاهيمنا الإدارية الحديثة.

أمر آخر من دعائم الإدارة الناجحة، التي لا غنى للحاكم الصالح عنها، تلكم هي المتابعة والمراقبة.

قد تصاغ في كثير من الأحيان الخطط الفذة، والمراحل المثيرة، لكنها لا تحظى بمن يجيد تطبيقها، ويكون أميناً عليها.

ولعلّ المتابعة والإشراف المباشر على الأعمال، من المعالم الإدارية لشخصية يوسف الحاكم، يظهر هذا من إشرافه المباشر على توزيع الميرة والطعام على القوافل.

قف معي أمام هذا النص :

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ (يوسف:٥٨-٥٩) .

أفعال كثيرة فاعلها يوسف - عليه السلام-، مما يدلُّ على إشرافه المباشر على تسيير الأمور ومتابعتها.

وبعد هذا أظنك تتفق معي على أن يوسف - عليه السلام- قد سخّر الإدارة وعناصرها لخدمة شعبه وأمته، وكذلك ينبغي لكل حاكم صالح أن يكون .

* * *

المطلب الثالث

يوسف - عليه السلام- في النظام الحاكم

لاشك أن النظام القائم في مصر في ذلك الوقت ، الذي عاش فيه يوسف عليه السلام كان نظاماً جاهلياً فاسداً ظالماً. ويدل على ذلك عقيدة القوم الفاسدة القائمة على تعدد الأرباب، وبالتالي فإن مصدر التشريع كان مصدراً آخر غير الوحي. وهذه هي حقيقة الجاهلية التي تصيب الأنظمة الحاكمة.

يضاف إلى هذا مظاهر الظلم والإجحاف والفساد الأخلاقي والاجتماعي والقانوني الذي يظهر في إشارات آيات السورة العظيمة - سورة يوسف- .

والذي يعنينا في هذا المبحث هو علاقة سيدنا يوسف عليه السلام بهذا النظام الجاهلي ونتناول هذا الموضوع في نقاط ثلاث:

الأولى : حول قوله سبحانه : ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ (سورة يوسف:٥٥) من حيث المبادأة بالطلب أو عدمها وما يتعلق بذلك.

الثانية: حول الآية السابقة الذكر، من حيث قبوله المشاركة في هذا النظام الجاهلي، ووضعه فيه.

الثالثة : حول مسؤولياته التي تولاها في هذا النظام.

أما النقطة الأولى: فهي ما أثاره المفسرون حول طلبه عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، وتزكيته لنفسه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقد لا يحسن بعضهم فهم هذا الطلب من يوسف عليه السلام، ويعتبره رغبة

منه في المنصب والمركز ، وحرصاً منه على الوزارة والمسؤولية وطلباً للدنيا وخيراتها. إنه لم يطلب هذا المطلب لنفسه، ليستفيد شخصه مالاً ومصلحة ومركزاً وجاهاً، إنما طلب هذا المطلب تضحية منه ليقوم بخدمة البلاد، وينقذها من المجاعة التي هي مقدمة عليها، وهذه الفترة الحرجة تحتاج إلى رجل حفيظ عليم ، يحسن الاستفادة من سنوات الرخاء لسنوات الجدب . ويوسف عليه السلام يعلم أنه أهل لهذه المرحلة، يقدر على خدمة الناس فيها، وإنقاذ البلاد من أزمتها فهو مقدم على تضحية كبيرة، ومهمة عظيمة ، وتبعة ثقيلة![1].

ومثل هذا كمثل من ندبه الناس ليجتاز نهراً مغرقاً أو يطفئ ناراً محرقة، أو يقاتل عدواً شرساً، فقال: إني لها. أهذا يزكي نفسه؛ إن التواضع في مثل هذه المنازل، وإخفاء الذات في مثل هذه المواطن من الجهل المميت[2]. والذي فعله يوسف عليه السلام أنه بين مؤهلاته، كما تقدم الشهادات التي تحملها حين تتقدم لدائرة أعلنت عن وظيفة ما بمؤهلات ما، فتبرز مستنداتك، إن هذا ليس من تزكية النفس[3].

وقد تعرض الإمام الرازي -رحمه الله- تعالى إلى هذه وغيرها، فأجاب عنها جواباً مميزاً. قال رحمه الله: «الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه ، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، تحليل وتوجيه، د.صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٩٦.

(٢) سورة يوسف ، دراسة وتحليل ، للدكتور أحمد نوفل، ص٤٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠ .

والثاني: وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقلل ضرر ذلك القحط.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول، وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذه الطريق، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجباً عليه»[1] .

أما الشهيد سيد قطب - رحمه الله- فيستطرد استطراداً طويلاً في توجيه طلبه للولاية وتزكية نفسه لها، ويتكلم عن ما سماه «فقه الأوراق»، يفرق في هذا الاستطراد بين الأحكام الفقهية في المجتمع المسلم، وبينها في المجتمع الجاهلي، وكلامه طيب جميل. يقول في نهايته:

«إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي»[2] .

ويذهب فضيلة الدكتور أحمد نوفل إلى أن يوسف -عليه السلام- لم يطلب المنصب هو، وإنما الذي فعله هو تعيين «الحقيبة الوزارية» التي عرضت عليه بقول الملك له : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: من الآية٥٤) . يقول الدكتور - حفظه الله-: «والذي أراه أن يوسف عليه السلام لم يطلب المنصب، وإنما هو جاء إليه،

---

(١) التفسير الكبير للرازي ، ٦/٤٧٣ ، وانظر قريباً من هذا الكلام أحكام القرآن لابن العربي ، راجعه محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط١، ١٩٩٦م، ٣/٥٩.

(٢) في ظلال القرآن، ٤/٢٠١٣ .

وعرض عليه، وهذا الأليق بالنبي الكريم ألا يطلب شيئاً بل يأتيه ، والأليق بالملك أن يكرم قبل أن يطلب منه ذلك. ورحم الله صاحب الظلال، فقد أنشأ قضية من لا قضية، حين تكلم عما أسماه «فقه الأوراق»، وأجاب عن أسئلة تخطر بالبال: كيف رشح يوسف نفسه وزكاها؟ وطلب المنصب ، وطلب الولاية لا يجوز؟ واعتذر عن ذلك بأن المجتمع غير مسلم، وهذه الأحكام إنما شرعت للمجتمع المسلم. وكلامه طيب ، لكن لسنا نرى -أصلاً- أن يوسف طلب الولاية حتى نطرح القضية.. إن الملك قد عرض عليه الوزارة، ويوسف عيّن الحقيبة الوزارية فقط[١].

أما عن النقطة الثانية وهي وضعه في النظام، ودخوله في نظام جاهلي. فقد اختلف الفقهاء حول هذا اختلافاً برز في السنوات الأخيرة، وهو شرعية الدخول في الحكومة الجاهلية التي تحكم الناس بغير شرع الله، وشرعية المشاركة فيها.

فذهب فريق منهم إلى جواز ذلك استدلالاً بدخول يوسف - عليه السلام- في وزارة النظام الجاهلي في مصر في ذلك الوقت، وبغيره من الأدلة[٢].

وذهب آخرون إلى حرمة ذلك أو تقييده، وأنَّ عمل يوسف عليه السلام لا يستدل به على ذلك، أو يستدل به مشروطاً، وهذا الشرط هو طلاقة يده وتحكيمه لشرع الله لا لشرع الطاغوت.

يقول الإمام القرطبي -رحمه الله-: «قال بعض أهل العلم: في الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل ما لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره ، فلا يجوز ذلك[٣].

---

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص ٤٥٠ .

(٢) ومنهم فضيلة الدكتور عمر الأشقر- حفظه الله - في كتابه : المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية .

(٣) تفسير القرطبي، ٩/١٤١ .

وقال الدكتور محمد أبو فارس -حفظه الله-: «ولكننا نرى أن يوسف عليه السلام لم يحكم بغير ما أنزل الله بعد رسالته ونبوته.. إن يوسف عليه السلام حينما فوض الملك إليه تدبير الملك له قد أصبح هو الحاكم الفعلي يدير دفة الحكم[1].

وهذا الرأي هو الذي أختاره: أن المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية يباح إذا ما كان هذا المشارك مطلق اليد، يحكم بشرع الله، لا يمنعه من ذلك مانع.

وهذا الذي كان عليه يوسف عليه السلام، فقد كان صاحب الأمر والنهي، لا رقيب عليه، يحسب عليه، ولا يحكم إلا بشرع الله.

ونستدل على الوضع الذي تمتع به يوسف عليه السلام في ذلك النظام بما يأتي:

أولاً: قوله تعالى على لسان الملك ليوسف عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: من الآية٥٤). فمعنى ﴿مكين﴾: ممكن لك في الأرض، مسلّم من السلطات، ومخول من الصلاحيات ما يجعلك على نفوذ وتمكن. وأما ﴿أمين﴾: فمؤتمن غير مخون، لا رقابة عليك ولا متابع، ولا معقب لما تقول[2].

ثانياً: غياب الملك والعزيز عن ساحة الأحداث، وعن المشاهد التي عرضتها الآيات، بعدما ولي يوسف منصب «عزيز مصر»، فلا نسمع لهما صوتاً، ولا نرى لهما تأثيراً، فكأن يوسف صار كل شيء في إدارة الدفة، وصار الملك مثل رؤساء بعض الدول التي كل الصلاحيات فيها لرئيس الوزراء[3].

---

(١) المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية، د.محمد أبو فارس، تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية، عمان-١٩٩١م، ط بدون، ص٢٦.

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥٢، و«مواقف الأنبياء في القرآن تحليل وتوجيه، للدكتور صلاح الخالدي، وانظر في ظلال القرآن، ٤/٢٠١٣، والمشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية، ص٢٦.

ثالثاً: حكمه في أخيه بشريعة يعقوب عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (يوسف: من الآية٧٦) يدل على طلاقة يده في تحكيم ما يشاء من الشرائع التي تناسب مقام نبوته.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (يوسف: من الآية١٠٠) وهذا يدل على ما ذكرنا، إذ إن العرش كرسي تدبير الملك، أي أجلسهما على سرير الملك تكريماً لهما[1].

ولا يفعل هذا إلا من دانت له الدولة بقضها وقضيضها من رأس النظام إلى عامة الناس، وكل هذا دال على تمكنه عليه السلام في النظام، وصورة لوضعه السياسي والتأثيري فيه.

وإذا كان ذلك كذلك، فلا ينبغي أن يستدل بفعله هذا على الدخول في وزارات الأنظمة الجاهلية بأي شكل كان، وتنفيذ أحكامها وقوانينها التي تخالف شرع الله.

والذي يمكن أن يُشكِل في هذا الشأن تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمُلِكِ﴾ حيث استدل به على أنه كان عليه السلام يحكم بشريعة الملك -إذ إنهم فسروا كلمة «دين» هنا بأنها شريعة واستثنى أخاه من الحكم بشريعة الملك إلى شريعة الوحي المنزل على يعقوب عليه السلام.

أقول حتى لو قلنا إن تفسير كلمة «دين» هنا: شريعة، وفسرنا «دين الملك» على أنه نظامه وشريعته، هل يعني قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمُلِكِ﴾ أنه كان يأخذ غير أخيه بدين الملك وشريعته!! قد تقول: يحتمل ذلك، فأقول: نعم، يحتمل، لكن وضع هذا الاحتمال في ضوء النصوص التي تقطع بحرمة الحكم بغير ما أنزل الله، وحرمة الركون إلى الذين ظلموا يُسقط الاستدلال بهذا الاحتمال، خصوصاً

---

(١) المشاركة في الوزارة للدكتور أبو فارس، ص٢٦.

وأن يوسف نفسه يذكر حصر حق الحاكمية بالله سبحانه : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (يوسف: من الآية٤٠). وهذا الاستدلال المذكور يسمى «مفهوم المخالفة» في الأصول وهو أصعب أنواع المفاهيم – كما قرّر ذلك الأصوليون -.ويذهب صاحب كتاب: الدعوة إلى الإسلام -أحمد المحمود- إلى أن كلمة «دين» في اللغة العربية - كما نقل عن لسان العرب- لها معان كثيرة، منها: القهر والطاعة، والجزاء والمكافأة، والحساب، والشريعة والسلطان، والذل والاستعباد، وهناك معان أخرى لها.

يقول في كتابه المذكور: «فأي معنى بالتحديد هو المعنى الذي يريده الله سبحانه في الآية؛ وانتقاء معنى من هذه المعاني لابد له من قرينة تجعلنا نأخذ هذا المعنى دون غيره. ومن هنا يتبين أن من يأخذ المعنى الذي يناسبه ويناسب توجهه إنما يحكم هواه في الشرع. ومن يأخذ المعنى المنضبط والمقيد بقرائن شرعية تدل عليه يكن محكماً لشرعه ملتزما أمر ربه. فأي معنى هو المعنى المراد؟

فإن قلنا: إن المعنى المراد من كلمة دين هو شريعة، وجدنا أن القرائن الشرعية تمنع هذا الفهم إن كان سيؤدي إلى أن سيدنا يوسف قد شارك، فهذا حرام على الأنبياء والمؤمنين، ومخالف لطبيعة الرسالة التي تقوم على إفراد الله في العبودية والتشريع، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:٢٥) فيوسف الذي يقول للناس: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: من الآية٤٠) لا يمكن أن يخالفهم في ذلك ويقبل بحكم الأرباب المتفرقة.

وإن قلنا: إن المعنى المراد من كلمة دين هو استعباد، وصار أخوه مديناً أي عبداً مملوكاً فهذا المعنى ينسجم انسجاماً تاماً مع ما سبق الآية من قول إخوة يوسف: إن السارق يسترق. فيكون معنى الآية: ما كان ليأخذ أخاه في استرقاق واستعباد الملك

وجعله مديناً، أي عبداً مملوكاً له إلا أن يشاء الله. وهذا هو الأقرب إلى الصواب. وليس من قرينة شرعية تمنعه، بل ينسجم إنسجاماً تاماً مع ما قبله، وينسجم تماماً مع ما وصف الله به سيدنا يوسف من أنه من المحسنين والمخلصين وما شهد له الناس به»[1] والله أعلم بالصواب.

والحاصل: أن يوسف عليه السلام كان يحكم البلاد وفق شرع الله لا وفق شرع الملك، وأن نفوذه كان واسعاً -بل لا نفوذ لغيره- في النظام.

والنقطة الثالثة، وهي مسؤولياته التي تولاها في هذا النظام، فنترك لفضيلة الدكتور أحمد نوفل -حفظه الله- الكلام عنها: «والذي أشرف عليه يوسف ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية، ووزارة القوى البشرية،...، والتربية والتعليم، والإعلام»[2].

هذا بإجمال يوسف -عليه السلام-ووضعه في النظام القائم الذي تولى الحكم فيه، وأدار من خلاله البلاد والعباد.

* * *

(١) الدعوة إلى الإسلام، أحمد المحمود، دار الأمة للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٢/٢٥٤-٢٥٥.

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٥١ .

الفصل الثاني

داود عليه السلام

الحاكم الصالح

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: من أهم العوامل التي صاغت شخصية داود، الحياة الجهادية المبكرة.

المبحث الثاني: الصفات الشخصية لداود عليه السلام .

المبحث الثالث: سياسات الحكم عند داود عليه السلام .

المبحث الأول

من أهم العوامل التي صاغت شخصية داود عليه السلام

الحياة الجهادية المبكرة

تمهيد:

داود -عليه السلام- من أنبياء بني إسرائيل، وقد ولد داود - عليه السلام- في مرحلة ضعف عاشها بنو إسرائيل.

ففي سورة البقرة في قصة طالوت يأتي ذكره كجندي من جنود الجيش الذي قاده طالوت لتحرير بني إسرائيل من رقّ الذل الذي ضربه جالوت عليهم.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (سورة البقرة، من الآية ٢٤٦).

وقال سبحانه في نهاية القصة: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(سورة البقرة من الآية ٢٥١) .

وقد ورد ذكر اسمه في القرآن ست عشرة مرة. وهو الذي أنشأ الدولة الإيمانية التي حكمت بني إسرائيل في ذلك الوقت.

وقد ازدهرت الدولة في عصره ونمت، وحكمت بلاداً وعباداً، وحققت العدل بحكمها بتشريع الله -سبحانه وتعالى- .

يقول الدكتور صلاح الخالدي: «ولعله -أي داود عليه السلام- أول خليفة في التاريخ بالمعنى الشرعي الخاصّ، أي أول خليفة بنى دولة، وأنشأ مملكة وأوجد نظام خلافة على أساس شرع الله»[1] .

---

(١) القصص القرآني، ٤٠٩/٣ .

وقد صرّح القرآن بأن داود -عليه السلام- قد أنزل عليه كتاب من عند الله -سبحانه- : ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (سورة النساء، من الآية ١٦٣).

نكتفي بهذا التمهيد حول نبي الله داود -الحاكم الصالح-، فإلى تحليل شخصيته وصفاته وسياسات حكمه.

* * *

المبحث الأول

من أهم العوامل التي صاغت شخصية داود

الحياة الجهادية المبكرة

ساح الوغى، وميدان القتال، وحياة الجهاد تترك أثرها الكبير في تكوين شخصية المجاهد، ولا غرو ؛ فإن هذا المجاهد يعتاد الشجاعة، واقتحام الأهوال، يهزم نفسه وشهواتها فتهون عليه التضحيات، يحسُّ حرارة السيف فتتربّى نفسه على الصَّبر، ثم مع هذا كلِّه يدرك منهجاً بارزاً من مناهج التغيير يتلخص في قول القائل: «المجد للسيف ليس المجد للكتب»[1]، «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» .

إن بداية داود-عليه السلام-، والمرحلة الأولى من حياته فيما ذكر في القرآن عندما كان جندياً في جيش طالوت المجاهد، حيث شارك إخوانه المجاهدين قتال جيش الكفر والطغيان، وردع الطاغية جالوت. ومن ثم قام-عليه السلام- بعمله الجهادي الكبير عندما أقدم على قتل الطاغية[2]. قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ (البقرة: من الآية٢٥١) .

لقد رفع داود راية النصر، وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل، والمتأمّل يدرك أن العصر الذهبي لبني إسرائيل قد بدأ بظهور داود - عليه السلام- في القتال، بعدما نجح والقلة الباقية معه في اجتياز الإختبارات المتتالية لتصفية الصفوف: اختبار فراق الأهل والمال، ثم اختبار النهر المعروف، ثم اختبار الثبات عند تلاقي الصفوف .

---

(١) شطر بيت من شعر المتنبي..

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للكتب

(٢) انظر القصص القرآني، الخالدي، ٣/٤٠٥.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ (البقرة: من الآية٢٤٩-٢٥١).

أقول: بعد كلِّ هذا التقت القلوب على محبة هذا القائد الجهادي، وتأكدت له أواصر الإخلاص، وأصبح حديث بني إسرائيل، يكنون له في نفوسهم الاحترام والمحبة والتقدير، ومنذ ذلك الحين بدأ نجمه يصعد في السماء، وينتقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر حتى ولي الملك، وأصبح ذا سلطان كبير[1].

انظر إلى قول الله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (البقرة: من الآية٢٥١).

إن قيام داود-عليه السلام- بهذا العمل الجهادي مقترن بواو العطف مع إيتائه الملك والحكمة، وتعليمه مما شاء الله.

أما قبل ظهوره في ميدان القتال وتميزه فيه فلم يكن له ذكر، ولم يسطع له نجم.

---

(١) انظر: تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، د.علي محمد الصلابي، ص١٤٠، مكتبة الصحابة، الإمارات-الشارقة، ط١، ٢٠٠١م.

وخلاصة الأمر أن حياته الجهادية هذه قبل تولّيه الحكم كان لها أثر على سياسة حكمه وإدارة بلاده، أي أن قيادته كانت قيادة جهادية[1] ولهذا نجح في حكم قومه وإنشاء دولة إيمانية قوية حكمت جزءاً كبيراً من العالم آنذاك .

* * *

(١) القصص القرآني ، الخالدي ، ٣/٤٠٦.

المبحث الثاني

الصفات الشخصية لداود

عليه السلام

وفيه:

المطلب الأول: داود الحاكم العابد .

المطلب الثاني: العلم والحكمة .

المطلب الثالث: القوة المادية والمعنوية .

المطلب الأول

داود الحاكم العابد

يقول الماوردي في كتابه «نصيحة الملوك» .

«ومهما شككنا في شيء فلا نشك أنه كان لله أنبياء ومرسلون وأولياء ؛ ملكوا الدنيا وقادوا العساكر والجيوش، ودوخوا البلدان بالجنود، فما منعهم جلالة حلاهم وعظم ملكهم وكثرة جيوشهم وكثافة جنودهم، وسواد جموعهم من إيثار طاعة الله، والعدل في خلقه وبريته، فعاشوا ملوكاً وماتوا ملوكاً، وبقيت آثارهم، ولسان الصدق عنهم ، كأنهم أحياء وإن ماتوا ، وشهوداً وإن غابوا»[1] .

حقاً كان داود -عليه السلام- مثالاً لهؤلاء الحكام الذين سادوا الدنيا، ودانت لهم البلاد، وهم مع ذلك لم يزدادوا من الله إلاّ قرباً ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (صّ: من الآية٢٥) .

إن استقراءً سريعاً للنصوص التي تناولت قصة داود -عليه السلام- لينبئ من خلال تصريحات وإشارات قرآنية أن هذا الحاكم العظيم اتصف أوّل ما اتصف بالعبودية المحضة لله سبحانه ، انظر قوله جلّ وعلا : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (صّ: من الآية١٧). فقد وصفه الله بقوله ﴿عبدنا﴾ ولا شك أن هذا اللفظ مضافاً إلى نون العظمة –العائدة إلى الله- فيه من التشريف ما فيه[2]. ولا شك -أيضاً- أن وصفه بها -أي العبودية- قبل اسمه وقبل أي شيء آخر له دلالته على تمكّن هذه الصفة منه ﴿عبدنا داود﴾ .

---

(١) نصيحة الملوك، ص١٣١.

(٢) راجع تفسير القرطبي، ١٠٤/١٥ ، وتفسير الرازي، ٣٧٦/٩.

يقول الإمام الرازي: «الصفة الثانية -أي التي وصف بها داود في الآية، والصفة الأولى : الصبر ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا..﴾- فهي أنه وصفه بكونه عبداً له، والمقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الوصف كاملاً في موقف العبودية تاماً في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات»[1].

وتختم الآية نفسها بوصفه بصفة أخرى ﴿إنه أوّاب﴾ .

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: «الأوب ضرب من الرجوع،.. يقال: آب أوباً وإياباً ومآباً.. والأوّاب كالتواب وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الطاعات»[2] .

وقال ابن كثير في تفسيره لكلمة «أواب»: «هو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه»[3] .

وهذا ثناء من الله سبحانه على نبيه داود بهذه الصفة، ولنقف مع التعبير القرآني لحظة في استعماله لكلمة «أوّاب».

إننا نلاحظ استعمالها في هذا النص مرتين ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (ص:١٧-١٩).

المرة الأولى: ثناء من الله على داود : (إنه أوّاب) .

المرة الثانية: وصف الجبال والطير (كلٌّ له أوّاب) .

فداود أوّاب لربه رجاع إليه والجبال والطير كلٌّ منها أواب لداود رجاع إليه

---

(١) تفسير الرازي ، ٩/٣٧٨.

(٢) انظر المفردات ، ص٩٧.

(٣) تفسير ابن كثير ، ٤/٣٩.

وتجمع معها كلمة (أوّبي) المشتقة من نفس المادة (الأواب) الواردة في سورة سبأ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: من الآية١٠) ، فيكون المعنى : الجبال والطير الأوّابة لداود تؤوب معه عندما يسبح، وترجّع معه تسبيحه، وهي أوّابة له، لأنه هو أوّاب لربه[١].

إن الجزاء من جنس العمل ، وقد ذكرت كلمة أخرى أثناء الحديث عن داود - عليه السلام- مشتقة من (الأوب) -أيضاً-. تلكم في قول الله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (صّ:٢٥) .

فكما أن الله أمر الطير والجبال بالتأويب معه في الدنيا جزاء لتأويبه الكثير إلى الله فقد جعل الله له في الآخرة مآباً حسناً يؤوب إليه.

ومن الصور العملية التي ذكرتها الآيات على أوبة داود إلى الله ما بادر هو إليه بعدما ظن أن الله قد فتنه في قصة الخصمين الذين تسورا محرابه، فما أن ظن أنه قد فتن حتى سارع إلى الاستغفار والسُّجود. قال الله تعالى سبحانه : ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (صّ: من الآية٢٤) .

لاحظ استعمال الفاء ﴿فاستغفر﴾ المفيدة للترتيب والتعقيب، وهذا يشير إلى سرعة مبادرته إلى الرجوع إلى الله والتوبة إليه.

أمر آخر تفيده الآية هذه فيما نحن بصدده، وهو أن مبادرة داود هذه إلى الاستغفار والسجود، إنما هو ناتج عن (شفافية دينية) عميقة عند هذا النبي الحاكم. فما أن «ظن»[٢] أنه تعرض للفتنة حتى سارع إلى الأوبة والتوبة .

---

(١) القصص القرآني الخالدي ، ٣/٤٣٠.

(٢) الراجح أن «ظن» هنا على معناها الحقيقي وليست بمعنى اليقين. انظر كتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل) لعبد الرحمن حبنكة، الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.

أمور كثيرة من خلال النصوص القرآنية تدل على كثرة عبادته -عليه السلام-.

قال الله سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الانبياء: من الآية٧٩).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ (صّ:١٨) وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: من الآية١٠).

داود -عليه السلام- يقف ويسبح الله بصوته الجميل، فتجاوبه الجبال مسبحة، ويسمعها وهي تقول: سبحان الله، وتأتيه أسراب من الطيور من مختلف أجناسها، وتحشر له، وتجاوبه مسبحة ويسمعها وهي تقول: «سبحان الله»، إنه مشهد تسبيحي عباديّ عظيم مؤثر[1].

وهل لهذا التسبيح أثر على الملك والحكم؟

إن أثر تسبيح داود - عليه السلام- ومن ثم تسبيح الجبال والطير معه كان أنْ وهبه الله هبة عظمى فقال جل شأنه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[2]. إن شد ملك داود - عليه السلام- وقوة دولته، وتجذر حكمه كان أثراً من آثار تلك التسابيح بالعشي والإشراق. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (صّ:١٨-٢٠).

أمر أخير نستدل به على كثرة عبادة داود -عليه السلام- من خلال النصوص القرآنية - هو قصّة الخصمين الذين تسورا عليه المحراب-.

---

(١) القصص القرآني، د.صلاح الخالدي، ٤٢٩/٣.

(٢) انظر: الرقائق، محمد أحمد الراشد، ص١٧ دار المنطلق، دبي، ط بدون.
و فقه النصر والتمكين، ص١٤٠.

قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ (صّ: من الآية٢١-٢٢) .

في الآية دليل على أن داود النبي الملك كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك وللقضاء بين الناس ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله في المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يُدخَل إليه حتى يخرج إلى الناس.

ولهذا تسوَّر الخصمان عليه المحراب، إذ إنه قد جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره[1].

كم هو الحاكم الصالح بحاجة إلى أن يكون عابداً لله وذاكراً له، ليحصل له ما حصل لداود عليه السلام من شد للملك وغيره.

* * *

(١) فقه النصر والتمكين ، ص١٤٣.

المطلب الثاني

العلم والحكمة

مرّ معنا فيما سبق[1] أهمية العلم بالنسبة للحاكم القائم بسياسة شؤون الرعية وذكرنا أنه لا غنى لشخصية الحاكم الصالح عن العلم.

وإننا - ونحن نستعرض النصوص القرآنية التي تقص علينا قصة داود عليه السلام- نرى بوضوح هذا المعلم البارز في شخصيته المتكاملة -عليه السلام-.

فقد تكرر وبشكل ملفت للنظر وصفه -عليه السلام- بهذه الصفة، قف وتأمل معي هذه النصوص القرآنية، لنقرر بعدها بعض الحقائق في هذا الموضوع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة: من الآية٢٥١).

وقال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الانبياء:٧٨-٨٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل:١٥).

وقال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص:٢٠).

بعد النظر في هذه الآيات نستطيع أن نلاحظ ما يلي:

---

(١) في مطلب «العلم» من صفات شخصية يوسف - عليه السلام-.

أولاً: أن وصف نبي الله داود بالعلم والحكمة رافق دائماً إسناد فعل الإيتاء أو التعليم إلى الله سبحانه. لاحظ الأفعال: ﴿وكلاً آتينا﴾، ﴿وعلمناه﴾، ﴿ولقد آتينا﴾، ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

وهذا امتنان من الله ذي الفضل والمنة على عبده الشاكر داود.

ثانياً: يمكننا -انطلاقاً من النصوص القرآنية- أن نقسم العلم الذي عُلِّمه داود -عليه السلام- إلى أصناف العلوم التالية:

١-العلم العام: الذي يشمل: العلم بنفسه، والعلم بكيفية سياسة أمته[١]، وعلم الكتب والشرائع، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(البقرة: من الآية٢٥١) .

٢-الحكمة: وهي أخصّ من العلم ، قيل: هي كمال العلم وإتقان العمل[٢]. وقيل: يعني الفهم والعقل والفطنة وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه[٣]. فكأنها العلم المقرون بالعمل. قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ (ص: من الآية٢٠).

٣-العلم بالقضاء وتمييز الخصومات: وهذا نوع خاصّ من العلوم، يقول ابن العربي: «فأما علم القضاء فلعمر إلهك إنه لنوع من العلم مجرد وفصل منه مؤكد، غير معرفة الأحكام، والبعد بالحلال والحرام.. وقد يكون الرجل بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء»[٤] .

قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: من الآية٢٠).

قال الآلوسي : ﴿فصل الخطاب﴾ فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل[٥].

---

(١) القشيري ، لطائف الإشارات ، ١٠١/٣ .

(٢) روح المعاني ، ٢٣٥/٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير ، ٤٠/٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي .

(٥) روح المعاني ، ٢٣٥/٢٤ ، وانظر : المحرر الوجيز ، ٤٩٧/٤.

ولعل هذه العلوم الثلاثة من أهم أنواع العلوم للحاكم الصالح.

٤ -**العلم بالصناعات الحربية:** قال الله سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾(الانبياء: من الآية٨٠) .

تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة، والزرد المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة، ويبدو أن داود -عليه السلام- هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله[1].

وسنأتي على تفصيل هذا الأخير في فصل مقبل.

وبهذا نكون قد -حاولنا- أن نستشف من النصوص صفة العلم، كما هي عند داود -عليه السلام- والله تعالى أعلم.

* * *

(١) في ظلال القرآن ، ٤/٢٣٩٠.

المطلب الثالث

القوة المادية والمعنوية

تنعكس قوة الحاكم على قوّة الدولة، وهذا واقع حتى في الدول الكافرة، فالحاكم يطبع من شخصيته على شخصية دولته، إن قوة فقوة وإن ضعفاً فضعفاً.

وداود -عليه السلام- تميز - بوضوح- بالقوَّة، قوَّة في كل شيء.. قوة مادية ومعنوية، قوة جسد وقوة روح، قوّة دين وقوة منهج.

يصف الله سبحانه هذا الخليفة[1]، بقوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٧) .

ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى ﴿ذا الأيد﴾ أقوالاً منها:

قال ابن كثير - رحمه الله -: «والأيد القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوّة. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة، وقال قتادة: أعطي داود قوّة في العبادة، وفقهاً في الإسلام»[2] .

وقال أبو حيان - رحمه الله -: ﴿ذا الأيد﴾ أي ذا القوة في الدين والشرع، والصدع بأمر الله والطاعة لله، وكان مع ذلك قوياً في بدنه[3].

وقال القشيري - رحمه الله -: ﴿ذا الأيد﴾ أي ذا القوّة، ولم تكن قوّته قوّة نفس وإنما كانت قوته قوة فعل، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً -وهو أشد الصوم-، وكان

---

(١) قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، سورة ص، الآية: ٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٣٩.

(٣) البحر المحيط، ٧/٣٧٤.

قوياً في دين الله بنفسه وقلبه وهمته[1].

ونلاحظ مخالفة كلام ابن كثير وأبي حيان للقشيري -رحمهم الله جميعاً-، فهما يميلان كما يظهر إلى أنّ قوته عامّة، وليست قوة خاصة.

والراجح -والله أعلم- أن المقصود بالقوة هنا، قوة عامّة تتناول كل جانب، وحتى نزيد الأمر وضوحاً، وندلّل على ما ذهبنا إليه، فلنقف مع القرآن يجلّي لنا الأمر.

ولنبدأ بتناول اللفظ الذي وصف به داود عليه السلام: ﴿ذا الأيد﴾.

يقول ابن فارس: «الهمزة والياء والدال أصل واحد، يدلّ على القوة والحفظ[2]، يقال أيّده الله أي: قواه الله. واللفظ هنا مطلق ﴿ذا الأيد﴾ فلا داعي لتخصيصه بلون معين من ألوان القوة.

ومن خلال استعراض الآيات نستطيع أن نستدل على أنواع من قوة داود -عليه السلام-، منها ما ذكره العلماء -كما نقلنا- ومنها ما لم يذكروه.

من أصناف القوة التي تميز بها داود -عليه السلام-: القوة في الدين والقوّة على طاعة الله جل وعلا. وهذا ظاهر، وقد فصلناه في مطلب سابق[3]، فلن أعيد الكلام فيه هنا، إلاّ أنني أنقل ما كتبه صاحب كتاب «دعوة الرسل» في ذلك وأثره على شخصيته -عليه السلام-، يقول:

---

(١) لطائف الإشارات، ٣/١٠٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: شهاب الدين أبوعمرو، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م، ص٩٨.

(٣) ارجع إلى مطلب (داود الحاكم العابد).

«﴿ذا الأيد﴾ أي صاحب القوة في الدين، والقوي في دينه لا يهون لشدة، ولا يضعف لاضطهاد، بل يقابلهما بالحزم والعزم، ويتلقاهما بقلب لا يعرف الضعف سبيلاً إليه، وفؤاد في غاية الثبات، لأنه يعلم أن الشدة التي حلت به مآلها إلى رخاء، والإيذاء الذي أوقعه به أعداء الحق والدين هو إعلاء لشأنه، ورفع لمنزلته..»[1].

ومن أصناف هذه القوّة: قوة البدن، ونستدلّ على ذلك بأكثر من أمر:

أوّلاً: ثبات داود -عليه السلام- مع القلة المؤمنة الصابرة في جيش طالوت، بعد اجتيازه جميع اختبارات الشجاعة والتحمّل، وهذا يدلّ على قوته.

ثانياً: لم يكن داود في ذلك الجيش جندياً عادياً، بل كان من القوة والشجاعة اللتين مكنتاه من قتال الطاغية «جالوت» وقتله، وهذا بالطبع يتطلب قدرات خاصة.

ثالثاً: إن وصول داود -عليه السلام- إلى الحكم، وتولّيه سياسة أمور الناس ليدلّ دلالة واضحة على قوته البدنية ، وإليك بيان ذلك:

إنَّ قوام شخصية الحاكم في مثل تلك المجتمعات المحاربة يتطلب قدراً هائلاً من القوة الجسدية ، بل جعله الله مقياساً صحيحاً لاختيار شخص الملك أو الحاكم.

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة: من الآية٢٤٧).

رابعاً: عالباً ما تنعكس طبيعة المهنة على صاحبها، والصناعة على صانعها، والمنصوص عليه أن داود -عليه السلام- كان عمله: صناعة دروع الحرب الحديدية، ولا شك أن رجلاً

---

(١) دعوة الرسل ، ص٣٢٢.

هذه مهنته هو رجل من القوة بحيث استطاع أن يتقن هذا العمل الصّعب ويبدع في هذه المهنة - بفضل الله سبحانه- .

يتبين بعد هذا أن نبي الله داود -عليه السلام- كان يتصف بقوة عامّة في الدين والقلب والجسم وغير ذلك، مما أدّى إلى انعكاس هذه القوّة على دولته لتصبح دولة قوية، قال الله تعالى: ﴿وشددنا ملكه﴾أي قويناه بوفرة العَدد والعُدد ونفوذ السلطان، وامداده بالتأييد والنصر[1].

* * *

(١) تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد ، ص٣٢٣ ، دار ابن الجوزي ، ط٢ ، ١٤٢١هـ ، الملكة العربية السعودية، الدمام .

المبحث الثالث

سياسات الحكم عند داود

عليه السلام

وفيه:

المطلب الأول: الحاكمية لله وحده .

المطلب الثاني: الشورى .

المطلب الثالث: اغتنام الثروات وتسخيرها للجهاد في سبيل الله .

المطلب الرابع: مواساة المظلومين والانتصار لهم.

المطلب الأول

الحاكمية لله وحده

لعلَّ داود - عليه السلام- هو أوّل من أنشأ دولة خلافة إسلامية، انظر إلى قول الله تبارك وتعالى يخاطب داود - عليه السلام-: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص:٢٦) .

يا داود.. نداء من الله سبحانه إلى داود لاستدعاء وعيه واهتمامه ولفتاً له إلى أن ما يلقيه إليه أمر عظيم ، يجب أن يتنبّه له[١] .

ما هو الأمر العظيم هذا؟ إنه الخلافة في الأرض، وما تستدعيه الخلافة من واجبات تترتب عليها.

قال تعالى: ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾. انتبه إلى إسناد فعل الجعل إلى الله، فهو جل وعلا يمتنّ على داود بهذه النِّعمة.

والخلافة: النيابة عن الغير، إما لموته وإمّا لعجزه، وإما لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف الله أولياءه في الأرض[٢]، ومنهم داود - عليه السلام-.

وإذا كانت الخلافة النيابة عن الغير، فينبغي للمستخلف أو للخليفة أن يعمل وفق ما استخلفه المستخلِف، إذ هو نائب عنه.

---

(١) التحرير والتنوير ، ١١/٢٤٢ ، ودعوة الرسل ، ص٣٢٨.

(٢) المفردات ، ص٢٩٤.

ولمّا كان داود خليفة الله في الأرض[1] ، كان عليه السلام حاكماً بشرعه عاملاً بأمره تعالى.

وبناءً عليه، فإن أوّل الأسس التي قام عليها نظام الحكم عند داود - عليه السلام- هو: الحاكمية لله سبحانه وحده، والخلافة القائمة على منهجه تعالى.

وهذا ما يؤكده الأمر الأوّل في الآية ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ (ص: من الآية٢٦) .

وما هو الحق المأمور بالحكم به بين الناس، إذا لم يكن هو حكم الله وشرع الله؟؟[2] .

ثم يعقب هذا الأمر بالنهي عن استبدال شرع الله وحكمه بشريعة الهوى،

---

(١) ظاهر الخلافة في الآية أنها خلافة الله ، فتنطبق على ما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: من الآية٣٠) ومن شأن الخلافة أن يحاكيَ الخليفة من استخلفه في صفاته وأعماله فيريد ما يريد ويحكم ويقضي بما يقضي.
انظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ٣١١/١٤ ، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان ، ط٢، ١٩٧٢م.

(٢) قال صاحب تفسير روح البيان: «﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ أي بحكم الله تعالى ، فإن الخلافة مقتضية له حتماً وحكم الله بين خلقه هو العدل المحض ، وبه يكون الحاكم عادلاً لا جائراً» . انظر : تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، ٣٢/٨ ، تعليق: أحمد عبيد عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١ ، ٢٠٠١م.
وقال صاحب اللباب في علوم الكتاب: «قوله : ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي بالعدل لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الإلهية انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات، وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس أفضى إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي إلى هلاك ذلك الحاكم ، ولهذا قال: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾، انظر: اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي ٤٠٩/١٦، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

والتحذير من ذلك، فهو لا شك مؤدٍّ إلى الضلال البعيد. ضلالٍ عن الحقّ والهدى، ضلالٍ عن سعادة البشرية، ضلال عن النصر والعزِّ والتمكين، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص: من الآية٢٦) .

«وقد دلّت الآية الكريمة على إلزام ولاة أمور المسلمين أن يحكموا بالحق بين الناس، والحكم بالحق هو الحكم بما أنزل الله تعالى في كتابه العزيز، وسنة نبيه محمد ﷺ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله. وليعلم ولاة الأمور أن الله تعالى حذر نبيه داود -عليه السلام- من الحيدة عن الحكم بالحق وعن اتباع هوى النفس في حكمه بين الناس في سياسته لهم، وتوعده إن فعل ذلك ، فهم -أي ولاة الأمور- أولى بهذا التحذير من داود -عليه السلام-[1].

قال ابن كثير -رحمه الله- في التعليق على هذه الآية:

«الوصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعَّد الله من ضلَّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد»[2].

وبهذا يتبيَّن أن السياسة الأولى، والأساس الآكد في حكم داود عليه السلام كان الحكم بشرع الله، وجعله دستوراً يحكم البلاد والعباد، كيف لا؟؟ أوليس هو الخليفة في الأرض؟؟

أضف إلى ذلك أمراً آخر، نعلم أن الكتاب الذي نزل على داود -عليه السلام- هو الزَّبور، ونحن لا نعلم شيئاً عما جاء في هذا الكتاب، اللهم إلا ما أخبرنا به قرآننا الكريم.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، ١/٤٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٤٣.

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) .

إن ما جاء في الزَّبور من أن وراثةَ الأرض والتمكين فيها إنما هو ناتج عن الصَّلاح والعبودية لله رب العالمين ، ليمثل -طبعاً- نظرة داود إلى منهج الحكم، وإلى سياسة إدارة البلاد الأولى.

فإخلاص العبودية لله -وذلك أوّلاً بتحكيم شرعه- وصدق العلاقة معه سبحانه سبب للتمكين والمُلك ووراثة الأرض.

قد علم داود -عليه السلام- أن عماد أمر الدَّولة، وسبب قوّتها هو تحكيم شرع الله سبحانه، فكان هذا أبرز معالم سياسته -عليه السلام-.

* * *

المطلب الثاني

الشورى

نستطيع أن نلمح من خلال الآيات المتكلمة عن داود -عليه السلام- أساساً آخر من أسس حكمه ، وسياسة كانت تمثل خطاً رئيساً من خطوط إدارته وحكمه لدولة الخلافة الإسلامية.

تلكم هي «الشورى»، تظهر بين طيات هذه الآية الكريمة[1]: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء، الآيات : ٧٨-٧٩) .

تشير الآية بإجمال إلى حادثة في القضاء حصلت في عهد داود -عليه السلام-، وجاءت تفصِّلها بعض الروايات الموقوفة، وقد تكلّم بها المفسرون، وخلاصة الذي قالوه: دخل رجلان على داود، وعنده ابنه سليمان: أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً، فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً، فقال لك رقاب الغنم، فقال سليمان: أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه[2] دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كَرْمهم، فقال داود: القضاء ما قضيت، وحكم بذلك[3] .

---

(١) هناك حوادث أخرى تدلُّ على الشورى في حكمه - عليه السلام- لكنها في الحديث النبوي الشريف ولدراستها مجالات أخرى .

(٢) النفش – بالتحريك- أن تنتشر الغنم ليلاً من غير راعٍ، انظر: فتح القدير، ٤٢٣/٣.

(٣) فتح القدير ، ٤٢٣/٣ ، وصفوة التفاسير، ٤٢٦/٢، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة ، ط١، ١٩٩٧م.

ونقف مع الحادثة لنلمح سياسة من سياسات حكمه -عليه السلام-.

إن وجود سليمان مع داود في مجلس الحكم والقضاء يشير إلى معلم من معالم الشورى ويكأن وجوده في ذلك المجلس يمثِّل وجود «مجلس شورى» يسند القرارات الصادرة من رأس الدولة.

فداود - عليه السلام- يحكم باجتهاد سليمان - عليه السلام-، ويتراجع عن رأيه هو، وهذا دليل على شوريته ، وعدم تفرده بالرأي، بل ورجوعه السريع عن رأيه ولو إلى رأي من هو دونه -وهو ابنه- عليهما السلام-. بالرغم من أنّ اجتهاد داود -عليه السلام- لم يكن خطأً، بدليل أن القرآن لم يخطئه ﴿.. إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فالظاهر أن سليمان -عليه السلام- أوتي في القضية فهماً أعمق، وحكماً أرفق، ومع ذلك لما رأى داود ما أوتي سليمان فيها من فهم رجع إليه وترك إليه رأيه واجتهاده، والوقوف مع تعبير النص القرآنيّ يُعطي دلالة واضحة على ما ذكرناه.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ .. ﴾، يقول صحاب الميزان في تفسير القرآن:

«المراد إذ يتناظران في الحكم النافذ، ويؤيده كمال التأييد : التعبير بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ على نحو حكاية الحال الماضية كأنهما أخذا في الحكم أخذاً تدريجياً لم يتم بعد، ولن يتم إلاّ حكماً واحداً نافذاً، وكان الظاهر أن يقال: إذ حكما»[1].

وفي ما ذكرنا دليل على كون الشورى معلماً بارزاً من معالم الحكم في دولة داود - عليه السلام- دولة الخلافة الإسلامية.

* * *

(١) الميزان في تفسير القرآن ، ١٤/٣١١.

المطلب الثالث

اغتنام الثروات وتسخيرها للجهاد في سبيل الله

مرّ معنا وصف الله سبحانه ملك داود -عليه السلام- بالشدة والقوّة، وقال سبحانه : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ (سورة ص، من الآية: ٢٠) ، وفصلنا في ذلك بعض التفصيل.

ولا شك أن الإدارة الناجحة -أي إدارة- هي القادرة على تسخير الموارد المتاحة لتخدم هدف المؤسسة العام. ولمّا كانت دولة داود -عليه السلام- دولة خلافة، ودولة عقيدة، كان من الطبيعي أن تحمل هذا الدين وهذه العقيدة لتنطلق بها وتنشر دعوتها ، نعم ، كذلك كانت دولة داود -عليه السلام-.

إننا إذ نقف مع آيات من آيات القصص القرآني لنلمح هذا الأمر، لنسطره مثالاً على سياسة من سياسات الحكم في الدولة آنذاك.

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سورة سبأ، الآية : ١٠) .

يبدو أن الحديد كان معروفاً قبل داود -عليه السلام-، لكنّ استعمال الإنسان له كان قليلاً محدوداً. أما داود -عليه السلام- فقد هداه الله سبحانه إلى اكتشاف مناجم الحديد في مملكته، وألانه له، وجعله طوع يديه ، فكان يصنع منه ما يشاء[1] .

إن قوله : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ يدلُّ على أن الله ألهم بني إسرائيل في عهد داود -عليه السلام- اكتشاف الحديد واستخراجه من مناجمه، واستخدامه في الصناعات

---

(١) القصص القرآني، الخالدي، ٣/٤٣٤.

المختلفة الضرورية للدولة وكان هذا من مظاهر تقدّم الدولة في عهده – عليه السلام-، أمّا هو فقد خصّه الله بالإنة الحديد، وتسهيله بين يديه ليصنع منه مختلف الصناعات الضرورية[1] لقومه ، خصوصاً الصناعات الحربية.

فلنقف قبل أن نتابع مع قول الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحديد، الآية: ٢٥).

أنزل الله الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يمثل هذا استخدام الحديد كأساس للتسلّح والإعداد العسكري، وإذا تأملنا في الآية نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً وثيقاً بين إنزال الحديد وبين إرسال الرُّسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس.. إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلاّ يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكّله وتستخدمه من أجل حماية العقيدة والتقدم بهذا الدين، وتحقيق النصر للمؤمنين، وإقامة دولة تحكمها شريعة رب العالمين[2].

إن داود -عليه السلام- قد وظّف هذه المادّة الخامّ «الحديد» كمادّة حيوية أساسية في الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء، الآيات: ٧٩-٨٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة سبأ، الآيات: ١٠-١١).

---

(١) المرجع السابق، ٣/٤٣٥.

(٢) فقه النصر والتمكين، ص١٤٨-١٤٩.

كان داود - عليه السلام- يسخِّر مادة الحديد هذه في صنع الدُّروع الحديدية، التي يلبسها المقاتلون المجاهدون لتقيهم سلاح الكفار وبأسهم.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾.. اللبوس من مادة «لبس» ، وهناك فرق بين اللباس واللبوس. فاللباس نستعمله لستر العورة، وحفظ الجسم من الحرّ والبرد، لكن في حالة الحرب التي يتعرض فيها الإنسان لضربات قاتلة، يحتاج إلى ما يقي به نفسه من هذه الضربات. وهذا ما كان يصنعه داود -عليه السلام-، فاللبوس أبلغ من اللباس لأن مهمته أبلغ من اللباس[1].

ويأمر الله سبحانه داود الخليفة الصَّالح المجاهد أن يصنع هذه الأداة الجهادية العسكرية ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ وهي الدروع الواسعة الضافية[2]. ثم يأمره بأمر آخر، هو توظيف التقدّم العلمي، والتقنية الفنية في تصنيع هذه الدروع الواقية الواسعة.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ والمعنى: أحسن تقدير المسامير في حلق الدروع، وأحسن ثقب حلق الدرع، بحيث تجيء فتحة الحلقة على قدر المسمار، فلا هي أوسع من المسمار فيتخلخل ويتحرك فيها، ولا هي أضيق من المسمار، فلا يدخلها وينكسر[3].

إنه تسخير للموارد الطبيعية وتسخير للقدرات الفنية التقنية للجهاد في سبيل الله، وإنه مظهر من مظاهر قوة ملكه -عليه السلام- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وبعد هذا نتبع ما ذكرناه بملاحظتين مهمتين نستخلصهما من الآيتين المذكورتين.

الأولى: بعد أن أمر الله سبحانه عبده داود - عليه السلام- الحاكم المجاهد بتصنيع

---

(١) قصص الأنبياء ، للشعراوي ، ٤/٢٢٠٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ، ٥/٢٥٠ .

(٣) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ٣/٤٣٧.

هذه الدروع أتبع ذلك بأمره وأتباعه بالعمل الصالح ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ (سورة سبأ، الآية : ١١) لفتاً إلى أن القوّة تكتمل بوجود نوعي القوة: القوة العسكرية والقوة الرُّوحية التي تتمثل بالإيمان والعمل الصالح[1].

الثانية : في قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية : ٨٠). نلاحظ ختم الآية بتوجيه الخطاب للعالمين : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ . والمقصود: إن الخلافة الإسلامية صاحبة فضل - وأيُّ فضل- على البشرية جمعاء، فخيرها لا يقتصر عليها، إنما يتعداها لينال البشرية، ولتنال هي منها الخير العميم.

إن نعمة -الدروع الحديدية- ثمرة من ثمرات توظيف الطاقات والموارد التي تمثل سياسة عامّة من سياسات الحكم في الدولة الإسلامية.

* * *

(١) حول هذا الكلام، انظر «مع الأنبياء في القرآن الكريم»، عفيف طبارة، ص٣٠٤.

المطلب الرابع

مواساة المظلومين والانتصار لهم

قال الله سبحانه يقصُّ قصة الخصمين الذين تسوّرا محراب داود – عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (سورة ص، الآيات: ٢١-٢٤).

لقد أفاض العلماء في الكلام حول القصَّة، واجتهدوا في هذه الفتنة التي تعرض لها داود -عليه السلام-، وردُّوا على مَن فسَّر الفتنة بما لا يليق بمؤمن عاديٍّ فضلاً عن أن يليق بنبيٍّ كريم.

وأكثرهم على أن فتنته كانت في استعجاله في إصدار الحكم، قبل أن يستمع إلى الطرف الآخر.

ولكني الآن أحب أن أقف مع ردِّ فعل داود -عليه السلام- على سماعه للقضية من زاوية أخرى.

لمّا سمع داود من ذلك المظلوم قصته ، أثار ذلك مشاعره ، فبادر قائلاً : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.. ﴾ تحرّكت المشاعر عند داود -عليه السلام-، ودفعه ذلك إلى الاستعجال في إصدار الحكم ، لكنه حكم رافقته مواساة ظاهرة لذلك المظلوم .

فبدأ كلامه بأداتي التوكيد (اللام وقد) ، وإنما فعل هذا مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين نعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه ولم يكن معه غيرها[1].

إن أسلوب داود عليه السلام تظهر فيه الشفقة والرحمة، والمواساة لهذا المظلوم ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ .. ﴾.

ويتبع إصدار الحكم بقوله: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾.

عندما يريد أحدنا أن يواسي أحداً بمصاب أصابه، فإنه يحاول أن يذكر له أنه ليس أوّل من يصاب بهذا، وأن كثيراً من الناس أصابهم ما أصابه.

وهذا -تماماً- ما فعله داود -عليه السلام- فإنه يخبره أن هذه عادة الخلطاء ، وغالبيتهم على هذا الخلق ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات .

إن داود -عليه السلام- كان يواسي المظلوم ويقربه، ويحنو عليه. وفي الوقت ذاته كان ينتهج مع الظلمة والفسقة والعصاة منهجاً شديداً، تظهر فيه معالم القوّة والرّدع.

قال الله تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ (سورة المائدة ، الآية ٧٨) .

وكان هذا سياسة من سياسات الحكم عند داود -عليه السلام-: لين ومواساة وحنوٌّ مع المظلومين، وشدة وقوة وبأس مع الفسقة والعصاة.

* * *

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب صديق بن حسن الحسيني القنوجي، وضع هوامشه: إبراهيم شمس الدين ، ١٨/٦، دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان، ط١ ، ١٩٩٩م.

الفصل الثالث

الحاكم الصالح سليمان عليه السلام

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: عوامل صاغت شخصية سليمان.

المبحث الثاني: الصفات الشخصية لسليمان عليه السلام .

المبحث الثالث: السياسات العامة في الحكم عند سليمان عليه السلام .

تمهيد:

سليمان هو ابن داود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-، وقد ورث عنه النبوة والملك، وصار ملك الدولة الإيمانية التي توسعت واشتد عودها -كما يبدو من الآيات- في عصره -عليه السلام-.

وقد ذكر عليه السلام في القرآن سبع عشرة مرة

وقد عرضت سورة النمل لأطول مقطع من قصته - قصته مع ملكة سبأ- تلك الملكة التي كانت تعبد وقومها الشمس من دون الله، وانتهت مسلمة مع سليمان لله رب العالمين .

وهذه الملكة التي عرضت سورة النمل لصورة من صور حكمها وإدارتها قد بدت الحكمة والذكاء في شخصيتها، وقد نقلت الصورة معلماً من معالم حكمها وهو الشورى.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (النمل ٢٩-٣٢).

فقولها: ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ يشير بوضوح إلى أن الشورى ليس أمراً عارضاً، إنما هي منهج وسياسة متبعة.

ولم يهدف البحث إلى دراسة هذه الشخصية لأسباب ذكرت في المقدمة، إلا أن الإشارة إلى مثل هذا الذي أشرنا إليه هو أمر مهم لصلته بموضوع البحث، ولصلته بأسلوب الحكم الصالح.

والذي ينبغي أن نشير إليه أن الدولة الإيمانية القوية التي حكمها داود وسليمان

-عليهما السلام- قد سارعت إلى السقوط والانحلال بعد سليمان - عليه السلام-، وأعقبها زوال النظام السياسي والدولي لليهود، وانتهى الأمر بتشتيتهم في الأرض، وهذا بسبب جرائمهم ومعاصيهم ومخالفاتهم[1].

* * *

(١) انظر القصص القرآني، الخالدي ٣/٤١٠.

المبحث الأول

عوامل صاغت شخصية سليمان عليه السلام

وفيه:

المطلب الأول: البيئة العائلية المتدينة .

المطلب الثاني: الحياة السياسية المبكرة .

المطلب الأول

البيئة العائلية المتدينة

مرّ معنا حين تكلمنا عن العوامل التي صاغت شخصية يوسف -عليه السلام- أثر بيئته العائلية في صياغة شخصيته. ونقف الآن مع هذا العامل وقفة مشابهة لتلك التي وقفناها مع يوسف -عليه السلام-.

إن نشوء سليمان في كنف أبيه النبي داود -عليه السلام- ، يتلقى من نبع النبوة هديها، ومن عين الصَّلاح سمته وأثره ، ليعدُّ -قطعاً- أكبر عاملٍ من عوامل صياغة شخصيته -عليه السلام-. وإننا لنكاد نجزم بوجود أكثر من ابن لداود -عليه السلام-، لكننا نرى القرآن لم ينصَّ على غير سليمان معتبراً إياه نعمة وهبةً من الله سبحانه على داود -عليهما السلام-.

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص، الآية : ٣٠).

التعبير القرآني ﴿وَوَهَبْنَا﴾ إنها هبة من الله لداود أنْ رزقه هذا الابن البارّ. فكان -عليه السلام- قرّة عين لأبيه[١]. وهذه العلاقة المتميزة بين الابن وأبيه تعدُّ الجوّ المناسب لعملية التأثير التربوي[٢].

وإذا وقفنا مع قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾(سورة النمل، من الآية: ١٦)، ثم تساءلنا: ما هي الوراثة بينهما؟ إنها ليست وراثة المال، إنما هي وراثة المنزلة في النبوة والملك، ولو كانت وراثة مال لانقسمت على جميع أولاده، ولما خصّ سليمان بذلك[٣].

---

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، ص٢٩٩.

(٢) ذكرنا مثل هذا عندما تكلمنا عن يوسف - عليه السلام- .

(٣) انظر أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، راجعه محمد عطا - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٤٧١/٣.

ولعلّ في الآية إشارة إلى ما ورثه سليمان من داود - عليهما السلام- من شخصية قوية متكاملة. ولننظر في آيات القصص القرآني لنجد أن القرآن ذكرهما مقترنين أكثر من مرة، مما يشير إلى ملازمة سليمان لأبيه داود، هذا إذا أضفت استدلالاً ببعض مشاهد قصتهما؛ أعني: إن قوله سبحانه: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨) ، ليدل على ملازمة بينهما تصل إلى أن يكون سليمان مع أبيه داود حتى في مجلس الحكم والقضاء، يتربى على يديه، تربية إيمانية عقدية، وتربية جهادية عسكرية، وتربية سياسة قضائية.

* * *

المطلب الثاني

الحياة السياسية المبكرة

من العوامل التي صاغت شخصية سليمان – عليه السلام- كحاكم- دخوله الحياة السِّياسية مبكراً[1]، فنحن نلمح ذلك من خلال آيات القصص القرآني. قال تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (سورة الأنبياء، الآيات : ٧٨-٧٩).

قد تكلمنا فيما سبق أن داود كان يستعين بسليمان ويجعل منه مساعداً في الحكم، وقد شبهنا ذلك بمجلس شوريّ اتخذه داود - عليه السلام- .

نضيف إلى ذلك أنّ من أهداف داود - عليه السلام- في إشراكه سليمان في الحكم وفي استماع القضايا أن يدرّبه على ذلك، ولعلّه منذ البداية إنما اختاره من بين أبنائه لما رأى فيه من العقلية الصَّالحة الخصبة لمثل هذه الأعمال.

ولا شك أن هذه «التربية السياسية» المبكرة كان لها أثر كبير في صياغة شخصية سليمان الحاكم، وكان لها دور في رسم سياسات حكمه فيما بعد.

ولنأخذ مثلاً على ذلك:

لقد رأينا كيف رجع داود عن رأيه - في قضية الغنم والحرث- إلى رأي سليمان - عليهما السلام-، مع أنه ابنه وأقلُّ شأناً منه، فهل كان لهذا أثر على شخصية سليمان؟

---

(١) للاستزادة من الموضوع، انظر: قصص الأنبياء : القصص الحق، عبد القادر بن شيبة الحمد، ص٣٠٠، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

حين سأل سليمان - عليه السلام- عن الهدهد بعد إذ تفقد الطير فعلمه غائباً، ثم توعده إذا هو لم يأتِ بعذر مقبول، نرى الهدهد يأتي إلى سليمان، ويخاطبه بلهجة مليئة بالثقة، ويخبره بأنه علم ما لا يعلمه سليمان، وأحاط بما لم يحط به.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (سورة النمل، الآيات: ٢٠-٢٢).

إن سليمان وعى الدَّرس الذي علَّمه إياه أبوه داود - عليهما السلام-، حين علمه أنّ من واجب الحاكم الاستماع إلى أيّ رأي، وإلى كلّ ذي بيان[1]، وأن الحق أحقّ أن يتبع! فها هو سليمان -عليه السلام- يرجع عن تهديده ووعيده للهدهد، ولا ينكر عليه قوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. فما الضير في أن يكون المرء جاهلاً بأمر ما؟ ولكن الضير كلَّ الضير، حين يعلم الحق ثم يرفضه لأنه جاء من آخر!!

إن هذا من المواقف التي تظهر تأثر سليمان -عليه السلام- بحياته السياسية المبكرة، وبالتربية السياسية التي تلقَّاها من أبيه أثناء كونه مستشاراً له.

* * *

(١) الآباء والأبناء في القرآن الكريم، ص١٥.

المبحث الثاني

الصفات الشخصية لسليمان عليه السلام

وفيه:

المطلب الأول: سليمان الحاكم العابد الأوّاب .

المطلب الثاني: العلم والذكاء .

المطلب الثالث: اليقظة والحلم.

المطلب الأول

سليمان الحاكم العابد الأوّاب

الصلاح صفة واضحة، وسمة بارزة في شخصية سليمان -عليه السلام-، فرغم ما أنعم الله به عليه من ملك عظيم واسع شديد، إلا أن ذلك لم يزده من الله إلا قرباً، ولم يزده له إلا تواضعاً وإخباتاً.

يصف الله سليمان -عليه السلام- في سياق تعداد النعم التي أوتيها داود - عليه السلام-، قال سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص ، الآية : ٣٠) .

هذا الوصف ذاته وصف به أبوه داود -عليه السلام-:﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص، الآية: ١٧) ، لقد حقق سليمان -عليه السلام- العبودية الصادقة لله سبحانه فأخبر الله عنه بأنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ ، نعم العبد هذا النبي الحاكم، الذي حقق العبودية في حياته كلها لربه جلّ وعلا. حققها في حياته الخاصَّة باستقامته على أمر الله، وحققها بصفته حاكماً في سياسته لدولته وإدارته لها.

ويهمنا في هذا المطلب أن نبين مظاهر صلاحه في نفسه هو، وكيف أنه وصل إلى مقام العبودية بل إلى ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ .

يصف الله -سبحانه- سليمان بعد نعته بأنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ يصفه بأنه ﴿أَوَّابٌ﴾، وإذا نحن وقفنا مع الآية وجدنا أن تذييلها ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعتبر جملة تعليلية لوصفه بنعم العبد[1] . فأوّل مظهر من مظاهر عبوديته كونه كثير الأوبة والرّجوع إلى الله .

---

(١) تفسير أبي السعود، ٥/٣٦٠.

وقد ذكر القرآن مثالاً على أوبته ورجوعه إلى الله ، وسرعة توبته وإنابته إليه جل في علاه .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (سورة ص، الآية : ٣٤) . بعدما استشعر سليمان -عليه السلام- الفتنة التي فتن بها[1]، سارع إلى الإنابة والتوبة والاستدراك.

ومن مظاهر صلاحه -عليه السلام-، ما نلحظه من كثرة ذكره لله ونسبته ما يصيبه من خير إليه سبحانه، وهذا قد تكرر كثيراً ومن ذلك:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النمل، الآية : ١٥) ، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (سورة النمل، الآية: ١٩)، ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ (سورة النمل، من الآية : ٣٦) ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل، من الآية،٤٠) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص، الآية : ٣٥).

ذكر لله دائم، ومناجاة بين هذا العبد وربه سبحانه. ولنأخذ دعاءه - عندما سمع النملة وفهم كلامها فتبسم ضاحكاً من قولها - لنقف معه وقفة سريعة. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ «أوزعني»، قال الراغب الأصفهاني: «يقال أوزع الله فلاناً: إذا ألهمه الشكر، وقيل: هو من أوزع بالشيء: إذا أولع به، كأن الله تعالى يوزعه

---

(١) نشير إليها فيما بعد.

بشكره.. ، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ قيل معناه: ألهمني، وتحقيقه أولعني ذلك، واجعلني بحيث أزع نفسي عن الكفران»[1].

فسليمان -عليه السلام- يدعو الله: ألهمني شكر نعمتك، وأولعني بشكر نعمتك وامنعني من كل ما يؤخرني عن شكر نعمتك، ووجهني إلى طريق واحد هو شكر نعمتك[2].

ثم هو لا ينسى والديه، فيدعو أن يلهمه الله الشكر عنهما أيضاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾، فمن صلاحه بره بوالديه مُمثلاً بالدعاء لهما.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ عطف للعمل الصالح على الشكر من باب عطف العمل على القول، فشكره لله يكون بلسانه، وعمله الصالح المرضي عند الله يكون بجوارحه، وبهذا تجتمع الناحيتان القولية والعملية، على هدف واحد هو التوجه إلى الله[3].

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ إنه يريد أن يمنّ الله عليه بأن يعيش مع عباده الصَّالحين وأن يموت مع عباده الصالحين، فيذكر معهم ويكون تاريخه تاريخهم ، ومن ثم يحشر معهم في الآخرة في جنات النعيم[4].

ومن مظاهر صلاحه -عليه السلام- ، رفضه للرشوة - وإن تسربلت بثوب آخر ، وسُميت باسم آخر- بل وردّه على من يقدمها بأعنف ردّ . وذِكره لله سبحانه

---

(١) المفردات، ص٨٦٨.

(٢) القصص القرآني، الخالدي ، ٥٢٢/٣.

(٣) المرجع السابق، ٥٢٤/٣.

(٤) انظر المرجع السابق، ٥٢٤/٣.

ولنعمه عليه التي تغنيه أن يمدّ يده إلى الحرام ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ (النمل، من الآية: ٣٦).

إنه رجل المبدأ والإيمان، وليس أبداً رجل مادّة وتجارة. إنه عبد لواحد أحد، وليس عبداً لدرهم ولا دينار، -عليه السلام-.

* * *

المطلب الثاني

العلم والذكاء

سبق وتكلمنا عن أهمية العلم في شخصية الحاكم، وننظر في آيات القصص القرآني لنبحث عن هذه الصِّفة في شخصية سليمان -عليه السلام-، ونجليها، ونحاول أن نصنفها بقدر اجتهادنا ، والله المستعان.

إنّ العلم في شخصية سليمان -عليه السلام- ظاهر في أجواء قصصه في القرآن كلِّه. فلو تجاوزنا وصف القرآن له بالعلم، لوجدنا الأجواء العامة للقصّة منطبعة بطابع العلم، فمن حادثة في القضاء يُفَهِّمها سليمان -عليه السلام- بعد اجتهاد أبيه فيها، إلى إعلان رسميّ يتعلق بالعلم بلغة الطير ومنطقه، إلى اعتذار الهدهد عن غيبته بأنه علم ما لم يعلمه سليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، إلى تكليف رسمي بمهمة خطيرة لمن عنده علم بالكتاب.

إذن، فأجواء العلم تلوّن القصّة بلون خاصّ، أما في هذا المطلب فسأتكلم عن العلم ومعالم الذكاء في شخصية سليمان -عليه السلام-، وأترك الطابع العلمي في الدولة السليمانية إذ ليس هناك مجال لبحثه الآن.

وصف القرآن سليمان بالعلم في أكثر من موضع في القرآن، ووصف -هو أيضاً- نفسه به في أكثر من موضع.

قال الله سبحانه: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (سورة الأنبياء، من الآية: ٧٩) أي داود وسليمان -عليهما السلام-.

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة النمل، الآية: ١٥). ﴿عِلْماً﴾ الإبهام والتنوين للتفخيم والتعظيم فكأنه قال : علماً وأي علم[١] . علم عظيم أوتيه هذان النبيان، هذه النعمة استأهلت الحمد والشكر ﴿وَقَالا الْحَمْدُ للهِ .. ﴾ الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا به من العلم الذي آتانا دون سائر خلقه من بني آدم في زماننا هذا على كثير من عباده المؤمنين به في دهرنا هذا[٢] .

وإذا استقرأنا الآيات التي تناولت ذكر سليمان -عليه السلام- فإنه يمكننا أن نصنف العلوم التي علمها سليمان -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلى ما يأتي :

أولاً : علم القضاء :

إن حياته السياسية المبكرة، وعكوفه على الجلوس مع أبيه في مجالس الحكم والقضاء، كان له -كما ذكرنا- يد طولى في صياغة شخصيته العلمية. حتى إذا خالف أباه في اجتهاده وأصاب عين الحكم تجلّى علمه بالقضاء، وبرز عقله وفهمه فيه، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ (سورة الأنبيا، الآيات : ٧٨-٧٩) .

يبرز ذكاء خاصّ لسليمان -عليه السلام- في حادثة الغنم والحرث، ونستطيع أن نقول: إن سليمان قد تميز «بعقلية قضائية»[٣] نادرة، حتى تفوق في قضائه على أبيه داود -عليهما السلام- .

---

(١) حياة سليمان، محمود شلبي، ص٣٣٨ ، دار الجيل، بيروت ، ط٢، ١٩٨٦م، وانظر المستفاد من قصص القرآن، ٤١٩/١.

(٢) تفسير الطبري، ١٦١/١٩، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.

(٣) انظر الحكم والتحاكم، ٥٨٥/٢.

ثانياً : علم لغة الطير والحيوان :

وهذا النوع من العلوم علم خاصٌّ به -عليه السلام-، وكان تعليمه له تعليماً ربانياً خاصاً، ولدنّياً مباشراً، لذا لم ينسب سليمان العلم إلى نفسه[1] بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ (سورة النمل، من الآية: ١٦) .

وكمثال على ذلك ، ما سمعه وفهمه من النملة في وادِ النمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ (سورة النمل، الآيات: ١٨-١٩).

ثالثاً : علم الكتاب :

اختلف المفسرون في تحديد المقصود بقوله سبحانه : ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (سورة النمل، من الآية: ٤٠) ، وقد رجح الإمام الرازي[2] -رحمه الله- بعد ذكره لأقوال ستة كون المقصود به سليمان -عليه السلام- نفسه، واستدل على ذلك بأدلّة، ليس هنا مقام ذكرها[3] .

وعلى هذا القول، فإنه يمكننا أن نعدّ علم الكتاب من العلوم التي تميز بها سليمان -عليه السلام- . وعلم الكتاب هذا -والله أعلم- هو العلم بالكتاب الذي أنزله الله على داود -عليه السلام- وهو الزبور، أو كتاب آخر خاصٌّ بسليمان -عليه السلام، لا نعلمه[4].

---

(١) الحكم والتحاكم، ٢/٥٨٥، والقصص القرآني، الخالدي، ٣/٥١٤. وانظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، لمحمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط بدون، ١٩٩٥م، ٣/٩٨ .

(٢) تبعه في ذلك د.فضل عباس - حفظه الله- في كتابه قصص القرآن الكريم، ص٦٦١.

(٣) تفسير الرازي، ٨/٥٥٦-٥٥٧.

(٤) هذا أحد الآراء التي ذكرها الإمام الرازي في تفسيره، ٨/٥٥٧.

ويكون بذلك سليمان عليه السلام عالماً بصنف آخر من العلوم، لا بدّ للحاكم أن يعلمه وهو العلم بكتاب الله عز وجل.

رابعاً: العلم بكيفية التعامل مع الناس:

إن العلم بكيفية التعامل مع الناس يعدّ فناً من الفنون، يتجلّى فيه ذكاء الإنسان. وسليمان -عليه السلام- يظهر ذكاؤه وعلمه بهذا في مواضع وأحداث عديدة، من قصته في سورة النمل مع ملكة سبأ.

يكلّف سليمان الهدهد ببعث كتابه إلى ملكة سبأ وقومها، ثم يأمر الهدهد إذا هو ألقى إليهم الكتاب، بأن يختفي ويرقب ردود أفعالهم. لعله عليه السلام أراد من هذا أن يجسّ نبضهم كما يقال. ويبني تصرّفاً أو يتخذ قراراً بناءً على ذلك. وهذا ذكاء منه -عليه السلام- حريّ بالحكّام أن يقتدوه، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة النمل، الآية: ٢٨) .

ومن خبرته بالنفوس يدرك سليمان أنهم آتون لا محالة[1]، فيودُّ أن يستقبلهم بمفاجأة غريبة. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النمل، الآية: ٣٨) ، ثم هو بذكائه أراد أن يختبر ذكاء المرأة ملكة سبأ، فيأمر جنوده بتنكير عرشها ليتملّى هو إجابتها على سؤاله ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ (سورة النمل، من الآية: ٤٢) ليقرّر بعد ذلك مستوى ذكائها.

قال تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النمل، الآيات: ٤١-٤٢) .

ولتنظر إلى اختيار لفظ السؤال، لم يقل: أهذا عرشك؟ ليلقنها الجواب، وإنما

---

(١) قصص القرآن ، د.فضل عباس ، ص٦٦١.

قال: أهكذا عرشك؟ سؤال بعيد عن طرفي الإجابة بمسافتين متساويتين. إنه لسؤال ذكي، من حاكم عالم ذكي، لهدف ذكي.

أضف إلى ذلك إدخالها في الصرح الممرّد من القوارير، وما كان لهذا من أثر في إسلامها.

كل ذلك يؤكد علم سليمان -عليه السلام- بكيفية التعامل مع الناس وخبرته في ذلك.

هذه العلوم التي علمها سليمان -عليه السلام-، كما نقرؤها في كتاب الله سبحانه، وإن كنا نستطيع أن نضيف على ما ذكرنا علوماً أخرى[1].

* * *

(١) نستطيع أن نقول: لقد كان سليمان - إضافة إلى ذكر - عالم دعوة، يعلم كيف يتوصّل بالمدعوّ إلى ما يريد بطرق مختلفة. وعالماً عسكرياً، وسنلمح إلى هذا الأخير في مطلب: السياسة الحربية للدولة السليمانية.

المطلب الثالث

اليقظة والحزم

هاتان الصفتان - بالإضافة إلى ما ذكر- مما يميز شخصية سليمان - عليه السلام- . وغني عن القول أن هاتين الصفتين تعتبران من أركان شخصية الحاكم - أعني الصالح- ، إذ لا غنى له عنهما.

ونبدأ باليقظة لنبحث عنها في صفات سليمان -عليه السلام-، ونتناول آيات سورة النمل، التي تشير إلى ذلك.

قال الله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل:١٧) ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ (النمل:٢٠) .

فها هو ذا الملك النبي سليمان في موكبه الضخم ، ها هو ذا يتفقد الطير ، فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاصّ ، معين في نوبته في هذا العرض ، وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد ، وافتقاد سليمان –عليه السلام- لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته ، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشد الضخم من الجن والإنس والطير ، الذي يجمع آخره على أوّله كي لا يتفرق وينتكث[1] .

ومما يوحي بذلك أيضاً ، تنبيه سليمان لغياب الهدهد بسرعة فائقة. هذه السرعة التي عبّر عنها القرآن (بالفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب، فلم يكد سليمان يتفقد

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/٢٦٣٨ .

هذه الحشود حتى أدرك ذلك الخلل، الذي اعترى كتيبة الطير[1]. إنها القيادة الواقعية والرئاسة اليقظة التي لا يخفى عليها شيء من شؤون رعيتها[2].

فالتفقد من سليمان يدل على المتابعة[3]، إذ إن التفقد من الفقد وهو: عدم الشيء بعد وجوده[4]، والتفقد: تعرّف فقدان الشيء[5]. فهو تقصّد لاكتشاف المفقود. وهذا يجلّي اليقظة والمتابعة عند سليمان، فهو قائد يقظ يتابع بعين حادة وعقل دقيق تحرّكات الجند، وفعالية الموظفين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ (النمل: من الآية٢٠) تدلّ على أنه كان يقوم بهذه المهمة بنفسه ، لا يعتمد فيها على غيره، ولا على التقارير التي يرفعها الزملاء ببعضهم، بل كان يتحرك في جولات ميدانية ليراقب بنفسه حال الجند وانضباطهم واستعدادهم، ويبقى هذا هو أسلوب سليمان وطريقته في العمل حتى آخر لحظات حياته حين يداهمه الموت وهو يقوم بهذا الواجب يراقب جنوده من الجن وهم ينفذون ما كلفهم به من أعمال[6] ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:١٤) .

الشق الثاني: من عنوان المطلب هو المرحلة التالية لليقظة، فهل تكفي اليقظة

---

(١) القيادة المؤمنة كما يعرضها القرآن الكريم، محمد كاظم رشيد صوالحة، ص١٨٩. رسالة ماجستير قدّمت ١٩٨٧ بإشراف الدكتور أحمد نوفل .

(٢) نظرات في أحسن القصص، ٢/٢٣٦ .

(٣) قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، جمع المادة العلمية: منشاوي غانم جابر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط بدون، ٤/٢٢٣٩ .

(٤) الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى، مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان ، ط٢، ١٩٩٨م، ص٦٩٤.

(٥) المفردات ص٦٤١ .

(٦) القيادة المؤمنة كما يعرضها القرآن، ص١٩٠ .

وحدها لضبط الأمور وإدارة الدول؟ لا بدّ أن يتبع اليقظة حزم رادع عن الفساد والتسيب[1].

والحزم ظاهر في شخصيته - عليه السلام-، ولعله يكون من الصفات الغالية عليه، ولعل مرد ذلك إلى سعة دولته وعظم المهام التي تستتبع هذا، توجب عليه أن يكون أكثر حزماً، إذ إن دولة مترامية الأطراف، كثيرة المهام يسرع الفساد إلى أوصالها، وينتشر في عروقها.

ونبدأ بموقفه مع الهدهد ، لنلحظ منه ملامح هذه الصفة.

قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل:٢٠-٢٢) .

إن صيغة سؤاله توحي بمخايل الحزم ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ كأنه قد استبعد أن أحداً تسوّغ له نفسه أن يتخلف -بغير إذن- عن مجلسه[2]. فمن ذا الذي يجرؤ على الغياب عن حضور مجلس الملك النبي الحازم ، بغير إعلام مسبق؟

وهو يسأل عنه في صيغة مترفعة جامحة مرنة ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ويتضح أنه غائب بغير إذن! وحينئذ يعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى، فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً، وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند، ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف[3]. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

ويتجلى هنا الحزم في شخصية سليمان -عليه السلام-، ولكنه في الوقت ذاته

---

(١) سنأتي على سياسة من سياسات سليمان في الحكم، هي: محاربة الفساد، نفصل فيها ما أجملناه هنا.

(٢) انظر قصص الأنبياء ، الشعراوي، ٤/٢٢٣٩ .

(٣) في ظلال القرآن، ٥/٢٦٣٨ .

ليس جباراً متعطشاً لسفك الدماء، فيعلّق أمر العقوبة على وجود عذر بيّن للهدهد! وإذا كان عليه الصلاة والسلام بهذا الحزم مع الهدهد، أفيكون متساهلاً مع البشر؟؟[1].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي مكث الهدهد بعد تفقّد سليمان إياه مكثاً غير بعيد، أي غير طويل[2]. وكأن الهدهد كان متأكداً من أن سليمان سيغضب عليه لغيابه بغير إذن، فلم يمكث طويلاً، وإنما سارع إلى الأوبة، قال النسفي: «ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان»[3]، ثم فور وصوله إلى سليمان -عليه السلام- يبادر إلى القول: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. وكأنه كان يتوقع وعيد سليمان، لذلك لم يكد يصل إلى مركز القيادة - فاء الترتيب والتعقيب في (فقال)- حتى أخذ بإبداء عذره دون أن يُسأل عن سبب غيابه[4].

ولعلّ كلام الهدهد يدلّ على نوع ذكاء عنده، فهو «يعرف حزم الملك وشدته، فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء الملك له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؟[5].

ونرى ملامح الحزم في شخصية سليمان، في الكتاب الذي بعثه مع الهدهد إلى ملكة سبأ وقومها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل:٢٩-٣١).

---

(١) انظر القصص القرآني للخالدي، ٥٢٦/٣.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٤٠٠٩/٧، دار السلام للطاعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

(٣) تفسير النسفي المسمى مدراك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٢٥٠/٣.

(٤) نظرات في أحسن القصص، ٢٣٦.

(٥) في ظلال القرآن، ٢٦٣٨/٥.

يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله تعالى-: «ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم... وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، ومطلوب فيه أمر واحد، ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه»[1].

ونلحظ الحزم في شخصيته -عليه السلام- في ردّه على الرشوة -المسماة بالهدية.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (النمل:٣٦-٣٧).

والمثال الأخير الذي نختم به هذا المطلب: حزمه مع الشياطين العاملين تحت إمرته. قال الله تعالى﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (سبأ: من الآية١٢)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (سبأ: من الآية١٤)، كلّ هذا يدلّ على أن سليمان -عليه السلام- لم يكن يتساهل مع هؤلاء البنائين والغوّاصين، فمن يقصرون أو يتمردون أو يخالفون منهم، كان يقيدهم بالقيود، ويصفدهم بالأصفاد، ويعذبهم العذاب الأليم المهين[2].

نصوص كثيرة تنطق بأن اليقظة والحزم صفتان بارزتان في شخصية سليمان -عليه السلام-. مما يشير إلى أهمية هاتين الصفتين، خصوصاً في الدول الضخمة الواسعة، التي يصعب ضبط أحوالها.

* * *

(١) في ظلال القرآن، ٢٦٣٩/٥.

(٢) انظر القصص القرآني، الخالدي، ٥٠٢/٣، وانظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ١٠٣/٣.

المبحث الثالث

السياسات العامة في الحكم عند

سليمان – عليه السلام -

وفيه:

المطلب الأول: دولة الدعوة، ودعوة الدولة .

المطلب الثاني: محاربة الفساد .

المطلب الثالث: السياسة الحربية .

المطلب الرابع: الحرب النفسية.

المطلب الخامس: السياسة القضائية عند سليمان عليه السلام.

المطلب السادس: تقريب الصالحين واستعمال ذوي الكفاية.

المطلب السابع: الاهتمام بالصناعات ومظاهر المدنية.

المطلب الأول

دولة الدعوة، ودعوة الدولة

دولة ذات عقيدة، هي دولة ذات دعوة ورسالة، ودولة سليمان دولة عقيدة تحمل فكر لا إله إلا الله، لذا فهي تعمل على إيصال هذا الفكر إلى كل بقعة من البقاع. لهذا ، فإننا نلاحظ أن القصة الأطول من قصص سليمان في القرآن تبرز فيها الناحية الدعوية على غيرها[1].

ونلاحظ أثناء قراءتنا لآيات سورة النمل هذه، عدداً من الأساليب والوسائل الدعوية التي كان ينهجها سليمان -عليه السلام- ودولته في الدعوة إلى الله.

حاكم داعية، وداعية مثابر، مؤمن بفكرته كلّ الإيمان، يعلم أنه على الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟؟ يعلم أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلب انقلب إلى حركة وعمل ودعوة! إنه سليمان الداعية، وإنها دولة الدعوة.

وقد اخترت أن أصنف هذا المطلب ضمن سياسات سليمان في إدارة البلاد رغم أنني حين تكلمت عن الدعوة في حياة يوسف جعلتها ضمن صفاته الشخصية، وما ذلك إلا لأنني رأيت أن يوسف مارس الدعوة - كما يعرض القرآن ذلك- بصفته فرداً مؤمناً بفكر، حاملا لعقيدة، لكنّ الملحوظ هنا عند سليمان عليه السلام أن

---

(١) وللزيادة انظر: تذكرة الدعاة للبهي الخولي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٨ ، ١٩٨٧م، ص٥٠.

الدعوة مورست لا على صعيد الفرد فحسب، بل على صعيد الدولة كلها، فكانت سياسة من سياساتها، بل و طابعاً بارزاً في شخصيتها.

والأساليب الدعوية المتبعة هنا كثيرة، نعرض لها مشيرين - بإذن الله-، ويمكننا أن نقسمها إلى أساليب فردية -الدعوة الفردية- وأخرى جماعية تتبناها الدولة كسياسة من سياساتها الخارجية - كما تُظهر الآيات هذا- .

أما الدعوة الفردية فتظهر في سلوك سليمان عليه السلام- في دعوته لملكة سبأ، إذ نلحظ عدداً من المعالم البارزة في المنهجية الدعوية عنده عليه السلام.

إن بَدْء الكتاب الذي بعثه سليمان إلى ملكة سبأ وقومها - على أنه بعثه بصفته حاكماً للدولة-، أقول: إن بدْء الكتاب بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لهي بداية لينة مع المدعو، تستجلب قلبه، وتستميل نفسه وعاطفته، خصوصاً وأن هذا المدعو شخصية مهمّة ذات شأن.

ولعلّ في سؤالها عن عرشها الذي نكّر لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ (النمل: من الآية٤٢) نوع ملاطفة ومداعبة - بالإضافة إلى كونه اختبار ذكاء-.

وهذا -ولا شك- له دور مهم في جذب المدعو، وفتح أبواب العلاقة معه، وتهيئته وتمهيدٌ له لسماع ما يلقى إليه. وهو يمثل أولى الخطوات الدعوية عند سليمان عليه السلام. إنه اللين واللطف مع من توجه إليه الدعوة.

ومن المعالم البارزة في الدعوة الفردية لدى سليمان عليه السلام: استعمال الدهاء والذكاء في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين، واستعمال نعم الله في دلالة الخلق على الله، ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان عليه السلام لما توقع مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى عطاء الله له من قوة.. حتى إن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف قد سبقها إليه ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن

﴿ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:٣٨). فأراد عليه السلام دلالتها على قدرة الله الذي يدعوها إليه حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلالات التي سبقت[١].

ويبدو أن سليمان -عليه السلام- بعد ذلك حادثها، وتكلم معها، ودعاها إلى الله وحده، وأن تذر ما كانت تعبد من دونه.

ثم يقال لها: ادخلي الصرح، فتحسبه لجة وتكشف عن ساقيها، ثم تكتشف حقيقة أنه صرح ممرد من قوارير، كل ذلك بدأ يقدح في ذهنها أموراً وأموراً.

استعرضت مسلسل الأحداث منذ البداية ، تذكرت كتاب سليمان لها الذي حمله الهدهد بطريقة مثيرة، وتذكرت إحضار عرشها إلى سليمان بطريق معجزة مدهشة، وتذكرت الصرح الممرد من قوارير، وكيف أحرجت عندما حسبته لجة من الماء، وتذكرت جيش سليمان المكون من الجن والإنس والطير، وغير ذلك كله. فمما رأته في هذه الدولة العظيمة حينئذ خرجت بنتيجة قاطعة: هذه القوة ليست بجهد سليمان الشخصي ولا بقدرته الذاتية، إنها تدل على أيد الله معه؛ سخر له هذه الطاقات والإمكانات، ووهبه هذه القوة والقدرات[٢].

ونضيف إلى ذينك الأسلوبين أمراً آخر، نلحظه من لهجة الخطاب الدعوي لسليمان، إنه يعرض دعوته مستشعراً العزة بها، يعرضها بشرف وفخار لا بتذلل واستخذاء[٣].

انظر قوله في كتابه إلى الملكة وقومها ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:٣١) ، إنها العزة والكرامة في الدعوة إلى دين الله.

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، ٢/٥٩٩، وانظر تفسير الرازي، ٨/٥٥٦ .

(٢) القصص القرآني، الخالدي، ٣/٥٦٦ .

(٣) الحكم والتحاكم، ٢/٥٩٧ .

هذا ما يتعلق بالدعوة الفردية لسليمان عليه السلام، أما دعوته بصفته حاكماً لدولة، أو الدعوة كونها سياسة من سياسات الدولة، فيظهر لنا عدد من الأساليب المتبعة في ذلك، منها: بعث الكتب الدعوية إلى الدول المجاورة، قال سبحانه وتعالى على لسان سليمان : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (النمل:٢٨). وهذا كان من الأساليب الدعوية في السياسة الخارجية لنبينا محمد ﷺ. وتتميز هذه الكتب التي كان يبعثها سليمان عليه السلام بمميزات تقرب الدعوة من المخاطبين بها. فلنقرأ قول ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٢٩) . ينبغي للداعية أن ينزل الناس منازلهم، وهذا الكتاب موجه إلى ملكة، فينبغي أن يكون كتاباً أنيقاً حسناً، يناسب الجهة المستهدفة في الخطاب.

وهذا فعلاً ما كان، فأثار ملاحظة الملكة، حتى إنها لم تتجاهل الشكل الخارجي للكتاب، بل لما أبلغت ملأها عن الكتاب بدأت بوصفه بأنه كتاب «كريم». ثم إن الإيجاز ذو أهمية في هذه الوسيلة الدعوية حتى يتسنى للقارئ قراءة الكتاب بسهولة وسرعة وبغير ملل. وكتاب سليمان هذا؛ كتاب في غاية الإيجاز فهو مكوّن من جمل أربع: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:من الآية٣٠-٣١) .

وعلى الرغم من إيجازه الشديد إلا أنه شامل لأركان الدين وأساسياته. فالمطلوب من الخلق إما العلم أو العمل، والعلم مقدم على العمل، فقوله : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى، وإثبات صفاته جل شأنه . وقوله : ﴿ألا تعلوا علي﴾ نهي عن الانقياد لغير الله عز وجل، اتباعاً للهوى أو طاعة للنفس، وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه الحث على الإيمان بالقلب والإسلام

بالجوارح[1].

فبهذا نرى أن الوسيلة الأولى من وسائل الدعوة الدولية في هذه الدولة - بعث الكتب إلى البلاد المجاورة- حيث نرى أنها وسيلة متطورة في شكلها وترتيبها، في إيجازها وموضوعها. ونضيف إلى ذلك أمراً آخر في غاية الأهمية، وهو: «حسن السفارة». هدهد جميل المنظر، ملون الريش، ذكي مدرب، يحمل الرسالة كمبعوث رسمي، وسفير دولي إلى دولة سبأ. فهذا يضيف إلى ما ذكر أسباباً تجعل من الكتاب وسيلة دعوية مميزة.

ومن هذه الأساليب إضافة إلى بعث الكتب، أسلوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصدّ عن الدعوة. فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك. بل من معادن البشر ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل.

لما أطلق سليمان -عليه السلام- تهديده، وأرسله مع الرسل منذراً، راجع المشركون أنفسهم ، وأثمر ذلك في قلوبهم يقظة، وصحوة من غفوة الغفلة[2]. قال سبحانه على لسان سليمان: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُمۡ بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ (النمل:٣٧) .

سليمان عليه السلام يستغل النقطة التي يخشى القوم لأجلها حربه. قال سبحانه على لسان ملكة سبأ : ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ (النمل: من الآية٣٤) ، ذكاء شديد، وخبرة بالنفوس واسعة، وعلم بالحروب غزيرة، وتدرّج بالدعوة مثير.

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، ٢/٥٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ٢/٥٩٩ .

إن هذه الكلمات التي أطلقها سليمان حسمت ترددّ الملكة، وجعلتها تعزم على الإسلام لرب العالمين ، والاستجابة لدعوة الرسول القوي المكين.

ونختم هذا المطلب ببيان موجز، نفصله فيما بعد، تحت عنوان آخر، ذلك هو أن هذه الدولة في سياستها الدعوية قد انتهجت وسيلة أخرى غير التي ذكرنا.

إن الدولة لا بد لها لإنجاز أي من أهدافها أن تجند لأجل ذلك الجنود، وتوظف الموظفين، وتدربهم وتعدهم للقيام بواجباتهم المناطة بهم، والتي تخدم أهداف الدولة.

إن الدور الذي قام به الهدهد ، ابتداءاً من ذهابه لرؤية أولئك الذين يعبدون من دون الله الشمس، ومروراً بما قاله أمام الملك سليمان، وانتهاء باختياره مبعوثاً رسمياً لإنجاز المهمة الدعوية، وقيامه فعلاً بها. ليشير إلى أن الدولة السليمانية حريصة على تدريب الدعاة، وتعليمهم وتجنيدهم للقيام بالمهام الدعوية، وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي لدولة الدعوة أن تحرص عليه وتجعله من أولوياتها لتوصل إلى الناس دعوة الدولة وعقيدتها.

وبهذا ينتهي الحديث المشوق حول هذا الموضوع المهم، وهذه السياسة البارزة من السياسات العامة لهذه الدولة المسلمة.

* * *

المطلب الثاني

محاربة الفساد

ما أسرع دبيب الفساد إلى الدولة الكبيرة الواسعة! بل إن الفساد ليأكل الدولة الصغيرة الضيقة في عالمنا اليوم أكلاً، رغم ما تتصف به هذه الدويلات من تطوّر تكنولوجي يمكنها من ضبط الأمور ومحاربة الفساد -لو أرادت-.

وليت شعري، كم هي الحاجة إلى سياسة حازمة، وقيادة أمينة صادقة تحفظ البلاد من الفساد المشتعل في جسدها!

تلكم السياسة الحازمة، وتلكم القيادة الأمينة الصادقة، وجدت في دولة سليمان، فتميزت الدولة بضبط عالٍ للأمور، ومحاربة واسعة للفساد بصوره المختلفة، وألوانه الكثيرة.

وأفصّل هنا أنواعاً من الفساد ، كان من سياسة الدولة السليمانية محاربتها:

أولا : الفساد العقدي:

وقد مثل محاربة الفساد العقدي سلسلة القرارات والتحركات التي أتبعت وصول أخبار مملكة سبأ وعبادة الشمس من دون الله ، إلى سليمان -عليه السلام-. فأصدر أمرا ببعث كتاب إلى الملكة وقومها يدعوهم فيه دعوة الإسلام ، ومن ثم أعلن الاستعداد لضربة عسكرية قاصمة -إثر محاولتهم رشوة القيادة الأمينة المؤمنة-، وما تلا ذلك من أحداث، انتهت بالقضاء التام على ذلك الفساد العقدي المتمثل بعبادة الشمس من دون الله.

ثانياً: الفساد الإداري والتسيّب الوظيفي:

كنا قد استعرضنا في مطلب «اليقظة والحزم» من صفات سليمان عليه السلام، موقفه مع الهدهد والإجراءات التي اتخذها معه، وما أوعده إن هو لم يأت بحجة

واضحة وسلطان بين على سبب غيابه . قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢٠-٢١). وما هذا الوعيد الشديد - على أسماع الحاضرين- للهدهد الغائب إلا إعلان للحرب على الفساد الإداري والتسيب الوظيفي، ولجم لكل فكرة تقصير وإهمال تطرأ على قلب كل سامع.

وقد فصلنا فيما سبق[1] ما يمكن أن نعدّه من هذا الباب، باب محاربة الفساد الإداري.

ثالثاً : الفساد المالي :

من أنواع الفساد الخطيرة الفساد المالي، حيث ينتشر هذا في أصحاب المناصب والكراسي بسهولة، فللمال بريق يسحر كل ضعيف نفس، والمنصب أداة طيّعة لجمع هذا المال.

والرشوة من أكثر صور الفساد المالي انتشاراً، خصوصاً في دوائر الدولة ومناصبها. أما سليمان فأعلن حرباً لا تبقي ولا تذر على هذا الفساد المالي، وردّ على مقدّم هذه الرشوة بأعنف رد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (النمل:٣٦-٣٧). قل لي بربك: من ذا الذي تسول له نفسه بعد سماع رد سليمان على هذه الرشوة، أن يقدم له - في يوم من الأيام- رشوة يستميله بها؟؟ أو من ذا الذي يجرؤ على الإقدام على فساد مالي ، في ظل هذه القيادة الحازمة، بعدما سمع ما سمع؟؟.

رابعاً: الفساد الأمني:

كثير من الدول تحتل الأجهزة الأمنية فيها أكثر من الحد الطبيعي، فتتحول الشعوب في أيدي تلك الأجهزة إلى لعبة مسلية، تفرغ فيها هذه الأجهزة جام

---

(١) انظر اليقظة والحزم .

فسادها وعبثها على قهر تلك الشعوب المسكينة واضطهادها، ويصبح سحق الشعوب وتكميم أفواهها أمراً طبيعياً، غير مستهجن لضمان أمن الدولة، وتحقيقاً للوحدة الوطنية فيها!!! لكن سليمان عليه السلام الحاكم الصالح، لم يكن ليسمح بهذا في دولته التي اتخذت من الإسلام منهجاً ودستوراً.

قال الله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ (النمل: من الآية١٧-١٩).

هذا الجيش الهائل، ذو التنظيم العسكري الدقيق، يقف، يقف لماذا؟ إنه يقف حرصاً على بعض رعايا تلك الدولة، رعايا نكاد لا نراهم، لكن ضعف النمل- وهو يمثل بعض رعايا الدولة- لم يسوّغ عند سليمان أن يطأها هذا الجيش العظيم الجرار.

وإذا كان سليمان عليه السلام يمنع الجيش من انتهاك حرمة هذا المخلوق الضعيف أفيسمح له بانتهاك حرمات البشر، وهم أكرم عند الله؟؟ اللهم لا.

هذه أنواع من الفساد - عرضها القرآن الكريم- كان من سياسة سليمان عليه السلام أن يحاربها.

* * *

المطلب الثالث

السياسة الحربية

تشكل السياسة الحربية جانبا مهماً من سياسات الدول، وخصوصا الدول المحاربة ، والجهاد في عقيدة سليمان - كما في عقيدة المسلم- عبادة يُتقرب بها إلى الله. وتشكل قوّة تدعم الحركة الدعوية، تعمل على تحطيم الأنظمة القائمة التي تحول بين الشعوب وبين دعوة الله.

وتسهيلاً لتناول هذه السياسة عند سليمان الحاكم عليه السلام، فإني أقسمها إلى فروع، يعنى كل منها بتوضيح جانب من جوانب هذه السياسة الحربية في الدولة السليمانية.

الفرع الأول : المشاعر الجهادية:

نلحظ ونحن نستعرض قصة سليمان - بمختلف جوانبها- أن هذا النبي الكريم، والحاكم الرباني محبّ للجهاد، حريص على نشر المشاعر الجهادية في أمته، وبين أفراد شعبه، حتى يتحول هذا الشعب إلى تيار جهادي متدفق، يجيب نداء الله عندما تحين لحظة الوفاء لله ولدينه.

ونستدل لما ذكرنا بمشهد عرضته سورة ص، يمثل تفقداً ومتابعة للإعداد العسكري، والتهيئة العامّة لقسم مهم من أقسام الجيش المسلم.

يقول الله سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ (ص:٣٠-٣٣) .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هناك خلافاً واسعاً حول تفسير هذه الآيات نختار منها ما يتلاءم مع شخصية سليمان الجهادية، وما يليق به وبمقام نبوته عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام[1].

وملخص القصّة أن سليمان عليه السلام كان يشرف على عرض لمستوى الإعداد و«اللياقة» لدى هذه الخيول المميزة -كما سنرى فيما بعد- وأنه سابق بينها حتى اختفت هذه الخيل عنه، فلم يرها، فطلب ممن حوله أن يردوها عليه شوقاً إليها وحباً لها، وهنا أخذ يمسح بيده على أعناقها وسوقها مودّة لها وإعجاباً لها.

ويكون على هذا المعنى قول الله على لسان سليمان: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ هو أنه عليه السلام قد أحبّ هذه الخيل بسبب ذكره لله، فـ (عن) هنا سببية. فكأنه ذاكر لربه عندما يحب الخيل، فحبه لها ذكر منه لله تبارك وتعالى.

وما حبّ سليمان عليه السلام لهذه الخيل إلا مظهر من مظاهر حبه للجهاد، إذ كانت الخيل -إلى عهد ليس ببعيد- رَكوب الحرب، وعنوان الجهاد، ومطية الشجعان. نعم ، هذا الحب منه عليه السلام للخيل، إنما هو تعبير صادق عن مشاعره الجهادية الممتلئة بها نفسه، حتى يصير ما يذكّره بالجهاد حبيباً إلى قلبه، حقيقاً بالعناية الشخصية منه عليه السلام.

ولا شكَّ أن إظهار الحاكم حبّه للجهاد، وإقامة الفعاليات المختلفة التي تثير المشاعر الجهادية لدى الناس، كهذه الاستعراضات العسكرية المتنوعة - كما سنأتي عليه- يمثّل عمل الأجهزة الإعلامية، والوسائل التربوية لتهيئة النفوس للظروف المناسبة لإقامة الدين، وإعلاء كلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام[2].

---

(١) وقد رجح هذا الذي نختاره الإمام الطبري في تفسيره، ٢٣/١٨٤، والفخر الرازي، ١٠/٣٩١.

(٢) انظر فقه النصر والتمكين، ص١٥٦ .

بل إن سليمان عليه السلام يشجع في رعيته التوجه الجهادي، ويرغب فيه - فها هو يعفو عن الهدهد الذي جاء يخبره بما يفتح عليه باباً من أبواب الجهاد[1]، ليكون هذا التصرف تشجيعاً لغيره من الجند.

وهكذا نرى أن من سياسات سليمان عليه السلام الحربية أن يوقد في نفسه في أمته شعلة الجهاد ، وأن يحرك المشاعر الجهادية حتى تبقى الأمة على أهبة الإستعداد لنصر دين الله، والتمكين له.

الفرع الثاني : النظام العسكري:

الناظر في آيات قصة سليمان عليه السلام يدرك أن هذه الجيوش الجرارة التي كانت تأتمر بأمر سليمان، لم تكن لتكون سهلة الإدارة والتوجيه والحركة إلا بنظام دقيق مُحكم.

أقول: إن العسكرية في دولة سليمان تشكل منظومة إدارية هائلة ، يجدر بنا ونحن نتكلم عن سياسات الحكم وطرائقه أن نقف أمامها ونتملاها ، وننعم فيها الفكر والنظر ، إدراكاً منا لأهمية الجانب الحربي الجهادي في حياة الدولة المسلمة .

فلنقف مع الآيات نستقي منها الفوائد والدروس والإشارات. يقول جل شأنه: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل:١٧) ، تأمل في قوله: ﴿جنوده﴾ مضافاً إلى ضمير المفرد الغائب العائد على سليمان ليدلنا على أن هناك جيشاً نظامياً، ينتمي إلى هذه الدولة. يوجد عند الطلب. ويقوم باستعراضات عسكرية منظمة مرتبة - كما تشير الآية-.

ثم إن هذا الجيش الضخم المكوّن من الجن والإنس والطير، هو جيش في غاية

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٢٦ .

الترتيب والتنظيم، على الرغم من عدده الهائل، وأجناسه المختلفة. انتبه إلى قوله سبحانه: ﴿فهم يوزعون﴾.

قال الإمام الرازي - رحمه الله-: «معناه : يحبسون وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل منها وازع، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه، فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع»[1] .

إذن، على الرغم من تلك الأعداد الضخمة المتفاوتة الأجناس، إلا أن جيشاً للحاكم الصالح سليمان لم يكن مكاناً للفوضى، وجنوده لم يكونوا مهملين. فقد كان جيشه مرتباً منظماً منضبطاً، وكانوا يفعلون ذلك عن طريق حبس أوّل الجنود عن آخرهم، فيسير آخر جندي بسير أول جندي ، ويراعي الأول حركة الأخير، وبذلك تنتظم الخطوات وتتناسق الحركات[2].

قال الراغب: «يقال وزعته عن كذا: كففته عنه، فقوله: ﴿يوزعون﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين ومبعدين، كما يكون الجيش الكثير المتأذي بمعرتهم بل كانوا مسوسين ومقموعين. وقيل في قوله: ﴿يوزعون﴾ أي حبس أولهم على آخرهم ..»[3].

وهذا يوحي أن هذا الجيش مقسّم إلى كتائب منفصلة على رأس كل كتيبة منها رئيس أو عريف أو أمير أو ضابط صف، يقوم على توزيع أفراد كتيبته، وهذا يشبه في عصرنا ما يسمى بنظام شرطة الجيش[4].

---

(١) التفسير الكبير للرازي، ٥٤٨/٨ .

(٢) انظر القصص القرآني، ٥٠٧/٣ ، والأساس في التفسير، ٣٩٩٨/٧ .

(٣) المفردات ص٨٦٨ .

(٤) انظر الأساس في التفسير ٣٩٩٨/٧ .

ويعضد هذا قوله تعالى: ﴿وتفقد الطير﴾ إشارة إلى أن الطير كانت في كتيبة منفصلة، وقف سليمان يتفقدها، فأدرك الخلل الذي اعتراها بتغيب أحد أفرادها ونستطيع أن نتصور بعد هذا أن بقية العوالم كانت تشكل أيضاً كتائب منفصلة كل حسب جنسه[1].

ولنا أن نخرج منها بأمر آخر وهو أن تقسيم هذا الجيش كان يقوم على قاعدة تقارب الأفراد في الطبائع والصفات، فعالم الطير المتجانس كان يشكل كتيبة منفصلة، وكذا عالم الإنس ومثله عالم الجن، وهذا أدعى إلى الانسجام بين الأفراد وتفاعلهم معاً، وهو الأمر الذي يجب أن يلاحظ عند تقسيم المجموعات الكبرى إلى مجموعات أصغر. والعدد الكبير من الأفراد يصعب قيادتهم مرة واحدة ، ويسهل عندها على الفوضى أن تخترق صفهم وتفكك تنظيمهم، أضف إلى هذا أن القائد الواحد مهما كانت قدراته فإنه لن يستطيع أن يدير العدد الكبير وأن يراقب بدقة فيرهق نفسه ويضيع حقوق الأفراد. فإذا لجأ إلى تقسيمهم إلى مجموعات سهلت إدارتهم وسلست قيادتهم، وحسن تنظيمهم ووصلتهم حقوقهم، وشارك بعض الأفراد قائدهم في تحمل المسؤولية، ولهذا من الحسنات ما يصعب حصره، وهو ما تنبه له سليمان -عليه السلام-[2].

مما يدل -أيضاً- على رقيّ المستوى التنظيمي في جيش سليمان وجنوده، أنه ما كان يسمح لأحد الأفراد أن يتغيب عن المسؤولية التي أنيطت به بغير إذن مسبق، أو إجازة رسمية لعذر واضح وسلطان مبين، ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢٠-٢١). وهذا يدل على أن هناك نظاماً للإجازات - إن جاز

(١) القيادة المؤمنة كما يعرضها القرآن الكريم، ص١٨٩ .
(٢) المرجع السابق، ص١٨٩ .

التعبير-، لا يسمح لأحد الجنود أن يتغيب متجاوزاً إيّاه، وهذا - ولا شك- يظهر مستوى راقياً من الضبط والتنظيم العسكري.

فإذا ما اعتبرنا أن ما قام به الهدهد في جولتيه الأولى والثانية يمثل جانباً من العسكرية الحربية ، والسياسة الجهادية لدولة سليمان، فإننا نعده قسماً مهماً لا غنى للدولة الجهادية عنه.

أقول: تمثل الاستخبارات العسكرية في الدولة الحديثة جانباً مهما من سياسة هذه الدول. وإننا إذا نظرنا إلى مهمة الهدهد والمعلومات التي جاء بها، والتقرير الذي قدمه، فإنه يمكننا أن نعتبر ذلك كله جزءاً من نظام استخباري جهادي، يسلّط على أعداء الدولة الخارجيين، سواء أكانوا أعداء عقيدة - كما هو الأمر هنا- أم أعداء إفساد أو تآمر.

قال الله تعالى على لسان الهدهد -جندي الاستخبارات الجهادية لدولة سليمان-: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل:٢٢-٢٨).

هذا الجيش النظامي المتطور، كان له - كما نفهم من الآيات- دورات إعداد، وتمارين لياقة، وتدريبات رفع مستوى، نستدل على هذا بما نقلناه في الفرع الأول من هذا المطلب. قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ (ص:٣١-٣٣).

هذا المشهد يمثل إشرافاً مباشراً من سليمان - عليه السلام- على تدريب من تدريبات هذا الجيش القوي المعدّ إعداداً متميزاً.

انظر إلى وصف هذه الخيل - التي تمثل أداة الحرب وسلاحها الأول-، قال تعالى: ﴿الصافنات الجياد﴾، قال صاحب مختار الصحاح: «الصافنات من الخيل: القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر»[1].

أما الجياد، فقد جاء في المعجم الوسيط: «جاد الفرس صار جواداً، وجاد في عَدْوِه: أسرع، والجواد: النجيب من الخيل، وفي التنزيل: ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾[2]. فهذه الخيل ذات المنظر الجميل، والجسد القوي المدرّب لم تصر إلى ما صارت إليه إلا بتدريب ومتابعة مختصين، فلم تترك الخيل لتفقد قدراتها العسكرية في الجري والكر والفر، بل الظاهر أن المنظومة العسكرية المتكاملة في دولة سليمان اعتنت بها، تتميماً للسياسة الحربية الجهادية في إبقاء الجيش مستعداً للقاء العدو، انطلاقاً من الإيمان بواجب الدولة في نصرة دين الله.

* * *

(١) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، منشورات أبو شنب، عمان، ط بدون، ص٣٦٦.

(٢) المعجم الوسيط، لمجموعة من المؤلفين، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٤٥-١٤٦.

المطلب الرابع

الحرب النفسية

نرى ونحن ندرس آيات قصة سليمان عليه السلام أن الحرب النفسية، ومحاولة تحطيم العدو نفسياً قبل البدء بتحطيمه عسكرياً، يشكل ركناً من أركان السياسة الحربية الجهادية عند سليمان ودولته.

ويمكننا أن نستدل على ما نقول بعدة أدلة من خلال الآيات.

أولاً: يلاحظ أن سليمان عليه السلام في عدة مواطن استعمل أسلوب «إظهار القدرات» أو«استعراض العضلات» -إن جاز التعبير- في دعم القوة الحربية الفعلية.

فها هو -كما تعرض آيات سورة النمل- ينظم حشداً عسكرياً هائلاً، يضم طوائف من جنود الجن والإنس والطير، يقفون على شكل كتائب عسكرية منضبطة تهول الناظر، وتقذف في قلب العدو الرعب. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل:١٧)، وتعرض سورة ص مشهداً آخر من مشاهد استعراض القوة، تتجلى فيه القدرات القتالية لخيول الحرب، يقول تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ (ص:٣١). ولاشك أن هذه الاستعراضات تقذف في قلوب أعداء الدولة - سواء أكانوا خارجيين أم داخليين- الرعب والفزع والرهبة، من القوة الهائلة التي تمتلكها هذه الدولة.

وهذا ما حض عليه القرآن الكريم وبين هدفه، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٦٠).

نعم إنها الحرب النفسية التي تكفي الدولة المسلمة نصف المعركة بالهزيمة المسرعة إلى قلوب أعدائها. ثم لنتأمل الهدف الذي قصد إليه سليمان عليه السلام حين أحضر عرش ملكة سبأ قبل مجيئها مسلمة مع قومها؛ وما الهدف الذي قصد إليه حين رتب دخولها إلى القصر الممرد بالقوارير؟

إن ما ذكر من إحضار عرشها، وإدخالها القصر، إنما هو وسيلة لعرض مظاهر القدرة الخارقة التي تؤيده، لتقضي على أي وساوس في نفوس الوفد القادم من سبأ بالمواجهة أو المقاومة، ولتقود هذه الملكة إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته[1].

ثانياً: مما يهز نفسية العدو، ويزلزل ثباتها، ما يراه من ثبات القوة المؤمنة وثقتها بنفسها، وجرأتها على الإقدام والمبادأة.

ولعل أسلوب الخطاب السليماني في الكتاب الذي أرسل مع الهدهد، يترك في نفس قارئه انطباعاً عن مدى القوة المرسلة إليه، فلتتدبر.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:٢٩-٣١) .

إن ثمن هذا الخطاب سيكون غالياً، لو لم تكن الجهة المرسلة له بالقوة المتلائمة مع مستوى ما فيه من تهديد مبطّن.

ويتأكد هذا كله بالرد العنيف على الرشوة - المسماة بالهبة -. ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (النمل:من الآية ٣٦-٣٧) .

استعداد حقيقي لضربة عسكرية قاصمة، وتهديد شديد المعنى والمبنى ينطلق من

---

(١) راجع في ظلال القرآن ٢٦٤١/٥، والقصص القرآني ٥٤٩/٣.

لسان سليمان عليه السلام ليصيب قلوب أولئك القوم، فيقررون بعده أن يأتوه مسلمين.

ثالثاً: التركيز على نقاط الضعف في قلب العدو، كان من الحرب النفسية التي يشنها سليمان عليه السلام.

استمع إليه مهدداً متوعداً: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ألم تكن هذه النقطة بالذات أهم ما يقلق ملكة سبأ ووزراءها؛ ألم تقل هي بنفسها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ (النمل: من الآية٣٤)؟ إنه عليه السلام يعرف أين يضرب، وبأي سلاح يضرب!

إنها الحرب النفسية التي أسقطت دولة سبأ - بما أوتيت من كل شيء كما وصفها الهدهد- أسقطتها بلا دم ولا قتل!!

* * *

المطلب الخامس

السياسة القضائية عند سليمان عليه السلام

كنا قد ذكرنا[1] فيما سبق، أن نبي الله سليمان عليه السلام، قد تميز بعقلية قضائية فذة، فاق فيها أباه داود ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ (الأنبياء: ٧٨-٧٩).

هذا الفهم الذي أوتيه سليمان يمثل قدرته العقلية، واستعداده الفطري للقضاء، وهذه منة منَّها الله عز وجل عليه.

ونحن الآن لسنا بصدد الكلام عن علمه بالقضاء-كصفة من صفاته-، بل نحاول أن نستخرج سياسته فيه، وطرقه في التعامل مع المشكلات في الفصل بين الناس.

ولتسهيل تناول هذا المبحث، نقسمه إلى نقاط تبين معالم السياسة القضائية وخطوطها العامة. وكل ما نتكلم حوله الآن، إنما هو استنتاجات من آيات سورة النمل التي فصّل فيها تعامله مع غياب الهدهد، وإلا فالقصص الأخرى - كقصة الحرث- لم تذكر في القرآن إلا مجملة.

أولاً: نلحظ أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير فعلم الهدهد غائباً قال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ (النمل:٢١).

انظر إلى أنه عليه السلام لم يقطع بقرار واحد في عقاب الهدهد، وإنما ذكر عقابين آخرهما أشد من أخيه. فهو تدرج في العقوبة[2] من الشديد إلى الأشد، فالعذاب أقل

---

(١) في مبحث (العلم) من صفاته الشخصية عليه السلام.

(٢) الحكم والتحاكم، ٢/٥٩٤.

غلظة وشدة من الموت. ثم إن أمر التغيب هذا قد يتغير من شخص إلى آخر، حتى لو كان كلاهما بلا عذر. إذ إن الأعذار نفسها تتفاوت في نسبة قبولها أو عدمه. وهذا هو السبب الذي لأجله لم يقطع سليمان بعقاب واحد في حق الهدهد الغائب.

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ دليل على أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد»[1]. فكان التدرج في تقرير العقوبة، وجعلها تناسب الجرم المقترف من سياسات سليمان عليه السلام في القضاء.

ثانياً: بعد أن أطلق سليمان تهديده في عقوبة الهدهد لم ينس أن يعلق إنزال العقوبة بكونه لم يأت بعذر. قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢١). وهذا الذي فعله سليمان هو «التريث والتأني قبل إطلاق الحكم، فلعل للغائب عذراً، و للمقصر حجة تدفع الإثم وترفع العقوبة[2].

وهذا هو اللائق بالحاكم إذا كان عادلاً، وسليمان الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه الهدهد إلا أن يكون عادلاً، لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة، واكتمال الأدلة[3].

ولعل سليمان عليه السلام لما استثنى من إيقاع العقوبة بالهدهد أن يأتي بسلطان مبين[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٢٠ .

(٢) الحكم والتحاكم ٢/٥٩٤ .

(٣) انظر المرجع السابق ٢/٥٩٤ .

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ﴿بسلطان مبين﴾ أي حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه: أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب. وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ص٦٠٤. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١.

تذكر قصة أبيه مع الخصمين اللذين تسورا المحراب، إذ استعجل أبوه داود عليه السلام في قوله : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾(ص: من الآية٢٤) ، فعاتبه الله سبحانه ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ (صّ: من الآية٢٦) الآيات .

أقول: لعل سليمان تذكر أنه لا ينبغي للحاكم أن يتسرع في إطلاق حكمه إن استثير عاطفياً باتجاه ما! لذلك لما جاءه الهدهد بعد وقت قليل، وبادأه الكلام ففسح سليمان له المجال للتعبير عن رأيه وللدفاع عن نفسه بحرية تامة[1].

فسعة الصدر في الاستماع إلى أعذار المعتذر، وحجة المتخلف حتى ينتهي من كلامه من سياسات القضاء لديه عليه السلام[2].

فقد يكون العذر مقبولا، والحجة واضحة، بل إن ما كان من الهدهد لا يرفع عنه الحرج فحسب، بل ويجلب إليه الشكر والمكافأة على حسن صنيعه! فكم تكون الندامة لو لم يترك للهدهد أن يدافع عن نفسه؟ وكم تكون لو لم يعلق سليمان إيقاع العقوبة به بعدم إتيانه بسلطان مبين؟

جميل من القائد أن يكون حازماً لا يتهاون مع من يقصر في واجبه أو يتهاون في عمله، وأجمل منه أن يقبل العذر الحقيقي متى وجد[3] .

ثالثاً: تظهر الآيات طريقة تعامل سليمان عليه السلام مع الأخبار المنقولة إليه، والأدلة المعروضة عليه. فتراه حين جاءه الهدهد وقصّ عليه ما أحاط به علمه لم يبادر إلى التصديق ولا إلى التكذيب ، بل توقف حتى ينجلي الأمر.

---

(١) انظر المرأة في القصص القرآني. د. أحمد الشرقاوي، ٢/٥٥٤ ، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠١. وهذا الكتاب عبارة عن رسالة دكتوراة قدمت في كلية أصول الدين والدعوة في الأزهر.

(٢) انظر الحكم والتحاكم ٢/٥٩٤. والمستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ١/٤٣١.

(٣) القيادة المؤمنة كما يعرضها القرآن، ص١٩٢.

على أن الذي تكلّم به الهدهد من الخطورة بمكان ، بحيث لا يجرؤ على اختلاقه لما يعلمه من كون سليمان نبياً ذا تمكن ومقدرة على التأكد من صحة الأخبار[1]. رغم ذلك قال : ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

هنا تظهر حكمة القيادة وحسن تصرفها حيث لم ترد عذر الهدهد لتنفذ وعيدها، وفي الوقت نفسه لم تأخذه مُسَلّماً كما أخبر به الهدهد. لكنها وقفت منه موقف القاضي المنصف والحاكم العادل[2].

ثم ينتقل إلى الخطوة العملية، وهي ضبط الحقيقة وتحري الخبر، فيبعث مع الهدهد كتاباً لهم ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (النمل:٢٨).

إذن سليمان عليه السلام يتوقف في تصديق الأخبار أو تكذيبها، ويتحرّى أن يصيب الحقيقة، قبل اتخاذ القرارات.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى: ما هي الأخبار التي يطلب سليمان سماعها؛ وما هي التي تسترعي انتباهه؟

يقول الإمام القرطبي: «لما قال الهدهد: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ لم يستفزه الطمع، ولا استجره حب الزيادة في الملك إن يعرض له، حتى قال: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ فغاظه ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبره، وتحصيل ما غاب عنه من ذلك، فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (النمل:٢٧).

---

(١) انظر الحكم والتحاكم، ٢/٥٩٥ .

(٢) نظرات في أحسن القصص، ٢/٢٣٧ .

فهي الأخبار التي لها تعلق بأمر الدين[1]، رسالة الدولة السليمانية. أما غير ذلك من الأخبار التي تجلب المكاسب والأموال، فلم يكن عليه السلام من طلاب الدنيا وإنما كان من طلاب الآخرة.

هذا ما يظهر لنا من طريقة سليمان عليه السلام في القضاء، وطرقه في التعامل مع الأخبار، ودراسته للأدلة والشواهد[2].

* * *

(١) انظر الحكم والتحاكم، ٢/٥٩٥ .

(٢) يذكر صاحب كتاب دعوة الرسل، ص٢٩٤ أن من سياسات سليمان في القضاء (إعمال القرائن) ويستدل على ذلك بالحديث الذي رواه الشيخان عن رسول الله ﷺ في حكم سليمان بين المرأتين مدعيتي ولداً، كل منهما تزعم أنه ابنها. والحديث معروف. وللاستزادة ارجع إلى الكتاب المذكور وقد أحجمت عن ذكر هذا لأنه لم يرد في النص القرآني، مراعاة لطبيعة البحث في هذه الرسالة المختصة بالنص القرآني.

المطلب السادس

تقريب الصالحين واستعمال الأكفأ

للبطانة دور مهم في توجيه سياسات الحاكم، ورسم طريقة إدارة البلاد، بما تشيره من استشارات، وبما توحي به إلى الحاكم في مختلف الشؤون.

ولعمر الحق إن صلاح البطانة أو فسادها مقرون بصلاح الحاكم أو فساده، ومؤشر عليه.

وسليمان عليه السلام لم يكن ليقرب فاسداً متزلفاً إلى بلاط الحكم، ولا كان ليركن إلى ماجنٍ أو عبد لشهواته حتى يستشيره في أمور البلاد والعباد!

وإذا ما تأملنا في قصته عليه السلام، فإننا نجد القرآن الكريم يعرض مشهداً واحداً يوحي بنوعية تلك البطانة، ويبين نوع المقربين من بلاط الملك.

تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٣٨-٤٠).

مشهد يتكلم فيه سليمان مع ملئه، ويَظهر فيه ثلاث شخصيات: الأولى: شخصية سليمان عليه السلام، الثانية: ذلك العفريت من الجن، أما الثالثة: فالذي عنده علم من الكتاب[1]. وهذان يمثلان شريحة من ملأ سليمان والمقربين منه عليه السلام.

---

(١) كنا قد اخترنا في مبحث العلم من صفات سليمان عليه السلام أن المقصود بالذي عنده علم من الكتاب: سليمان نفسه: لكنني ذكرت في المقدمة أنه إذا اختلفت الآراء في تفسيرها، فإنني قد استشهد بالآية الواحدة على أكثر من احتمال في معناها.

وهذه الشريحة توضح أنه عليه السلام لم يكن يقرّب إلا الصالحين، وذوي الخبرات المتميزة، والكفاءات العالية.

أما الذي عنده علم من الكتاب، فهو يمثل العلماء، الذين كان يقربهم سليمان ويهتمّ بهم اهتماماً خاصاً، ويكل إليهم القيام بالمهمات العظام، كما نلحظ من خلال الآيات.

وأما العفريت من الجن، فلنقف مع كلام العلماء لنتعرف إليه.

قال ابن الجوزي -رحمه الله- في زاد المسير: «قال أبو عبيدة: العفريت من كل جنّ أو إنس: الفائق المبالغ الرئيس، وقال الزجاج: العفريت: النافذ في الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء[1]. وقال في المعجم الوسيط: «العفريت: الخبيث المنكر، والعفريت: النافذ في الأمر مع دهاء[2]. فالظاهر أن «العفريت» وصف، لا يفيد بيان الجنس.

فهذا الجني الذي كان من ملأ سليمان كان عفريتاً، أي قوياً مسيطراً كثير الحركة، وكان مؤمناً تقياً أميناً[3]، بدليل: أنه وصف نفسه بالقوة والأمانة، وهاتان من صفات المؤمنين ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: من الآية٣٩). ثم إن هناك دليلاً آخر، هو أنه قدم قدراته وإمكاناته بين يدي سليمان عليه السلام لخدمة دولة التوحيد، وهذا لا يفعله جنّ كافر أو فاسق.

يتضح من هذا أن الملأ والبطانة العليا في دولة سليمان كانت صالحة، فهي إما أن تكون من العلماء العاملين أو من المؤمنين أصحاب الكفاءات المتميزة. وهذا يظهر أن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ص٩٥٨. دار إحياء التراث العربي، بيروت . ط١، ٢٠٠٢.

(٢) المعجم الوسيط، ص٦١١.

(٣) انظر القصص القرآني، للدكتور الخالدي، ٥٥٢/٣.

من سياسات سليمان تقريب الصالحين، واستعمال الكفاءات وتوظيفها لخدمة هدف الدولة.

وكم هي الدول بحاجة إلى اتباع هذه السياسة الحكيمة - سياسة تعيين الرجل الكفء في مكانه المناسب، وتوظيف الطاقات وفق معيار الكفاءة-، أقول: هذه السياسة التي تأخذ بيد الدولة المتبعة لها لتضعها في مقدمة الدول من حيث التقويم والإنتاج.

وسليمان - عليه السلام- كان من سياسته - كما ذكرنا- استعمال الأكفأ، أو بعبارة أخرى: وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

يؤيد هذا، ويدل عليه: اختيار الهدهد نفسه الذي جاء بخبر ملكة سبأ وقومها للقيام بالمهمة الخطيرة ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل:٢٨)، لما للهدهد من مواهب خاصة من حيث الشكل الخارجي، والقوة والخفة - التي أثبتها في رحلته الأولى-، هذا الذي جعل سليمان عليه السلام يكل إليه القيام بالمهمة، فالشخص المناسب في المكان المناسب، شعار رفعته إدارة البلاد .

* * *

المطلب السابع

الاهتمام بالصناعات ومظاهر المدنية

بنى سليمان -عليه السلام- مملكته الإيمانية المتميزة، ووضع لها حضارة راقية تركت لذكرها الخلود.

وقد تميزت هذه الحضارة المؤمنة باستكمالها لجانبي الحضارة: الحضارة الأخلاقية والروحية، وهي ما تسمى في عصرنا بالإنسانية، والحضارة الصناعية والعمرانية وهي ما تسمى في عصرنا بالمدنية[1].

وما نتناوله في هذا المبحث : الشق الثاني ، وهو المدنية في دولة سليمان . وإنَّ نظرة سريعة للقرآن الكريم يصف دولة سليمان؛ كفيلة بإظهار الاهتمام بالصناعة والعمران كسياسة تطبع الحكم السليماني. ثم إنك لا تكاد تتخيل تلك الدولة إلا وقد امتلأت بالأبنية العربية ذات الطابع المميز.

قال الله جل شأنه: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٢-١٣) .

تشير هاتان الآيتان إلى عظمة الصناعات المعدنية النحاسية التي كان الجن والشياطين يصنعونها لسليمان عليه السلام، والتي كان بنو إسرائيل يستخدمونها في حياتهم المدنية والاجتماعية. كما تشير إلى أن المملكة الإيمانية زمن سليمان - عليه

---

(١) مدرسة الأنبياء ص٢٨٣ .

السلام- قد بلغت مستوى متقدماً من الرقي المادي والعمراني والصناعي[1].

ويمكننا أن نرجع هذا التقدم الصناعي والعمراني إلى سببين رئيسيين - بعد فضل الله ومنه-:

أما الأول: فالإمكانيات المتاحة: إذ إن الآية الكريمة ذكرت عدداً من الإمكانيات التي سهلت على الدولة أن تتطور مدنياً، وتبني حضارة مادية متميزة.

هذه الريح التي تأتمر بأمر سليمان، غدوها شهر، ورواحها شهر. الأمر الذي سهل «وسيلة مواصلات» أو «تنقلات» غير عادية، توفّر عليه الكثير من الأوقات والجهود.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ (سبأ: من الآية١٢) وهو النحاس[2]، الذي ينبع سائلا سهل التشكل، ليستخدمه بعد ذلك في تشييد القصور وصناعة التماثيل وغيرها.

ويمثل النحاس عنصر «المواد الخام»، التي يجب على الدولة المسلمة أن توظفه في تقدمها الصناعي والمدني عموماً.

وتذكر الآية بعدها أن هذا البناء المتقن، وهذه الصناعة المتقدمة، إنما يعملها له: الجن، الذين سخرهم الله سبحانه لخدمة القيادة المؤمنة.

ويمثل الجن هنا ما نسميه: «اليد العاملة» المدربة، المتقنة لما تقوم به. وهذه العناصر الثلاثة: وسائل التنقل، المواد الخام، واليد العاملة، لابدّ منها لأي تقدم في أي دولة، قديمة كانت أو حديثة. وهذه هي الإمكانات المتاحة.

---

(١) القصص القرآني للدكتور الخالدي، ٥٠٦/٣ .

(٢) تفسير الجلالين لمؤلفيه: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

أما السبب الثاني من أسباب هذا التقدم ، فهو القيادة الفذة الحكيمة، التي تجيد استخراج الطاقات وتوظيفها فيما يخدم غرض الدولة ومصلحتها ورفاهيتها.

وكم هي الدول التي تحتوي أراضيها على الكنوز من المواد الخام، ما إنّ استغلالها لكفيل بانتشال هذه الدول من عالم الفقر والتخلف، لكن هذا كله لا يصادف قيادة تحسن التعامل معه؟؟

أما وإننا نستطيع أن نلحظ مظاهر واقعية وأمثلة تطبيقية للتقدم الصناعي والرقي المعماري في دولة سليمان، من خلال قول الله -سبحانه-: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ (سبأ: من الآية١٣). وهذه أمثلة على نوعية الصناعات والعمارة التي كان ينتجها العمّال في دولة سليمان عليه السلام.

يقول ابن كثير - رحمه الله-: «أما المحاريب: فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب: بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد ، وقال قتادة: هي القصور والمساجد.. وأما التماثيل، فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل: الصور.. وقوله ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ (سبأ: من الآية١٣) الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء - وهذه الجفان هي صحاف الطعام الكبيرة الواسعة[١]-، والقدور الراسيات: أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها[٢]، وهي التي يطبخ فيها الطعام، وهي ثابتة لتأمين حاجاته عليه السلام في تلبية أضيافه أو عماله الذين يأكلون على مائدته[٣].

---

(١) من وحي القرآن، ١٩/٢٠٧ .

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/٦٩٢ .

(٣) من وحي القرآن ١٩/٢٠٧.

هذا، وإن القصر الممرد المذكور في قصته عليه السلام مع ملكة سبأ، لهو مثال على عظم الفن والهندسة المعمارية التي وصل إليها القوم ونمط الأبنية التي كانت المملكة تعجّ بها.

لكن، ألهذا كله داعٍ؟ أم هو زيادة وبطر وإسراف ومخيلة؟

إن قصة ملكة سبأ تدلنا على أنها كانت في أمة ذات مدنية عريقة ، ومن ثم فقد أراها سليمان في الصرح أنها أمام مدنية أعرق وأعظم؛ فخضعت وأسلمت لله رب العالمين[1].

وهذا الدرس العظيم الذي نأخذه من سليمان ؛ يفيد أن المدنية الإسلامية ينبغي أن تكون أرقى المدنيات، لأن في ذلك إخضاعاً نفسياً لبقية المدنيات، فمن المعروف أن من أسباب الردة المعاصرة تفوق الكافرين على المسلمين مدنياً ، مما أدى إلى وجود عقدة نقص عند المسلمين، ومما جعل الكافرين يستغلون ذلك ليهاجموا الإسلام وأهله[2].

* * *

(١) الأساس في التفسير، ٤٠١٧/٧ .

(٢) المرجع السابق، ٤٠١٧/٧ .

الفصل الرابع

ذو القرنين.. الحاكم الصالح

ويحتوي على تمهيد ومبحثين:

المبحث الأول: الصفات الشخصية لذي القرنين.

المبحث الثاني: سياسات الحكم عند ذي القرنين .

تمهيد:

بين يدي هذا الفصل، وقبل البدء بما اتصف به ذو القرنين، وما كانت سياسته في إدارة الحكم، يجدر بنا أن نشير إلى أن تحديد شخصيته أمر من الصعوبة بمكان؛ وأن القطع بهويته مما يخالف المنهج العلمي.

إن المفسرين والباحثين قد اختلفوا اختلافاً شديداً في تحديد هويته، وكل منهم عضد رأيه بأدلة تاريخية أو نتف من آثار؛ ليس فيها ما يصلح الاستدلال به. وقد رأيت أن الأقوال فيه متعددة متناطحة، أشهرها: قول من قال: إنه الإسكندر المقدوني ملك مقدونيا من بلاد اليونان، وممن قال به: الإمام الرازي، والإمام الآلوسي، وعبد الكريم الخطيب في كتابه: القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور[1].

وقد تعرض هذا القول لكثير من النقد والنقض ، وردّه ابن كثير في تفسيره[2]، والشهيد سيد قطب في الظلال[3]، وأبوالكلام آزاد في ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ (الكهف: من الآية٨٣)[4] ، ومحمد خير رمضان في «ذو القرنين»[5].

وقال قوم هو «قورش الإخميني»، وقد وجد هذا قبولاً عند المحققين، منهم: أبو الكلام آزاد[6]، والدكتور عبد العليم خضر في كتاب: مفاهيم جغرافية من القصص القرآني[7].

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٤٩٣/٧، وروح المعاني، ٤٦١/١٥، والقصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور ص٩٥، لعبد الكريم الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ، ١٩٨٤م.

(٢) ١٣٦/٣.

(٣) ٢٢٨٩/٤.

(٤) ويسألونك عن ذي القرنين، لأبي الكلام آزد ، مطبوعات الشعب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٨٠-٨٥.

(٥) ذو القرنين، محمد خير رمضان يوسف، ص٨٥، دار القلم، دمشق، والدار السامية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

(٦) ويسألونك عن ذي القرنين، ص٨٥.

(٧) مفاهيم جغرافية في القصص القرآني ، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨١م، ص٢٥٠ وما بعدها.

وذكر غيرهم أسماء أخرى رجحوها[1]. وآثر قوم أن يتوقفوا في تحديد شخصيته، وقالوا: إنه: ذو القرنين القرآني. وعلى رأسهم محمد خير رمضان في كتابه: ذو القرنين[2]، وتبعه الدكتور محمد إبراهيم هلال في كتابه: يأجوج ومأجوج، الخزر، إسرائيل[3].

وهذا الرأي الأخير، هو ما يعنينا هنا، ولو كان لتحديد هويته كبير فائدة، لصرح القرآن بها.

واختتم كلامي هنا، بنقول عن الشهيد سيد قطب- رحمه الله تعالى-، تناسب المقام: «إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السمة المطردة في القصص القرآني، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان. ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن إلى التاريخ لسببين واضحين: أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها عند التاريخ علم عنها. وثانيهما: أن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث- هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف. ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص- أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه

---

(١) مثل قول من قال: إنه أحد ملوك حمير الذين كانوا يعرفون بهذا اللقب، كذي اليزن وذي الكلاع، ومن هؤلاء فضيلة الدكتور فضل عباس - حفظه الله في قصص القرآن الكريم، ص٧٥٠.

(٢) ص٢٤٧.

(٣) يأجوج ومأجوج، الخزر، إسرائيل، الدكتور محمد إبراهيم هلال، ص٣٩، دار البشير، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.

شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة، ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك من التمحيص والتدقيق.

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء إنما هو مراء»[1].

وبعد، فإنني أكتفي بهذه العجالة حول تحديد شخصيته، ونبدأ بالذي هو خير..

ما هي صفات هذا الحاكم الصالح؟ وما هي سياساته في الحكم والإدارة؛ هذا الذي ندرسه في ما يأتي -إن شاء الله-.

* * *

(١) في ظلال القرآن، ٤/٢٢٩٠.

المبحث الأول

الصفات الشخصية لذي القرنين

وفيه:

المطلب الأول: الإيمان والصلاح .

المطلب الثاني: العلم والعمل .

المطلب الأول

الإيمان والصلاح

الإيمان لابد منه للحاكم ، حتى يستقي أوامره من وحي الله؛ الذي لا شطط فيه ولا خلاف، وحتى لا يدخل هواه في الحكم، فيظلم ويتبطر ويتحكم في رقاب الناس وأمنهم[1].

ولا شكَّ في أن ذا القرنين الحاكم الصالح، يحمل في طيات نفسه إيماناً كبيراً، يظهر في آيات القصة - التي لم تذكر إلا في سورة الكهف-. فعلى قصر القصة إلا أن عنصر الإيمان في شخصية ذي القرنين يظهر جليّاً فيها، ويلونها بلون بارز وأحداثها ومواقفها تصور ذلك أجمل تصوير.

فما أن وصل ذو القرنين إلى هدفه من رحلته الثالثة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (الكهف:٩٣) حتى توسمه أهل تلك البلاد فاتحاً قوياً، ذا قدرة وصلاح.

فعرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فساداً، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم[2]. ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (الكهف:٩٤).

ما الذي ألجأهم إلى ذي القرنين يشكون إليه مصابهم، مع أنه فاتح لم يعرفوه ولم يعرفهم! إن الدافع لهم هو ما رأوه من صلاح الرجل، وصدق رسالته الدعوية،

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير رمضان، ص٢٨٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٤/٢٢٩٢ .

المتجردة عن المغنم والكسب المادي، إنه ما نسميه نحن الآن: السمت الإيماني، والتجرد الدعوي.

ثم هو يردّ عليهم الرد الذي يؤكد صلاحه وزهده، وأن فتوحاته هذه لم تأخذ الطابع المادي والكسبي، إنما هو داعية ومصلح ومجاهد. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ (الكهف: من الآية٩٥) إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه[1].

إن أدلة إيمانه في كل حركة فعلها، وفي كل كلمة قالها! لم يخلُ خطاب لذي القرنين من ذكر الله وشكره، ونسبة الفضل إليه.

لقد تكلم ذو القرنين في ثلاثة مواضع من القصة، لم يخل أحدها من ذكر الله -سبحانه-، قال سبحانه على لسان ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف:٨٧-٨٨). ثم قال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف:٩٥)، وفي الموضع الثالث والأخير: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف:٩٨) .

إن كلامه هذا يوضح أنه مؤمن موقن عميق الإيمان قوي العقيدة، ويمكننا أن نستخلص من المواضع المذكورة بعض صور إيمانه وعقيدته.

أولاً: الإيمان بالله -سبحانه-: فذكره لله جل في علاه على لسانه دائماً[2]. ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (الكهف: من الآية٩٥) ، ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف:٩٨) .

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/١٤٠.

(٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، ص٩٨.

يضاف إلى هذا ما يظهر من علمه بصفات الله، ممثلاً بالرحمة: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي أثر رحمة عظيمة[1]. وبالقدرة، فإن الأفعال كلها منسوبة إلى فاعلها الحقيقي القادر ﴿مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. إنه منطق العقيدة ووحي الإيمان.

ثانياً: الإيمان باليوم الآخر: انظر قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الكهف: من الآية٨٧) أي يرد إلى ربه يوم القيامة فيعذبه فيها عذاباً منكراً فظيعاً، وهو العذاب في نار جهنم[2].

ثالثاً: القضاء والقدر: ويظهر هذا في تسليمه لله فيما يكون من أمر مستقبل، وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف:٩٨).

إن هذا كله يبين أن الصفة الأولى التي ميزت هذا الحاكم الصالح: إيمانه العميق، وتسليم أمره لله ، وذكره الدائم له، جل في علاه. بل إن مفتاح شخصيته ﷺ تتمثل في إيمانه بالله تعالى، والإستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان، وبغضه لأهل الكفر والعصيان، وحبه للدعوة إلى الله سبحانه[3].

يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله تعالى-: «وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض وييسّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للمغنم المادي، واستغلال الجماعات والأفراد والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهلها في أغراضه

---

(١) تفسير أبي السعود، ٤/٢١٨ .

(٢) انظر روح المعاني، ١٥/٤٧٢، والبحر المحيط، ٦/١٥٢.

(٣) فقه النصر والتمكين، ص.

وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق. ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله»[1].

وقبل أن ننتقل من مقامنا هذا، ينبغي لنا أن نذكر أن هذه المواضع التي تصرح بأنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر يستفاد منها أمور منها[2]:

أ-إن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعة أو فتوح أو عمارة ، ما لم ينضم إليها الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن هناك حكاماً كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية المجردة ما يعتبرهم الناس لأجلها عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكراً حسناً، بل جاء في القرآن ذم حكام عمروا الدنيا كثيراً، ولكنهم خربوا أديان الناس وأفسدوا عليهم آخرتهم، وعلى رأسهم فرعون - عليه لعنة الله- .

ب-إن إيمان ذي القرنين بالله واليوم الآخر، يفسر التوازن في شخصيته ، بحيث لم تطغ قوته على عدالته ، ولا سلطانه على رحمته ، ولا غناه على تواضعه.

* * *

(١) في ظلال القرآن، ٢٢٩٣ .

(٢) انظر الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، ٢/٦٢٠ .

المطلب الثاني

العلم والعمل

كم هي الأمة بحاجة إلى من يجمع بين العلم والعمل؟ كم هي الأمة بحاجة إلى من يحوز العلم النافع، والمعرفة المجدية، ثم يضم إلى ذلك حسن العمل بما يعلم، وحسن استخدام هذا العلم؛ بما ينفع الأمة؟

ذو القرنين كان كذلك ؛ جمع عدداً من العلوم، وكل منها كان له دور في خدمة قضية أمته ورسالتها.

يقول سبحانه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (الكهف:٨٣-٨٤) .

هكذا ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذو القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها [1].

هذا التمكين الذي يمتن الله به على ذي القرنين نعمة عظيمة، آتاها الله سبحانه عبده الصالح. الحاكم الفاتح، ذا القرنين. ذلكم بما كان عليه ذو القرنين من إيمان وصلاح، ووعي وذكاء وفطنة، أهّلته كي يستغل الأسباب التي آتاه الله إياها، ويجيد توظيفها.

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١٣٦/٣ .

ما هي هذه الأسباب؟ يقول ابن كثير: «وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والضحاك وغيرهم: يعني علماً .

وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾، قال: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن أسلم في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ قال: تعليم الألسنة. قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم»[1].

والحقيقة أن الأسباب التي أوتيها ذو القرنين قد شملت ذلك كله وتحمل تفسيرات هؤلاء العلماء على أنها أمثلة ضربوها على الأسباب التي منّ الله بها على عبده الحاكم ذي القرنين.

فذو القرنين يؤتيه الله ﴿من كل شيء سبباً﴾ من كل ما يحتاج إليه الملوك في سياساتهم وإداراتهم، ومن كل ما يحتاج إليه المجاهدون في فتوحاتهم.

ولا شكَّ أن أول ما يحتاجه هؤلاء وأولئك: العلم. فابن عباس وتلامذته - كما نقل ابن كثير- يفسرون السبب بالعلم. ذلكم أنه لا غنى للحاكم عنه، العلم بمختلف أنواعه ، فها هو قتادة يفسره بعلم منازل الأرض وأعلامها، وهو ما يمكننا أن نسميه (علم الجغرافيا)[2].

وهو نوع من العلوم التي كان ذو القرنين على اطلاعٍ واسع عليها، يدلّ عليه سياحته في أطراف الأرض شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً، في رحلاته الثلاث.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: من الآية٨٥-٨٦) ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٦/٣ .

(٢) فقه النصر والتمكين ، ص١٦٧ .

سِتْرًا ﴾ (الكهف:٩٠)، ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (الكهف:٩٢-٩٣) .

وانظر التعبير القرآني الذي يسبق كل رحلة من رحلاته بقوله سبحانه: ﴿فأتبع سبباً﴾ أي سلك شيئاً من الوسائل التي هيأها الله له، فاستفاد من هذه الوسائل، وأحسن استغلالها والتعامل معها، وعلى رأس هذه الوسائل: العلم بالطرق والبلاد وهو «علم الجغرافيا» .

أما عبد الرحمن بن أسلم فيفسر السبب بنوع آخر من العلم، قال: تعليم الألسنة، أي «علم اللغات» ، ويدل عليه كلامه مع كل قوم يجدهم في رحلاته، ولا شك أن طول المسافة وكثرة البلاد، بين المشرق والمغرب، يقتضي اختلاف لغات أولئك الأقوام، الذين يجدهم في كل بقعة من بقاع الأرض التي يقصدها.

مع ذلك نجد أنه يسهل عليه التكلم معهم، ودعوتهم إلى عقيدته، وطلبهم هم منه المساعدة والنجدة.

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف:٨٦-٨٨) .

وهذا يقتضي أن يكون قد بين لهم عقيدته، ووضحها لهم كل التوضيح، حتى يبني على إيمانهم وكفرهم الثواب والعقاب.

وقال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الكهف:٩٣-٩٥).

وهذا الحوار الواضح بين ذي القرنين وأولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، دليل على علمه باللغات والألسنة.

قال الإمام الرازي: «﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿يفقهون﴾ يضم الياء وكسر القاف على معنى: لا يمكنهم تفهيم غيرهم، والباقون بفتح الياء والقاف، والمعنى: أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم..»[1]. ففهم ذي القرنين لكلامهم، وإفهامهم لكلامه دليل على ما ذكرنا.

ومن أنواع العلوم التي علمها ذو القرنين: العلوم الطبيعية، مثل الكيمياء، يدل عليه «حسن اختياره للخامات»، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له[2].

قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف:٩٦) وهذا النوع من العلوم سنتعرض إليه بتوسع في مطلب قادم في سياسة ذي القرنين في الحكم.

ولنلحظ المشهد الأخير في القصة حين يقف ناظراً إلى السد بعد بنائه، قائلاً: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ (الكهف:٩٨). وكلامه هذا يوحي بأنه كان على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع[3]. مطلع على شيء من أمارات الساعة وأشراطها.

ونستطيع أن نضيف إلى ما ذكرنا أمراً آخر، ذلك أن الداعية حين يدعو الناس

---

(١) التفسير الكبير للرازي، ٤٩٨/٧.

(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، ٦٢٦/٢ .

(٣) الحكم والتحاكم، ٦٢٨/٢ .

إلى عقيدته، ينبغي أن يكون عالماً بها، حتى يدعوَ الناس إليها. فدعوته لكل قوم يجدهم دالّ على علمه الشرعي.

ومن الأدلة على علمه العلم الشرعي أيضاً خروجه إلى الجهاد، فما الذي يخرج ملكاً ذا تمكن وسلطان بنفسه في رحلات الجهاد الشاقة؟؟ حتماً إنه يعلم ما في الجهاد من أجر عظيم، ومثوبة جزيلة، أخبر عنها الشرع ونطقت بها الرسل.

وأخيراً فإن مما يميز ذا القرنين أنه كان موظفاً للعلم الذي يعلمه، عاملاً به فيما يخدم دعوته وأمته. فقد سخر علمه بالطرق والبلاد، وعلمه باللغات والألسنة، والعلوم الطبيعية، والعلم الشرعي. سخر كل ذلك لخدمة عقيدته ودينه ودولته.

* * *

المبحث الثاني

سياسات الحكم عند ذي القرنين

وفيه:

المطلب الأول: إدارة الإنتاج وتوظيف الطاقات .

المطلب الثاني: في السياسة الداخلية .

المطلب الثالث: التقدم الصناعي والمعرفي .

المطلب الرابع: المنهجية التربوية والدعوية عند ذي القرنين.

المطلب الخامس: السياسة الجهادية عند ذي القرنين.

المطلب الأول

إدارة الإنتاج وتوظيف الطاقات

إن المجتمع المتكامل الناجح، هو الذي تجتمع كافة القوى والطاقات فيه لتحقيق خيره ورسالته، وإن القيادة الناجحة الواعية هي التي تستقطب كافة الإمكانيات والقدرات لتحقيق الغايات المنشودة، وهي التي تقدر على الربط بين كل الخيوط والخطوط ، والتنسيق بين المواهب والطاقات[1].

يبدو من آيات قصة ذي القرنين، أن الرجل كان على جانب كبير من الموهبة الإدارية، وأنه أوتي - فيما أوتيه- قدرات متميزة على الإدارة الفاعلة، التي تعرف كيف توظف الطاقات المعطلة، وكيف تدير الإنتاج.

ونستطيع نحن أن نستخرج من آيات القصة في سورة الكهف عدداً من المعالم الإدارية البارزة في سياسة ذي القرنين.

ولدى مراجعتي لبعض كتب الإدارة الميسرة، وجدت بعض المفاهيم الإدارية الحديثة واضحة في سياسة ذي القرنين وأسلوب إدارته لرعيته.

ولنبدأ من نهاية قصته حيث طُلب إليه بناء السد القادر على الحول بين يأجوج ومأجوج وبين هؤلاء القوم الضعفاء. قال سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ

---

(١) انظر مع قصص السابقين، الدكتور صلاح الخالدي، ٢/٣٤١-٣٤٤، دار القلم، دمشق، ط٢ ١٩٩٦.

نَقْبًا قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ (الكهف: من الآية٩٤-٩٨).

لاحظ إسناد هذه الأفعال: ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا﴾ ﴿حتى إذا جعله ناراً قال.. ﴾ ﴿أفرغ غليه قطراً﴾.

قليل من التأمل يصل بك إلى أن ذا القرنين كان مشرفاً مباشراً على سير العمل يأمر وينهى، ويقدر ويرتب، ويعين المواد ويراقب عملية بناء السد، خطوة بخطوة للوصول إلى الهدف، وهو منع يأجوج ومأجوج من الوصول إلى القوم الضعفاء مفسدين مذبحين.

هذا بالضبط ما يسميه علماء الإدارة الآن بـ «الرقابة»، يقول هنري فايول - أحد أكبر علماء الإدارة في العصر الحديث- معرفاً الرقابة: هي «الإشراف والمراجعة من سلطة أعلى بقصد معرفة كيفية سير الأعمال، والتأكد من أن المواد المتاحة تستخدم وفقاً للخطة الموضوعة»[1].

ويعتبر هؤلاء أن الرقابة الإدارية هذه هي أسلوب حديث من أساليب الإدارة لضمان وصول الجماعة أو المؤسسة إلى أهدافها التي تقيس بالنهاية نجاحها وفشلها بالنسبة إليها[2].

فهل ما قام به ذو القرنين هو رقابة وإشراف على سير العمل لضمان وصوله إلى الهدف المنشود - وهو منع المفسدين كما ذكرنا-؟ اللهم نعم.

أمر آخر نضيفه إلى ما ذكرنا، وهو وقفة مع قوله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿فأعينوني بقوة﴾. إن هذه العبارة تعتبر معلماً بارزاً في سياسة تضافر الجهود وتوحيد

---

(١) مفاهيم إدارية حديثة ، ص٢٣٣ .

(٢) مبادئ الإدارة العلمية ، د.محمد رياض بندقجي، ص١٣٥-١٣٦، ليس هناك اسم لدار النشر، عمان-الأردن ، ١٩٨٠م.

الطاقات والقدرات والقوى وتحفيزها[1]. هل كان يُعجز ذا القرنين بما أوتي من الأسباب والإمكانات الضخمة ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ أن يبني السد بدون الحاجة إلى مساعدة أولئك الضعفاء؟ لا أظن ذلك، فما الداعي إذاً لطلبه العون الجسدي منهم؛ إن ذا القرنين أراد أن يحيي هذا الشعب الميت، وأن ينفث فيه روح العمل والجد، وأن يوظف طاقاته المهملة المعطلة، فقال: ﴿أعينوني بقوة﴾.

ولعلّه يجوز لنا أن نسمي هذا منه «محاربة للبطالة». نعم، هؤلاء قوم اعتادوا البطالة والكسل، فلم لا نستخرج منهم ما يستطيعونه من عمل وجهد؟؟ لذلك نرى ذا القرنين يستعملهم في كل خطوة من خطوات العمل. ﴿فأعينوني بقوة﴾، ﴿آتوني زبر الحديد﴾، ﴿قال انفخوا﴾، ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾.

إن أمتنا الإسلامية مليئة بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة، والأموال المهدورة، والأوقات المبددة، والشباب الحيارى، وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار أن تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون، ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[2].

* * *

(١) مع قصص السابقين، ٢/٢٤١.

(٢) مع قصص السابقين، ٢/٣٤٢، وفقه النصر والتمكين ص١٧٦.

المطلب الثاني

في السياسة الداخلية للرعية

نستعرض شيئاً من سياسته مع رعيته، كيفية التعامل معهم، كيفية تنظيم شؤونهم، حفظ حقوقهم وغيره.

ونتناوله في فرعين:

الفرع الأول: إعلان الدستور.

الفرع الثاني: حفظ الأمن.

الفرع الأول: إعلان الدستور:

قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ (الكهف:٨٦-٨٨).

إن الناس الذين قهرهم ذو القرنين وفتح بلادهم ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، إنهم نوعان: مؤمنون وكافرون، صالحون وظالمون، فهل يتساوون في المعاملة؟[1].

يقف ذو القرنين ويعلن منهجه في التعامل مع الناس، وعلى عادة أهل القانون يجعله قاعدة عامة[2]، تندرج تحتها الكثير من الجزئيات والطرق والأساليب، مختصرة

---

(١) مع قصص السابقين، ٢/٣٣٠.

(٢) قال في المعجم الوسيط: الدستور: القاعدة يعمل بمقتضاها، ص٢٨٣.

موجزة واضحة، يسهل التعامل معها. ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُه﴾ ... ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾.

هذا الدستور يمثل نوعاً من الرقي السياسي في حكم ذي القرنين. ويمثل في الوقت نفسه «دستور الحاكم الصالح».

فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والابتلاء. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه حسنا، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة؛ عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون. فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[1].

وحقيق بنا أن نذكر هنا أن ذا القرنين في رحلتيه الأخيرتين، لم يعلن الدستور مرة أخرى على شعوب تلك البلاد، نظراً لوضوح سياسته، ولأنه منهج حياة، ودستور دولة مترامية الأطراف، وسياسة أمم، فهو ملتزم بها أينما حلّ أو ارتحل[2] أو أنه أعلنه مرة أخرى، لكن لم يتكرر بيانه، لأنه معروف من قبل، فلا داعي للتكرار[3].

وقد ذهب عبد الكريم الخطيب في كتابه: «القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور» إلى أن موقف ذي القرنين اختلف في تعامله مع الجماعة التي وجدها في الشرق عن التي وجدها في الغرب. قال: «فالجماعة التي وجدها عند مغرب

---

(١) في ظلال القرآن، ٢٢٩١/٤، وانظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، للدكتور عبد الكريم زيدان، ٢٥١/١، وفيه كلام جيد حول الموضوع.

(٢) انظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص٣٠٦.

(٣) في ظلال القرآن، ٢٢٩٢/٤.

الشمس، كانت على مستوى الفهم والإدراك، ولديها ما يؤهلها لأن تحمل التكاليف، وتدعى إلى الإيمان بالله، أما هؤلاء فإنهم إلى عالم الحيوان أقرب منهم إلى عالم الإنسان، ولهذا وقف ذو القرنين عند الجماعة الأولى موقف الداعية إلى الله، ممتثلاً ما أمره الله فيها. وأما الجماعة التي وجدها عند مطلع الشمس وهي الجماعة التي كانت في مرحلة الطفولة الإنسانية فقد تجاوزها، ولم يقف طويلاً عندها، ولم يعرض عليها الإيمان بالله ؛ إذ كانت بحيث لا تعقل أمورها على ما يقع في تصورها الطفولي، حتى ينضجها الزمن، ويبلغ بها مبلغ الرجال»[1].

لكن كلام الشيخ يناقش، فدعوة التوحيد تناسب الإنسانية في طفولتها ورجولتها -كما عبّر-، ولا نظنّ ذا القرنين إلا داعية ومصلحاً يدعو الناس إلى عقيدته أينما حل وارتحل.

الفرع الثاني: حفظ الأمن من مسؤولية الدولة:

مما نلحظه في سياسته الداخلية - إضافة إلى ما ذكرنا-، أن ذا القرنين يرى حفظ الأمن وتوفير الأمان بالنسبة لرعايا الدولة ، هو من ألزم واجباتها، وأخص لوازمها.

فما أن طلب إليه أهل تلك البلاد دون السدين أن يبني لهم سداً، يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج، حتى سارع إلى إجابتهم، وبدون أجر. إذ إن معنى كونه إماماً أن يوفر الأمن لرعيته ، ويزيل أسباب الخوف عنهم.

يقول ابن العربي: «وكان ملكاً ينظر في أمورهم، ويقوم بمصالحهم، فعرضوا عليه جزاء في أن يكفّ عنهم ما يجدونه من عادية يأجوج ومأجوج، وعلى الملك فرض أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغرتهم من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو

---

(١) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، ص١٠٣.

أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم»[1].

ولو تأملنا في طلبهم وإجابته، لرأيناه قد أجابهم إلى أكثر مما طلبوا، تحقيقاً لأمنهم وإزالة لخوفهم[2].

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف:٩٤-٩٥) . قال الإمام الألوسي: «ردماً: أي حاجزاً حصيناً، وحجاباً متيناً، وهو أكبر من السد وأوثق»[3]. وذلك كي يطمئنهم على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، فهو يقوم بدوره كحاكم صالح.

ويقول الإمام القرطبي -رحمه الله-: «في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً، ويحبسون أو يكفلون ويطلقون ، كما فعل عمر ﷺ»[4].

وكما فعل ذو القرنين ﷺ، إذ وجد الناس في ظل حكمه الأمن من أرباب الفساد، ورؤوس الضلال والترويع، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف:٩٧) .

* * *

(١) أحكام القرآن، ٢٤٣/٣ .
(٢) انظر الحكم والتحاكم، ٦٢٥/٢ .
(٣) روح المعاني، ٤٧٩/١٥ .
(٤) تفسير القرطبي، ٤٠/١١ .

المطلب الثالث

التقدم الصناعي والمعرفي

يحرص الحاكم الصالح على أن تكون دولته الصالحة المؤمنة، حائزة على قصب السبق في مختلف الميادين، ومتربعة على عرش التقدم في شتى المجالات. وذلك كي تقوم بما أوكل إليها من مهمات خير قيام.

وكذلك كانت الدولة التي يحكمها ذو القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف:٨٤). نعم، منّ الله عليه بالتمكين والتقدم، وحيازة أسباب هذا التمكين وذلك التقدم.

وقد ذكرت في مطلب «العلم والعمل» من صفات ذي القرنين أن الرجل كان على علم بمختلف العلوم الطبيعية التي يحتاجها في حكمه ومسيرته الجهادية.

فلنبسط القول هنا -كما ذكرنا- متأملين عملية بناء السد، نرقب ملامح التقدم المعرفي والصناعي -أو قل: الفني- في دولته ﷺ.

قال سبحانه على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف:٩٦). عمل عظيم ضخم؛ مادة هذا السد من قطع الحديد التي كان يجمعها القوم من كل مكان-يبدو أن المنطقة كانت غنية بمعدن الحديد- وجعلوا منها جسراً كبيراً يسد الفراغ الذي كان بين الجبلين، والذي كان ينفذ منه يأجوج ومأجوج إلى القوم.

وقد أمر ذو القرنين القوم أن يوقدوا على هذا الحديد بالنار، وأن يستعملوا المنافيح، كي يشتد اشتعال النار وينصهر الحديد. فلما تم له ذلك، دعا القوم إلى أن

يأتوا بالقطر - وهو النحاس المذاب-، فيفرغوه فوق هذا الحديد المنصهر، حتى يمسك بعضه ببعض، كما يفعل الملاط بأحجار البناء[1].

ويبدو أن الحديد لم يكن هو كل مادة البناء التي بنى بها الرّدم، وإنما كان هو العنصر القوي فيها، بل هو كذلك العنصر الغريب غير المألوف في البناء، ولهذا اختص بالذكر، وهناك إلى جانب قطع الحديد: الأحجار والرمال، وغيرها مما يستعمل في عملية البناء، والتي بها أمكن تسوية السد، وإدخال الحديد ممزوجاً بالنحاس المذاب في هذا البناء جعل منه حاجزاً حصيناً يمنع المفسدين من الوصول إلى غايتهم، وذلك صار أشبه بما يعرف الآن بالبناء المسلح بالحديد[2].

ولا شكَّ أن هذا يمثل تقدم المعرفة، وتقنيات الصناعة في تلك الدولة الرائدة التي حكمت العالم. أضف إلى هذا مراعاة ذي القرنين للمسافات والقياسات، وكمية الخام المستعمل في البناء، وتقديره الوقت المناسب لاستعمال هذه العناصر لإتمام ذلك البناء، الأمر الذي أعجز يأجوج ومأجوج عن تسلقه أو نقبه. ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ (الكهف:٩٦-٩٧).

لقد كان ذو القرنين «مهندساً مدنيا»- إن جاز التعبير-[3]. يملك بين أفراد جيشه أسطولاً من الفنيين وأصحاب الخبرات التصنيعية الكبرى.

يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله تعالى-، حول هذه الطريقة التي استعملها ذو القرنين في بناء السد: «وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، وكان الذي

---

(١) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، ص١٠٨ .

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨-١٠٩.

(٣) مع قصص السابقين، ٢/٢٤٤.

هدى الله إليه ذا القرنين وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله»[1].

وبعد، فسبحان الذي قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

* * *

(١) في ظلال القرآن، ٤/٢٢٩٣.

المطلب الرابع

المنهجية التربوية والدعوية عند ذي القرنين

ما أعظم كتاب الله! إنه سر الإعجاز! آيات قصيرة موجزة، في موضع واحد من القرآن؛ نستخرج منها دروساً كثيرة نافعة، وفوائد عجيبة مقنعة، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. كلما أعدت النظر، وكلما أعملت الفكر؛ سقطت على جوهرة ثمينة فيه، وعلى درس أو فائدة أو لفتة أو سر! إنه كتاب الله!

من خلال آيات سورة الكهف التي تقص علينا من ذكر ذي القرنين، نستطيع أن نستخرج معالم منهجه الدعوي وأسلوبه التربوي، كحاكم فتحت عليه الدنيا، ووقفت خاشعة بين يديه! كيف لا؟ وهو الذي حكمها باسم الله، وطاف مشارقها ومغاربها في سبيل الله.

أقول: يتضح لنا -إذا نحن أنعمنا النظر- أن هذا الرجل ينتهج منهجاً معيناً في التربية وفي الدعوة، يتلاءم مع كونه حاكماً عظيماً مطاعاً. معالمه تبرز إذا سلطنا عليها الضوء.

قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾ (الكهف:٨٦-٨٧).

سبق وتكلمنا حول هذه الآيات[1]، وقلنا: إنها تمثل مظهراً من مظاهر الرقي السياسي، وهي وضع دستور يقاضى الناس إليه. ونقف معها هنا من جانب آخر،

---

(١) انظر مطلب: في السياسة الداخلية.

جانب تربوي دعوي. يعلن ذو القرنين طريقة تعامله مع الناس، ويعتمد نظاماً - سميناه دستوراً- يعاقب فيه المسيء ، ويكرم فيه المحسن.

وهذا ما يسميه أهل الإدارة والتربية: نظام الحوافز[1]، أو التربية بالثواب والعقاب، ذلكم النظام الذي يحفز المحسن على زيادة إحسانه، ويجبر المسيء على أن يقصر عن الشر إن لم يدفعه إلى الجلوس بين مقاعد المحسنين.

فتشتعل روح المنافسة الشريفة بين الناس، ويدفعهم إكرام المحسنين إلى أن يقتدوا بهم، ويسيروا على خطهم ، ويدفعهم عقاب المفسدين الذين إلى الحذر من سلوك طريقهم ، أو التشبه بهم.

فيتربى الناس على حب الخير وأهله، وبغض الشر وحزبه، ويشرق وجه الإيمان، ويغبرّ وجه الفساد والعصيان، وتستقيم حياة الناس بعد ذلك.

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: «ومن أثر هذه السياسة الرشيدة في الحكم؛ أن الصالحين المحسنين يجدون التكريم والكرامة من الحكام، ومن مظاهر تكريمهم إنزالهم المنزلة التي يستحقونها، ومن هذه المنزلة تقريبهم إليهم، والاستماع إلى نصحهم ومشورتهم. أما الظالمون المعتدون؛ فلا يلقون من الجزاء إلا ما يستحقون، ومن هذا الجزاء: العقاب، ومن عقابهم: إبعادهم عن المسؤولية وعدم إناطة وظائف الدولة بهم، وعدم تقربهم من ذوي الحكم والسلطان. وبهذه السياسة تستقيم الأمور، وتنصلح الأحوال، ويروج سوق العدل والإحسان، ويكسد سوق الظلم والطغيان»[2].

إذن، فهذا هو المعلم الأول من معالم منهجه التربوي والدعوي: التربية بالثواب

---

(١) انظر مبادئ الإدارة المعلمية، ص١٢٦.

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ١/٥٢١.

والعقاب. أمر آخر قبل أن نغادر هذا المقطع من الآيات إلى غيرها، وهو أن بعض الناس يتحول الكلام الخير معه إلى سراب، وتتحول الدعوة بالحسنى معه إلى ضرب من إضاعة الوقت. لذلك جاء عن عثمان ﷺ: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[1] فلنسلك معه هذا الأسلوب إذن، إذا استعصى على كلام الخير والملاينة: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الكهف:٨٧).

ولنلحظ عمله الآن مع القوم في رحلته الثالثة: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف:٩٤-٩٦).

إن ذا القرنين - لتشجيع أولئك القوم- يشرف مباشرة على العمل، بل إنه يوجّه ويأمر ويعين المواد ، كل ذلك لماذا؟ إنها ما يسمونه: التربية بالقدوة.

إن الحاكم لدولة عظيمة حوت بين حدودها مشارق الأرض ومغاربها يقف مشرفاً على عملية بناء لسد يحفظ قوماً ضعافاً، يحفز هممهم، ويستثير طاقاتهم، ويحيي نفوسهم.

وكم نحن الآن بحاجة إلى القدوات؟ أولئك الذين ندر وجودهم في هذا الزمان!

وقبل بدء العمل بقليل يأتيه القوم يعرضون عليه المال مقابل بناء هذا السد، لكن ذا القرنين، القائد القدوة، يعلن زهده في مالهم، وإن ما آتاه الله خير مما يعرضونه عليه ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾.

---

(١) رواه مالك بلاغاً عن عثمان ، التمهيد لابن عبد البر، طبعة وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، ١/١١٨، ورواه الخطيب عن عمر، تاريخ بغداد، دار رالكتب العلمية، بيروت، ط بدون، ٤/١٠٧.

إنها لصورة جميلة للحاكم يعفّ عن أموال رعيته ، زاهداً فيها، فليقتد الناس به في هذا وليحبه الناس، وليجدوا فيه النموذج الصالح للمربي الفاضل، والحاكم العادل.

ولنلحظ أمراً آخر؛ كان بإمكان ذي القرنين حماية هؤلاء القوم، ويكفيهم تعب العمل وجهده. إنما اقتضى منهجه التربوي أن يورّثهم أسباب القوة، ويعلمهم كيفية الدفاع عن أنفسهم، فجعلهم يشتركون في بناء السد، وهم الذين يقيمونه، ليأخذوا الثقة بأنفسهم أنهم قادرون على حماية بلادهم[1]، وحفظ بيضتهم. فنقل إليهم خبرته، وعلمهم علمه، كي يكونوا عنصر قوة في المستقبل لا عنصر ضعف ثقيل على الدولة.

ولم ينس قبل نهاية الحدث، أن يربط كل عمل بعقيدة الآخرة، والتذكير بها، وربط النفوس إليها.

جاء في محاسن التأويل للقاسمي من فوائد القصة ودروسها: «الإعلام بالدور الأخروي، وانقضاء هذا الطور الأولي، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي، والنعيم السرمدي، ولذا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: من الآية٩٨)»[2].

والداعية المتفوق من يخدم الناس بشؤونهم الخاصة ليقربهم من دعوته، ويسهل عليه بعد ذلك دعوتهم إلى عقيدته.

فها هو ذو القرنين يبني لهم السد الذي طلبوه، ولعمري ما أشد امتنانهم له بعدما

---

(١) فقه النصر والتمكين، ص١٧٦-١٧٧ .

(٢) محاسن التأويل ١١/٤١٠٦، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار أجياد العربية، القاهرة ١٩٥٧م .

أعطاهم الأمن الذي فقدوه! وما أقربهم عندئذ من الاستجابة لدعوته، واعتناق عقيدته، ليكونوا له جنداً مخلصين، عن حكمه ومنهجه مدافعين منافحين.

هذا غيض من فيض، ولو أني حاولت الاستقصاء والإطالة أكثر لفعلت، فإن النص القرآني غني جد غني، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المطلب الخامس

السياسة الجهادية عند ذي القرنين

تعرض الآيات -إضافة إلى ما مضى ذكره- عدداً من المعالم البارزة المتعلقة بمسيرة الجهاد عند ذي القرنين: أهداف هذا الجهاد، حدوده ، إمكانياته، وغير ذلك.

ولا شكَّ للمتأمل أن شخصية ذي القرنين هي بادئ بدئ شخصية جهادية. وأن قصته في بدء سورة الكهف تمثل عنصر الجهاد، حيث جاءت بعدما تحدثت عن عنصري العقيدة والعلم[1].

يضرب ذو القرنين مثلاً للحاكم الصالح، الذي يشرف بنفسه على تسيير الجيوش الفاتحة إلى مشارق الأرض ومغاربها، حاملة رسالة الدولة ودعوتها، مبشرة بها .

لم يكن الجهاد عند ذي القرنين وسيلة تكَسُّب، ومصدر عيش، ووسيلة تستهدف سلب خيرات الشعوب، ولم يكن تسلطاً وجبروتاً وإذلالاً لرقاب الناس، ولا عبثاً بحياتهم وأرزاقهم.

إنما استهدف الجهاد في سياسته ﷺ هدفين اثنين[2]:

---

(١) انظر قصص القرآن الكريم للدكتور فضل عباس -حفظه الله-، ص٧٥٠ . وقد جاءت قصة صاحب الجنتين تمثل عنصر العقيدة، وقصة موسى مع العبد الصالح تمثل عنصر العلم، وختمت السورة بقصة ذي القرنين التي تمثل عنصر الجهاد.

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦. ص١٤٠ وما بعدها .

أولهما : إعلاء كلمة الله ، ونشر عقيدة التوحيد في كل مكان :

وهذا يمثل كل رحلاته الجهادية، التي استهدفت أولاً نشر عقيدة التوحيد، ونشل الناس من وحل الشرك وظلماته، إلى سمو التوحيد ونوره. لذلك أعلن دستوره أينما حل : ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف:٨٦-٨٨).

وثاني هذه الأهداف: حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة[١]. وتحطيم الأنظمة الطاغوتية، التي تحول بين الناس وبين أمنهم أو اعتناقهم دين الله.

ويمثل الهدف الثاني رحلته الثالثة وقصته مع القوم المتأذين من طغيان يأجوج ومأجوج ، فأمنهم من بطش يأجوج ومأجوج ببناء الردم المسلح بالحديد والنحاس.

ونقطع بأن هذه الرحلات الجهادية الضخمة تحتاج إلى إمكانيات ضخمة للقيام بها ؛ إمكانيات علمية ، ومالية ، وإدارية ، وتموينية ، وقدرات قتالية متميزة، وهمم تناطح السحاب.

وهذا ما كان ذو القرنين يوفره بالنسبة للجهاد ، بحيث تسخر الأسباب لخدمة الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف:٨٤-٨٥) ، فهذه الأسباب إنما اتبعت لتخدم الجهاد، الذي تمثله شخصية هذا الحاكم الصالح.

والذي نلمحه في سياسة ذي القرنين الجهادية أن جهاده ليس حرباً دفاعية تهدف إلى حماية الدولة المؤمنة فحسب -كما ينسب البعض إلى طبيعة الجهاد-[٢] بل هي

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٤ .

(٢) يرد عليهم بتفصيل الشهيد سيد قطب في ظلاله في مقدمة سورة الأنفال، ١٤٣٥/٣.

حرب مبادأة بعيداً عن أرض الدولة تهدف إلى نشر الدعوة الإيمانية - كما سبق وأشرنا-.

ونلمح -أيضاً- أن جهاده هذا لا تحده الحدود، أعني: إنه ليس حرباً وطنية، ولا قومية، ولا إقليمية، إنما هو جهاد يستهدف تحرير الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض.

ويظهر هذا في رحلاته في مشارق الأرض ومغاربها، ولقائه في كل ذلك بأقوام مختلفين في العرق وفي اللغة وفي التفكير وفي المشكلات. كل هذا الخلاف العرقي والجغرافي، والجهاد هو الجهاد، والدعوة هي الدعوة، لم تُعن بقوم دون قوم، ولا بأرض دون أرض.

ونلمح -إضافة إلى ذلك- أن هذا الجهاد، ليس شغوفاً بسفك الدماء، ولا بالتنقيب عن الحروب، وإنما يكفيه تحقيق هدفه، وإليك البيان:

اشتكى القوم المتأذون من يأجوج ومأجوج، وطلبوا من ذي القرنين أن يبني لهم سداً ليحميهم من إفساد أولئك المفسدين.

والذي كان منه أنه استجاب لطلبهم في بناء السد، وهي وسيلتهم المقترحة لصد فساد يأجوج ومأجوج.

ولم يسلك ذو القرنين وسيلة قتال يأجوج ومأجوج، وهذا قد يكون مردّه إلى أن قتالهم لا يستأصل قدرتهم على العدوان، أو أن مفاسده أكثر من مصالحه، أو لأن بناء السد يكفي لتحقيق مقصود المستضعفين. وهو منع هجمات يأجوج ومأجوج عليهم، وهذا هو المطلوب، وبه يحصل المقصود[1]. ولعل هذا الأخير هو الأنسب والأوجه، والحاصل: أن من سياسة ذي القرنين الجهادية -أيضاً- أن يدفع الشر

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، ١/٥٢٣.

بأيسر ما يندفع به. فلما كان من الكافي لسد باب الشر أن يقام السد، قام به ولم يكلف جيشه ويلات الاشتباك مع يأجوج ومأجوج.

وهذا الذي ذكرناه بعض معالم السياسة الجهادية عند ذي القرنين، كما يلوح من آيات سورة الكهف، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الثاني

الحاكم الطاغية

في القصص القرآني

«فرعون»

ويحتوي على تمهيد وفصلين:

الفصل الأول: طبيعة الحاكم ونظام حكمه.

الفصل الثاني: سياسة فرعون في إدارة البلاد .

تمهيد

إن القارئ لكتاب الله عز وجل ليلحظ كثرة ذكر قصة موسى وفرعون، موسى النبي المرسل من الله رب العالمين، الداعية المؤيد الملهم، وفرعون الحاكم الطاغية المستبد المفسد.

وإن آيات القصص القرآني لتصور لنا شخصية فرعون تصويراً دقيقاً، يمتد إلى تصوير خلجات نفسه، وتفاعل مشاعره ، وخبث طويته، فضلاً عن تصوير مواقفه الظاهرة، وتصريحاته الغريبة!

لا بدَّ لنا -ونحن نقرأ القرآن- أن نتأمل في السبب الذي لأجله كان كل هذا الاهتمام القرآني بتلك الشخصية، التي تمثل نموذج «الطاغية» .

إن فرعون ليس فرداً مات وانقضى أثره، وليت الأمر كذلك، بل إنه ظاهرة، نعم إن فرعون يمثل ظاهرة لا يكاد يخلو منها زمان على وجه الأرض. ولذلك أكثر القرآن من ذكره، واستعراض مواقفه، بل إننا نقول: إن ذكر فرعون في القرآن يساوي وجوده في الواقع.

فما أجدرنا أن نقف بين يدي القرآن، ننعم النظر في آياته الكريمات؛ نستجلي صورة هذه الشخصية للحاكم الطاغية، نبين فيها صفاته، وندرس سياساته في إدارة البلاد، والحكم بين العباد، نعم، ونفهم طبيعة هذا النظام الفاسد الذي أقامه هذا الطاغية، وطبيعة علاقته بشعبه، وعلاقة شعبه به.

ويكفينا في هذا الباب أن ندرس هذه الشخصية -شخصية فرعون- كنموذج للحاكم الطاغية، إذ إنه يمثل هذا الصنف جميعه من الحكام ، فهو -كما ذكرنا- ظاهرة.

وسنتناول في هذا الباب شخصيته من حيث: صفاتها، وسياساتها، وطبيعة النظام الذي أقامه -إن شاء الله تعالى-.

وقبل البدء بالفصل الأول من هذا الباب، ينبغي أن نبين أن اسم فرعون، ورد في القرآن أربعاً وسبعين مرة، في ست وعشرين سورة[1].

ولا شكَّ أن هذا العدد الهائل من مرات ذكره، يدل على اهتمام القرآن بتوضيح شخصيته، وتصويرها تصويراً دقيقاً -كما سبق وأشرنا-.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن «فرعون» ليس اسماً لشخص معين. هو لقب لكل من حكم مصر في تلك الفترة.

و« فرعون» اسم أعجمي، كما ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته[2]. وعلى هذا فليس له اشتقاق نبحث عنه في العربية.

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أن قصة موسى -عليه السلام- قد عايشت فرعونين، لا فرعون واحداً، الأول: هو الذي ولد موسى في زمانه وتربى في بيته، والثاني: هو الذي توجه إليه وعرض عليه دعوة الإسلام، وطلب منه تخليص بني إسرائيل، وهو الذي غرق في نهاية القصة[3].

وسواء أكان من في القصة فرعون واحداً أم فرعونين اثنين، فإن النتيجة واحدة، وهي أن كل طاغية هو فرعون، حتى لو تعددت الشخصيات، فإن طبيعتها واحدة لا تتغير.

* * *

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٥-٥١٦.

(٢) المفردات، ص٦٣٢.

(٣) فرعون في القرآن، أو الأعلى المودودي، ترجمة وتعريب: أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، ط بدون، ص١١.

الفصل الأول

طبيعة الحكم ونظام حكمه

وفيه:

المبحث الأول: الصفات الشخصية لفرعون.

المبحث الثاني: طبيعة الدولة الفرعونية .

المبحث الأول

الصفات الشخصية لفرعون

ويحتوي على المطالب التالية:

المطلب الأول: العلو والطغيان .

المطلب الثاني: سوء الخلق وسرعة الغضب وضعف الحجة .

المطلب الثالث: العناد وعداء الحق.

المطلب الرابع: اضطراب التفكير وانعكاس المنطق.

المطلب الأول

العلو والطغيان

لعل نقطة المحور في شخصية فرعون هي هذه الصفة المقيتة، التي وصفه الله سبحانه بها، وهي علوه وطغيانه في الأرض بغير الحق.

وهذه الصفة ظاهرة في حواره وأسلوب خطابه -الرئاسي-، وسنأتي على تفصيل صفته في كلامه ومواقعه بين طيات الصفحات القادمة -إن شاء الله تعالى-.

يصفه الله جل وعلا بقوله: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: من الآية٨٣)، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: من الآية٤)، ووصفه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: من الآية٣١).

ومعنى علوّه في هذه الآيات أنه عات شديد العتو، مستبد قوي القهر في أرض مصر، فالمراد بعلوه قهره واستبداده، كما حكى الله عنه[1] بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (لأعراف:١٢٧).

انظر أسلوب خطابه وكلامه: ﴿سنقتل﴾.. ﴿ونستحيي﴾.. ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾، هكذا نون العظمة، والفوقية القهرية التي يتبجح بها، تعكس مرض هذه النفس المستكبرة.

يقول ابن عاشور: «ومعنى العلو هنا الكبر، وهو المذموم من العلو المعنوي، كالذي في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٨٩/١١.

فَسَادًا﴾ (القصص: من الآية٨٣) ، ومعناه: أن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره، ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار بمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه»[1].

ولما جاء موسى عليه السلام بدعوة الحق ، ما كان منه عليه لعنة الله إلا أن تكلم معه بفوقية ممجوجة، وتكبر بغيض ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء:١٨-١٩).

هذا الأسلوب المقيت الذي يزدري فيه فرعون من حوله من الناس وينظر إليهم نظرة فوقية متعجرفة.

لقد نسي فرعون -إذ آتاه الله الملك- أنه مخلوق عاجز، فعلا على عباد الله وصال وجال، وادعى ما لم يكن له أن يدعيه، ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٣٩) فساقه علوه هذا، وكبر نفسه إلى الطغيان، ومن ثم كان هذا تعليل بعث موسى إليه.

قال الله سبحانه مخاطباً موسى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (طه:٢٤). وقد تكرر وصفه في القرآن بالطغيان مرات، مما يدل على رسوخه فيه، وكونه صار صفة ثابتة مؤكدة له.

لاحظ توكيد نسبة فعل الطغيان إليه بـ (إن) المؤكدة . مما يوحي بما ذكرنا أخيراً.

قال ابن فارس: «طغى: الطاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح منقاس، وهو مجاوزة الحد في العصيان، يقال: طغى السيل؛ إذا جاء بماء كثير»[2].

ففرعون بما في نفسه من كبر وعلو قد طغى وجاوز كل حد ووصل إلى حد الإسراف،

---

(١) التحرير والتنوير ، ١٠/٦٦ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، ص٦١٩ .

فوصفه الله في مواضع أخرى به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: من الآية٨٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: من الآية٣١).

قال الإمام الرازي: « ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: من الآية٨٣) قيل: المراد: أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور»[1].

فإسرافه الذي تمثل في سلوك أي طريق من أجل حصوله على مقصوده، حتى ولو كان قتل الناس وتعذيبهم، أو كان اتهام الأبرياء واعتقالهم، أو كان ادعاء الألوهية والربوبية، إنما نتج عن علوه وكبره؛ ولذلك عُنْونَت رسالة موسى إليه، بقوله تعالى على لسان موسى يخاطب فرعون وقومه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان:١٩). وهذا المختصر لدعوة موسى هو الذي لمس الأوتار الحساسة في نفس فرعون المتكبر، وعين محور الصفات الذميمة في شخصية الطاغية.

ومرض العلو هذا، قد تسرب إلى نفس فرعون لما وجد بيئة خصبة، وجواً ملائماً.

وجد نفساً قابلة لأن ترى لنفسها الحق كل الحق في أن تعلو على الناس، تغمط حقوقهم وتقتل إرادتهم، وتسلب حريتهم، وجدت في هذا بغيتها، وروت به ظمأها، فإذا ما أتيح لهذه النفس أن تتقلد منصب الحكم؛ ظهر المرض وتجلت الأعراض، وولد الطاغية في عالم الواقع.

وهذا السبب ذاته -الكبر والعلو- هو الذي حال بين فرعون وقومه وبين الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: من الآية١٤).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (المؤمنون:٤٥-٤٨).

---

(١) تفسير الرازي، ٦/٢٨٩.

انظر ما الذي استنكره فرعون وقومه في دعوة موسى: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فما حملهم على تكذيب دعوة موسى إلا كبر في أنفسهم وعلو ما هم ببالغيه. ولهذا فإنه لا يخفى على أهل الذوق والبلاغة ما في التعبير القرآني من سخرية واستهزاء بفرعون يتعلق بعلوه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ (يونس: من الآية٨٣) ويقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: من الآية٤) فهو عال لكنه مهما علا ﴿في الأرض﴾ لن يبارحها[1].

ويبلغ التطاول والعلو به إلى أن يعلن للناس، بصراحة عجيبة، وكبر فريد، في غفلة الجماهير اللاهية أنه ربهم، بل ربهم الأعلى ، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٣-٢٤). انطلقت منه هذه الكلمات لتجلي مرض نفسه، وانتفاخه الخادع.

ونختم كلامنا حول هذا الموضوع بعرض خطابه الرئاسي في أهل مصر، قال تعالى: :﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف:٥١-٥٣).

إن علوه وكبره المقيت يظهر في هذا الخطاب ، بل إن الغرض الأساسي للخطاب هو التبجح - بما آتاه الله بغير كسب يده- وإظهار فضله على نبي الله موسى.

أليس هذا هو ذاته منطق إبليس : ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦) ألا لعنة الله على الظالمين المتكبرين.

* * *

(١) انظر فرعون في القرآن لأبي الأعلى المودودي، ترجمة وتعريب أحمد إدريس، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ط بدون سنة النشر وبلا تاريخ، ص٣٧ .

المطلب الثاني

سوء الخلق وسرعة الغضب وضعف الحجة

إن من اتصف بالعلو والكبر حقيق أن يكون صاحب أخلاق هابطة، وتعامل مع الناس سيء.

وتعرض الآي صوراً من سوء خلقه، وقباحة طبعه، وضيق صدره، مما يجعله ذا شخصية بغيضة غير مرغوبة، لا يطيق ملازمتها إلا إنسان متملق، فاقد ماء وجهه، قد لبس ثوب الذل، إزاراً ورداء.

وسرعة غضبه مما يبرزه القرآن، انظر قوله تعالى على لسان موسى وهارون لما كلفا بحمل الدعوة إلى فرعون : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ (طه:٤٥).

وهذا الذي أبدياه وتخوفا منه، يعكس لنا صورة عما اشتهر به فرعون، حتى صار طبعاً ملازماً له، وصفة لا تكاد تفارقه.

فموسى وهارون - صلى الله عليهما وعلى نبينا وآله وسلم- لما كانا على علم بفرعنة فرعون وغطرسته. ساورهما الخوف من أن يسارع بعقابهما[1].

ويظهر خلقه هذا - سرعة الغضب- في الحوار الذي عرضته سورة الشعراء بين موسى وفرعون أمام الملأ. قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ

---

(١) فرعون في القرآن، المودودي، ص٧٨.

فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء:١٦-٢٩).

إن سرعة الغضب مستلزمة لضعف الحجة، فلولا ضحالة حجته وفراغها لما سارع إلى إظهار الغضب، وفقدان السيطرة على زمام الحوار، والبدء بالسب والشتم، ثم التهديد والوعيد. لذلك لم يملك فرعون أمام حجج موسى أي نوع من «الصمود الفكري» ، أو« الثبات البرهاني» ، بل ظهر ضعفه ولجاجته.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القصص:٣٦). وهل عدم سماعهم بهذا في آبائهم دليل يصلح للحكم بصحة أو بطلان ما جاء به موسى؟ اللهم لا.

ونلاحظ في الحوار بين موسى وفرعون في سورة الشعراء «التصعيد الساخن» من فرعون وفقدانه لزمام الحجة العلمية الموضوعية، الأمر الذي ألجأه حين شعر بالتقهقر وإفلاس الحجة إلى أن يبدأ بالشتائم وكيل الاتهامات الفارغة، ثم ينتهي بالتهديد بالسجن الطويل.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾... ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ فعندما قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ كان قد بلغ به الغضب مداه، ولجوؤه إلى التهديد بالسجن دليل على إفلاسه، وانقطاع ادعائه[1].

---

(١) نظرات في أحسن القصص، الوكيل، ٥٣/٢ .

ويمكننا أن نتصور الحالة الإنفعالية الشديدة التي وصلت بفرعون وقد أعلن السحرة إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون، أمام هذا الحشد العظيم من الناس.

لقد وقف كالمجنون يزمجر متهماً السحرة بالتواطؤ مع موسى ضده، ومهدداً لهم بأقصى أنواع التعذيب الجسدي[1].

وهذا كله دليل على رسوخ هذه الصفة فيه ، وكونها طبعاً يميز شخصيته .

ومما نلحظه مما يمكن أن نذكره ضمن هذا الموضوع - سوء الخلق- ما يظهر من كلامه في بداية حديثه مع موسى.

قال تعالى على لسان فرعون يمن على موسى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨) ، يخاطب فرعون موسى: هل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟[2]. إن تربيتنا لك، ولبثك فينا سنين يقتضي منك التباعد عما يغيظ فرعون، بل يقتضي منك المسارعة إلى عبادة فرعون، والاعتراف بألوهيته[3].

إن المنة على الناس، وتذكيرهم بفخر بما لك من يد عليهم هو خلق قبيح، ينبع من نفس دنيئة، شحيحة بالخير!

لكن موسى - عليه السلام- لم يدع فرعون ليفرح بمنه، بل يسارع إلى الرد عليه بأن تربيتكم التي تمنون علي بها، هي نتيجة لاستعباد بني إسرائيل، فلولا ذاك ما

---

(١) انظر: إن فرعون علا في الأرض، للدكتور محمد أبو فارس، ص٦١، دار الفرقان ، عمان، ط١، ١٩٩٨م .

(٢) في ظلال القرآن، ٥/٢٥٩١.

(٣) قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، ص٢٥١.

ساقني الله إلى بيوتكم، فليست هذه نعمة تستحق منكم المن علي بها، بل إنكم تلامون على إذلالكم لبني إسرائيل وتقتيلكم لهم. قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء:٢٢).

وهذه الأخلاق التي اتصف بها فرعون هي نماذج عن أخلاقه الأخرى التي لم نتطرق إليها ، أو لم يتطرق إليها النص القرآني.

* * *

المطلب الثالث

العناد وعداء الحق

لقد ذكرنا في الكلام عن أول صفات فرعون، أن الكبر والعلو محور للصفات الذميمة التي جمعتها هذه الشخصية، فكان مما أنتجته من الصفات، صفة قبيحة أخرى: هي العناد، وجحود الحق وعداؤه بعد معرفته، وهذه من أركان شخصية الطاغية، ومعالمها البارزة.

إن العلو «الفارغ» الذي أحاط بشخصية فرعون، قد خوله أن يرى العيب كل العيب في اتباع الحق، والمهانة كلها في التراجع عن الباطل والاعتراف بالخطأ. بل وصل به العناد إلى أن يشهر في وجه الحق المدافع، ويعلن الحرب على رسول الله وأتباعه.

«الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه، بل لأنهم يعرفونه ، يجحدونه وقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (غافر:٢٥). استيقنته نفوسهم لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم فيقفون في وجهه مكابرين وهو واضح مبين[1]. قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل:١٣-١٤).

جاءتهم الآيات الكثيرة العدد، الكاشفة عن الحق، حتى ليبصره كل من له عينان، ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة، فهي تبصر الناس، وتقودهم إلى

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/٢٦٣٠.

الهدى، ومع هذا كله قالوا عنها: إنها سحر مبين! قالوا ذلك لا عن اقتناع به، ولا عن شبهة فيه، إنما قالوه «ظلماً وعلواً»، وقد استيقنت نفوسهم أنه الحق الذي لا شبهة فيه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: من الآية ١٤).

قالوه: جحوداً ومكابرة، لأنهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان، استعلاء على الحق وظلماً له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء والعناد الذميم[١].

فهم مع استيقانهم به إلا أن عنادهم دفعهم إلى جحده.

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي علمت علماً يقيناً أنها الآيات من عند الله، والاستيقان أبلغ من الإيقان[٢]. فالسين والتاء فيها للمبالغة[٣]. ومع ذلك لم يزدهم هذا إلا عناداً ومكابرة وعداء للحق وأهله.

ولنقف مع هذا الموقف الذي يبين عنادهم وإصرارهم المسبق على رفض الحق حتى لو جاء بكل آية واضحة بينة.

تصف سورة الشعراء اللحظات التي تسبق بدء اللقاء الحاسم بين موسى والسحرة أمام الحشد الهائل يوم الزينة.

يقول سبحانه: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ (الشعراء:٣٨-٤٠).

لاحظ قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ والسؤال الذي نطرحه عليهم: هذا في حال غلب السحرة، فإن غلب موسى أكنتم لتتبعوه؟

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/٢٦٣٠.

(٢) روح المعاني، ١٩/٢٢٢.

(٣) التحرير والتنوير، ٩/١٢٦.

يبدو أن احتمالية غلب موسى للسحرة ليست واردة أصلاً في أذهانهم، فضلاً عن اتباعه، فهم لم يذكروها في النتائج المتوقعة لهذا التحدي.

يقول ابن عاشور: «رجوا اتباع السحرة، فكان قولهم ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه، وهذا شأن المغرورين بهواهم، العمي عن النظر في تقلبات الأحوال، أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم ، ولا يأخذون العدة لاحتمال نقيضه»[1].

فليس مرادهم من هذا الكلام إلا أن لا يتبعوا موسى عليه السلام في دينه ، لكن ساقوا كلامهم مساق الكناية حملاً للسحرة على الاهتمام والجد في المغالبة[2].

والذي يبين موقفهم ويجليه قولهم: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٢) أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك، ولا نصدق. وهذا غاية ما يكون من العناد؛ أن يبلغ الأمر بهم إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء أنزلت عليه الآيات أم لم تنزل[3].

إنه الجموح الذي لا تروضه تذكرة، ولا يرده برهان، ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان - قطعاً للطريق على البرهان- وهي حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدفعهم الحق وتجبههم البينة، ويطاردهم الدليل، بينما هواهم ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم كله في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل[4] .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٦/٩ .

(٢) انظر روح المعاني، ٢٢٢/١٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص٣٠١ .

(٤) في ظلال القرآن، ١٣٥٨/٣ .

وهكذا، بعناد فرعون ومعاداته للحق يورد نفسه وقومه الهلاك، ويحلهم دار البوار.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ (هود:٩٦-٩٩).

* * *

المطلب الرابع

اضطراب التفكير وانعكاس المنطق

إن اضطراب التفكير وانعكاس المنطق في الحاكم بالذات يؤدي إلى آثار مدمرة، ذلك أنه بيده الأمر والنهي، وبيده الإعلام الرسمي الذي يروج منطق الحاكم واتجاهه الفكري.

أما فرعون فقد اتصف باضطراب التفكير وعكس الحقائق والمنطق، وعدم الالتزام بما يقتضيه نتاج العقل والتفكير الموضوعي السليم.

لذلك يصفه الله سبحانه بعدم الرشد: ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ (هود: من الآية٩٧)، يقال رشد أمره، أي: رشد فيه ووفق له[1] .

لم يكن فرعون رشيداً ولا موفقاً في التعامل مع الأحداث، ذلكم لأنه لم يتبع ما يؤول إليه العقل السليم ولا التفكير المنهجي الصحيح، بل اتبع الكبر الذي ملأ نفسه، والهوى الذي أخذ بزمام عقله يوجهه حيثما يريد ، ويذهب به حيث يشاء.

انظر هذا المنطق الذي يستدل به فرعون على كونه الحقيق بالعبادة، وعلى كون موسى مبطلاً، لم يأت بشيء.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف:٥١-٥٣) .

إنه يتكلم -ولأول مرة - بمنطق العقل - أو قل: يتظاهر بذلك-، ويضع

---

(١) المعجم الوسيط ، ص٣٤٦ .

المقدمات العقلية التي تدل على صدقه وبطلان دعوى موسى! فما هذه المقدمات؟ وما هي هذه الأدلة؟

إنه يجعل من ملكه لمصر وحكمه لها، ومن ما أوتيه من رفاهية وأموال، دليل خيريته على موسى الفقير، ويجعل من فقره - أي موسى - وعدم مصاحبة الملائكة له وعدم كونه شخصية بارزة على الصعيد «الرسمي والدبلوماسي»، دليلاً على كذبه وادعائه.

إن هذه المقدمات التي يجعلها فرعون أدلة عقلية ومسلمات، لا تصلح للاستدلال بها على شيء سيقت لأجله، لكنه تعطيل للمنطق، وتزوير لمسلمات العقل الصحيح.

ثم هو ذا، يأمر وزيره هامان، بأن يبني له صرحاً عالياً، لماذا؟ ليتأكد من صحة دعوى موسى بألوهية الله! إنه الاضطراب في التفكير والانعكاس في المنطق. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ (غافر: من الآية٣٦-٣٧).

وتظهر نتائج انعكاس المنطق لدى فرعون بخوفه من موسى أن يبدل دين القوم أو أن يظهر الفساد فيهم.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦).

إنه المنطق الفرعوني يقول: إن موسى الذي جاء داعية التوحيد والتحرير، هو مفسد يخشى من خطره، أما فرعون الذي سام الناس خسفاً، وقتل آلاف الأطفال الرضع، وأذل رقاب الناس، وفرقهم شيعاً وأحزاباً هو المصلح[1].

---

(١) إن فرعون علا في الأرض، للدكتور أبو فارس، ص٤٤.

فرعون، حريص على دين قومه ، ويخاف من موسى على دينهم، ويعتبره خطراً مدمراً على الدين يريد تبديله وتغييره، وهذا هو الفساد بعينه، فموسى - عليه السلام- مفسد مخرب مدمر، خطر على الدين والإصلاح والخير، ولذلك لا بدَّ أن يقتل للحفاظ على الدين والصلاح![1].

ومعنى هذا أن فرعون هو حامي الدين، وموسى هو المحارب للدين!! ودينهم الذي يخشى عليه فرعون هو القائم على عبادة فرعون وتأليهه وتعبيد الناس له، والإيمان بكونه إلهاً ورباً، وهذا هو الحق والصلاح والخير! أما ما ينادي به موسى فإنه خطر على الدين، والذي ينادي به هو توحيد الله وعبادته وحده، وتعبيد الناس له وحده، والاعتقاد بأنه وحده هو رب العالمين.

هذا هو الخطر والدمار الذي يحمله موسى، وهو بهذه الدعوة يريد تبديل دين الناس الصحيح وإظهار الفساد في الأرض!![2].

هذا هو المنطق الفرعوني، وهذه نتائج «الموضوعية التفكيرية» عند الحاكم الطاغية: فرعون.

* * *

(١) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ٢/٤٨٧ .

(٢) القصص القرآني ، د.صلاح الخالدي ، ٢/٤٨٧ .

المبحث الثاني

طبيعة الدولة الفرعونية

ويحتوي على المطلبين التاليين:

المطلب الأول: أعمدة النظام الفرعوني .

المطلب الثاني: طبيعة المجتمع الفرعوني وأثره في تشكيل شخصية فرعون .

المطلب الأول

أعمدة النظام الفرعوني

من خلال الآيات الكثيرة التي عرضت قصة موسى وفرعون، نستطيع أن نلمح أعمدة النظام الفرعوني القائم في مصر في تلك الفترة، والتي أنشأها فرعون وفق هواه وانبثاقاً من شخصيته.

ولا شكَّ أن صراعه مع دعوة الحق، ممثلة بموسى ومن معه، أظهر أركان هذا النظام، إذ إن طبيعة هذا الصراع أخذت منحىً سياسياً بالإضافة إلى المنحى العقدي، الأمر الذي أرغم فرعون على استخدام جميع الأسلحة فيها، واستنفار أجهزة الدولة جميعها . فما هي أعمدة هذا النظام، وما طبيعة عمل كل منها؟

نبدأ أولاً برأس الهرم التنظيمي، القائد الأعلى العام، والحاكم مطلق اليد في دولته، نستطيع أن نقول: إن فرعون كان يحيط نفسه بهالة من القدسية، ويعطي نفسه الحق في العبث والتدخل في كل مرافق الدولة وأجهزتها، فهو الآمر الناهي، ليس هناك قانون يسري عليه، ولا دستور يحدد ماله وما عليه، أو بعبارة أخرى هو صاحب «السلطة المطلقة». تلك السلطة التي لا يخضع أي تصرف لها للنقد أو المعارضة، ولا يوجد كوابح دستورية تنظم عملها، وهي السلطة ذات السيادة الكاملة أي صاحبة الحق في إصدار ما تشاء من القرارات دون مساءلة[1].

لذلك قال الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طه:٤٣).

---

(١) الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، د.إمام عبد الفتاح، مؤسسة الرسالة، الصفاة، الكويت، ط بدون، ١٩٩٤م. ص٦٧ .

لأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في تلك الدولة، وصاحب القرار الوحيد في ذلك النظام.

ثم يتبع هذا المنصب عدد من المناصب والأجهزة التي - حسب تصورنا- تتبع مباشرة لإشراف فرعون الطاغية.

بدءاً بالقيادة السياسية والإدارية، ووظيفتها تنفيذ الأوامر الفرعونية، وترجمة القرارات الرئاسية إلى عمل واقعي.

ويمثل هذه القيادة السياسية: «هامان»[1]. قال سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص:٥-٦).

و«هامان» هو وزير فرعون[2] كما ذكر المفسرون وكما تشير الآيات.

وقول المفسرين: إن هامان كان وزيراً لفرعون، لا يعني أن هامان كان وزيراً بمفهوم هذا الاصطلاح اليوم، ولكن الوزير هنا، وفي اصطلاح الدول القديمة يعني: «رئيس الوزراء» في أيامنا[3].

ويذكر هامان مرة أخرى في معرض محاولة فرعون لاختراع أمر يتلهى به الناس عن سماع كلام الرجل المؤمن في سورة غافر.

قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ (غافر: من الآية٣٦-٣٧).

---

(١) انظر القصص القرآني، د.صلاح الخالدي، ٢/٤٠٠ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٢/١٣٩.

(٣) فرعون في القرآن، للمودودي، ص١٣٨ .

إذن فوظيفة هذا الوزير تنفيذ أوامر ورغبات البلاط الفرعوني، والقيام بها بما يحقق توجهات فرعون.

فإذا ما تجاوزنا هامان، وجدنا اسماً ثالثاً يظهر على ساحة الأحداث. قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر:٢٣-٢٤).

هذه الآية تبين أن قارون كان جزءاً من النظام الفرعوني، بدليل ذكره مع فرعون الحاكم الأول، وهامان الوزير، وبدليل مشاركته في صناعة القرار، حيث بعث موسى إلى ثلاثتهم، لكونهم - ولا شكَّ- رؤوس هذا النظام، صناع القرار: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ (غافر: من الآية٢٥) أي: قال ثلاثتهم: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (غافر: من الآية٢٥).

وما نعرفه عن قارون، هو ما قصه الله سبحانه علينا في آخر سورة القصص.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص:٧٦-٨١).

هذا ما نعرفه عن قارون، والآيات مليئة بالإشارات واللطائف، ونكتفي منها في مقامنا هذا بالقول بأن قارون أصله من بني إسرائيل، لكنه آثر التحزب إلى النظام الفرعوني القامع لشعبه، المستذل له، وأن قارون هذا قد تميز بثرائه الفاحش، وأمواله الكثيرة. الأمر الذي يجعلنا نرجح أنه كان يمثل «القيادة المالية والاقتصادية»[1] في النظام الفرعوني. التي تمول النظام، وتشكل وزنا مالياً ضخماً له ولمشاريعه.

ونلحظ -أيضاً- وجود جهاز إعلامي فعال في الدولة، له وظائف عدة نستطيع أن نستخرجها من الآيات.

الوظيفة الأولى: تمجيد الحاكم الطاغية فرعون، وتسليط الضوء عليه، ونقل خطاباته.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥١-٥٢).

وغالباً ما كان الشكل العملي لهذه المناداة هو نشر ما يريده فرعون في المدن والقرى عن طريق منادين[2]، ينادون في الناس ويجمعونهم، وهذا أحد أشكال الجهاز الإعلامي ووسائله.

الوظيفة الثانية : توجيه الرأي العام باتجاه معين، وتبني رأي النظام.

وتظهر هذه الوظيفة في الحملة الإعلامية الضخمة التي قام بها الجهاز الإعلامي في الدولة الفرعونية قبيل «المباراة» المرتقبة بين موسى والسحرة.

---

(١) القصص القرآني، للخالدي، ٢/٤٠٠ .

(٢) فرعون في القرآن، ص١٥٦ .

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الشعراء:٣٨-٤٠).

قال الإمام الألوسي: «﴿وقيل للناس﴾ استبطاء لهم في الاجتماع، وحثاً على التبادر إليه ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ في ذلك الميقات، فالاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال»[1].

فالجهاز الإعلامي يحث الناس ويحمسهم لحضور هذا التحدي - الذي أقامه النظام-. وهو في الوقت ذاته لا ينقل إلا وجهة النظر الرسمية، فيوجه الرأي العام في الدولة إلى تبنيه : ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

ومن الوسائل الإعلامية التي توجه الناس نحو النظام وقتذاك : السحرة[2].

فالسحرة أداة النظام في التأثير على الناس ، قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (لأعراف: من الآية١١٦).

وها هو الجهاز الإعلامي ينقل وجهة نظر النظام في موسى ومن معه، ويوجههم باتجاه معين، يفسر للناس الخطوة الأخيرة، التي سيقوم بها النظام، وهي الضربة العسكرية القاصمة لموسى ومن معه.

قال سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ (الشعراء:٥٣-٥٦).

يقول أبو الأعلى المودودي في كتابه «فرعون في القرآن»، تعليقاً على هذه الآيات: «ربما أعلن فرعون عبر إذاعة سلطته بياناً ألقاه هو بنفسه أو ألقاه وزير داخليته؛ أن هذه جماعة قليلة من المتطرفين، وأن القاعدة الجماهيرية العريضة بخير، ومؤيدة لنظام

---

(١) روح المعاني، ١٠٣/١٩ .

(٢) القصص القرآني، للخالدي، ٤٠٠/٢ .

حكمه باستثناء هذه الفئة الباغية التي خرجت على السلطة الشرعية للبلاد ، ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي أنهم يسببون إزعاج السلطات، ويخلون بالأمن العام في البلاد، ونظامنا قائم على أساس الحذر من مثل هذه الشرذمة التي تهدد منجزاتنا المباركة»[1].

نعم، هكذا ينقل الجهاز الإعلامي وجهة النظر الرسمية في دولة فرعون، وهكذا يوجه الرأي العام.

الوظيفة الثالثة: إلهاء الناس عن القضية الأساسية.

ويمثل هذا أمر فرعون ببناء الصرح: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ (غافر: من الآية٣٦-٣٧).

يبدو أنها لعبة إعلامية خبيثة من فرعون، يريد بها إشغال الناس وإلهاءهم عن القضية الأساسية التي يطرحها الرجل المؤمن، يريد أن يصرفهم عن منطقه الدعوي، وذلك بأن يتابعوا بناء الصرح، والمراحل البطيئة التي سيمر بها، وعندها تفقد دعوة الرجل المؤمن حيويتها وتوهجها، وتتحول إلى قضية هامشية ثانوية باردة ثم يتناسونها بعد ذلك[2].

هذه وظائف الجهاز الإعلامي في الدولة، ونحن نلحظ أنه يشكل ركنا أساسياً من أركان النظام.

ويلحق بهذه الأركان - إن جاز لنا أن نلحقه- الجيش والقوى الأمنية، وهذا الركن يحتل حيزاً كبيراً في دولة «شرطية» كدولة فرعون، فهو الذي ينفذ الأوامر الفرعونية بتقتيل أبناء بني إسرائيل، واستعبادهم، وهم الذين حشدهم فرعون

---

(١) فرعون في القرآن، ص١٢١ .

(٢) القصص القرآني، للخالدي، ٢/٥٠٠ .

لتنفيذ الضربة العسكرية الأخيرة لموسى ومن معه.

ولا ننسى أن نذكر فيما نذكر من أركان النظام: المجلس الاستشاري! نعم المجلس الاستشاري الفرعوني، وهو بلا شك مجلس صوري ليس له أن يغير قراراً أو يناقش فكرة تناقض ما يهواه فرعون.

وهو الذي كان يخاطب فرعون ويخاطبه فرعون في أكثر من موقف.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ (لأعراف: من الآية١٢٧). ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾(غافر: من الآية٢٦) .

وغير ذلك، ونأتي - إن شاء الله- على تفصيل ما يتعلق بهؤلاء عند بحثنا في دور الملأ، في مطلب «طوائف الناس في المجتمع الفرعوني».

* * *

المطلب الثاني

طبيعة المجتمع الفرعوني وأثره في تشكيل شخصية فرعون

لقد وصف الله سبحانه المجتمع الفرعوني بالظلم، فقال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٠-١١).

إن المجتمع الفرعوني في نفسه هو مجتمع ظالم سخيف، لكن ما سبب وصفهم بهذا الوصف؟ وما طبيعة علاقة هذا المجتمع بفرعون؟ وهل لذلك علاقة بتسميتهم «ظالمين»؟ وما هي طوائف هذا المجتمع؟ وما حقيقة وجود كل منها؟

قبل البدء بالإجابة عن هذه التساؤلات، ينبغي أن نبين الأصل في العلاقة بين الحاكم وشعبه.

فالشعب هو البنية التحتية التي تمثل الفكر والثقافة الخاصة بهذه الدولة، ومنها تنبع سياسات الدولة وتوجهاتها، وبها وعلى ضوئها تتخذ القرارات.

والدولة هي البنية الفوقية التي تمثل إرادة الشعب ، وتستمد قوتها وحياتها منه .

ولاستمرار الحياة بشكل جيد وصالح لابد من انسجام بين الزوج الأول، الممثل بالشعب الذي يقوم بوضع الجنين في رحم الدولة، والزوج الثاني: الممثل بالدولة التي تقوم باحتضان الجنين ورعايته والاعتناء به دون أن تشوهه أو تقتله، وإنما يبقى سليماً معافى بأنسجته الثقافية وجيناته الوراثية، فتستمر العلاقة المتبادلة بين الزوجين بشكل متلائم ومنسجم[1].

---

(١) انظر الألوهية والحاكمية، دراسة علمية من خلال القرآن الكريم، سامر اسلامبولي، الأوائل للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ ، ٢٠٠٠م، ص١٥٤.

فكيف كان الوضع في المجتمع الفرعوني؟

لقد انقلبت الوظائف فأصبحت الدولة هي القوة الفاعلة، والشعب هو القوة المنفعلة، وأصبح الشعب كله موظفاً عند الدولة ينفذ إرادتها ورغبتها، ليس له حول ولا قوة، ومن الطبيعي جداً عندما يتنازل الشعب عن دوره ووظيفته الأساسية الفاعلة ويصبح قوة منفعلة بغيره أن يتجرأ الحاكم ويدعي ما يشاء، لأنه يعلم علم اليقين عدم وجود معارض أو جهة تقول له: لا! إذ إن القوة الفاعلة أصبحت بيده عصا يضرب بها شعبه[1].

وهذا الشعب الضعيف الذي تنازل عن دوره الأساسي هو السبب الرئيسي والعامل الأهم من عوامل صناعة فرعون، وتشكيل شخصيته[2].

إذ إن فرعون كان يعلم حقيقة شعبه وما ينطوي عليه في نفسه من الذل والخنوع والتفكك الاجتماعي، بجانب أن طغيان فرعون وجبروته وغروره لم يكن له حدود في نفسه، فلم يستطع أن يلجم نفسه عن التكبر والتمادي في الباطل، فادّعى الربوبية والألوهية بتدليس خبيث، وسكوت عنه في نفسه ناتج عن سكوت شعبه، وعدم سؤالهم ومحاسبتهم له[3].

لذلك يصفهم الله سبحانه بالظلم، بل ويقدم الصفة ثم يعينهم[4]: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ (الشعراء: من الآية ١٠-١١).

فالمجتمع السخيف الفاسق يولد فرعون، وتتحول الدولة من قوة منفعلة إلى قوة فاعلة، ومن مؤسسة إلى شخص الحاكم وأسرته، ويصبح الحاكم - الملك الرب

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٤.

(٢) انظر: قصص الأنبياء للشعراوي، ١٤٨٨/٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٧.

(٤) في ظلال القرآن، ٢٥٨٩/٥.

الأعلى- هو الدولة نفسها، وهو إله الجميع حتى لمن حوله من الوزراء وغيرهم، فهم ليسوا إلا عبيداً لهم حظ عنده بما بذلوا أو يبذلون في تعبيد الشعب للطاغية، فهم يشرفون على تسبيحه وتحميده وتمجيده ، فلهم الرضى وزيادة فضل الموائد، ولهم أن يستعبدوا الشعب باسم الحاكم العظيم، ويصبحوا مستبدين صغاراً ضمن الاستبداد الكبير[1].

تأمل قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف:٥٤).

وجدهم لا وزن لهم، ولا وزن لعقولهم، لا وزن لرجولتهم، فهم ليسوا رجالاً في نظره، لأن الرجال لا يستخفون، ولا يقبلون أن يستخف بهم أحد[2]، فهم قد أطاعوه رغم خطابه الكريه المقيت السابق: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف: من الآية٥١).

إن مجتمع العبيد مجتمع الذل والخنوع والخضوع ، المسلوب الإرادة، الذي يباع ويشترى، مجتمع يمثل العبودية بشكل اجتماعي، من الفرد إلى الأسرة، يتوارث ذلك الأبناء عن الآباء، يرضعون الاستبداد مع حليب أمهاتهم، ويعيشون الاستعباد مع آبائهم، فهم ولدوا من رحم الاستبداد إلى دنيا الاستعباد، وتفتحت عيونهم على ذلك، فأصبح الاستعباد شيئاً كامناً في نفوسهم[3]، يكبر ويكبرون به، حتى يصير وصفاً لازماً لهم «القوم الظالمين»، الذين وضعوا حق الألوهية في غير محله، فالظلم كما ذكر صاحب الكليات هو: «وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع[4].

---

(١) الألوهية والحاكمية، ص١٦٠ .

(٢) إن فرعون علا في الأرض، د.محمد أبو فارس، ص٢٠.

(٣) الألوهية والحاكمية، ص١٥٩.

(٤) الكليات ، ص٥٩٤ .

فالشعب الفرعوني وضع الألوهية وحق الطاعة في غير موضعها، فعبدوا فرعون وأطاعوه من دون الله، والنظام الفرعوني تصرف في حق غيره، فسلب إرادتهم، وصادر حريتهم ، وكل من الشعب والنظام تجاوز حد الشارع، وكل كانوا ظالمين.

والحاصل أن طبيعة المجتمع الفرعوني، وضعفه وسخفه وفسقه، كل ذلك كان من أهم عوامل صياغة شخصية فرعون.

وليتضح هذا حق الوضوح، فلنحاول أن نلحظ طوائف هذا المجتمع ومكوناته، ونستطيع أن نقسم طوائف هذا المجتمع إلى ثلاث طوائف رئيسية:

الطائفة الأولى: وهم الملأ، قال الفيروزآبادي في كتابه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» : «الملأ - بالتحريك-: الجماعة، قال: أبو الغنوي:

وتحدثوا ملأ لتصبح أمنـا عذراء لا كهل ولا مولود

أي ثاروا مجتمعين متمالئين على ذلك ليقتلونا أجمعين، فتصبح أمنا كأنها لم تلد.. والملأ -أيضاً- الأشراف، ومنه قوله ﷺ: «يا ابن سلمة أولئك الملأ من قريش»[1].

وجمع الراغب الأصفهاني بين المعنيين، وبين السبب الذي لأجله سموا بذلك، فقال : «الملأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً»[2]. وهؤلاء «الملأ» كانوا - على ما يبدو- قسمين:

الأول: زعماء الباطل، وأعمدة النظام الكبار، كهامان وقارون، وهؤلاء كانوا أداة النظام في تعبيد الناس لفرعون.

الثاني: من دونهم من المقربين من النظام، الذين يستفيدون من وجوده، أو قل: يرتبط وجودهم بوجوده، ومنهم من أطلقنا عليهم في المبحث السابق اسم المجلس الاستشاري.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، ٤/٥١٧، المكتبة العلمية، بيروت.
(٢) المفردات، ص٧٧٦.

وهؤلاء الملأ هم الذين يزينون لفرعون سوء عمله، ويمضون حياتهم راكعين على أعتاب بابه، ليتصدق عليهم بنظرة رضى، أو بشيء من حطام الدنيا.

وهم الذين وقفوا يدفعون دعوة الله بكل قوتهم خوفاً من زوال سلطتهم، ومصادرة امتيازاتهم.

قال الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (الأعراف:١٢٧). إنهم يستشيرون فرعون للقضاء على الدعوة مظهرين ولاءهم لبلاط الحاكم وخوفهم على أمن البلاد! ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ (الأعراف: من الآية١٢٧) .

هؤلاء هم الذين يسارعون إلى إرضاء الطاغية بالمشورة التي تستهويه، قال سبحانه : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٧).

هو يملي عليهم ما يجب أن يكون عليه طبيعة الرد، فيذكر حقيقة هذا الداعية ﴿لساحر عليم﴾ ويذكر هدفه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾، وهم يجتهدون في نصحه.

فليس لهم أن يخالفوه فيما قال، أو يناقشوه فيما رأى ، لأنهم يعلمون -من جهة- مصير معارضيه، ويعلمون من جهة أخرى «نِعَم» هذا النظام عليهم، وما حصلوه من امتيازات في وجوده. ولهذا سارعوا في إرضائه وأشاروا عليه أن يجمع سحرته من أنحاء البلاد[1].

---

(١) انظر : نظرات في أحسن القصص، ٢/٧٥ .

ولما تنازع السحرة قبيل التحدي، هب الملأ منهم لشحذ الهمم، وإثارة الآخرين، قال جل شأنه: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ (طه:٦٢-٦٤).

«قالوا»، لابد أن يكون القائلون هنا حماة النظام الفرعوني، الملأ المتحمسون له المدافعون عنه، الذين كانوا على استعداد للاشتراك في كل لعبة تحاك ضد موسى - عليه السلام- [١]، وكلامهم هذا يوضح أموراً، وله دلالات، وفيه ملحوظات.

جاء في كتاب «فرعون في القرآن» لأبي الأعلى المودودي -رحمه الله- تعليقاً على كلامهم السالف ما نصه: «والنص القرآني هنا يوضح لنا خوف السلطة الحاكمة من أن تقضي دعوة الإسلام على ما هم فيه من نعيم وبذخ يعيشون فيه؛ أساسه معاناة الشعب والمستضعفين.. ولفظ ﴿طريقتكم المثلى﴾ يضم أكثر من معنى، وأعمق من إشارة وفكرة، ففيه: أن الطبقة الحاكمة تعتقد أن نظامها هو النظام الأمثل. وفيه: أنهم يعيشون عيشة مثلى بصرف النظر عن طريقة عيش رعاياهم... وفيه: عدم رضاهم بالعيش كما يعيش رعاياهم ، وفيه: أن الشيء الوحيد الذي يدافع عنه أمثال هؤلاء ليس مصلحة دين الله، ولا حتى مصلحة أرض الوطن، بل طريقة عيشهم وعزهم ونعيمهم»[٢].

هذه هي الطائفة الأولى، وهذا الذي ذكر هو منهجها وهدفها وتأثيرها.

الطائفة الثانية: عامة الناس في المجتمع الفرعوني.

وهؤلاء «الهمج الرعاع». كما يقال. وهم جماعة من الناس عبارة عن آلات

---

(١) فرعون في القرآن، ص٦٩.

(٢) فرعون في القرآن، ص٨٥ .

مستسلمة، لا تحس بالظلم، ولا تدرك أنها مظلومة، فهي تتحرك تحرك التبعية والطاعة دون تدبر، ودون وعي، بعد أن سلب فرعون منها تدبرها وعقلها ووعيها، وهؤلاء من يقول الله سبحانه عنهم: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (الأحزاب:٦٧) .

ولا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم، وإنما هي الطاعة والتبعية والفرعونية تحاول أن توسع هذا القسم من الناس، وكلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر قدمت المجتمع نحو الدمار والانحلال خطوة بعد خطوة[١] .

ومن هؤلاء فئة من أتباع الحق اسماً ، يدعون الإيمان بالحق، ولكنهم يعتبرون السعي لإقامة سلطة الحق، ومواجهة سلطة الباطل وسيطرته أمراً غير واجب، أو عبثاً بلا جدوى، أو حمقاً وهوساً، ويبذلون جهدهم ليثبتوا بكل وسيلة أن خيانتهم هذه التي يرتكبونها في حق الحق صحيحة على حق، ويسعون أحث السعي لإخماد تلك اليقظة التي أوجدتها الدعوة إلى الدين الحق في أعماق قلوبهم على نحو ظاهر أو نحو خفي[٢].

الطائفة الثالثة: آخر طوائف المجتمع الفرعوني هم «بنو إسرائيل»، وهم: «المستضعفون».

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٤٩).

ففرعون حينما اتخذ من قومه شيعاً، خص طائفة منهم بالإذلال وهدر الكرامة،

---

(١) السنن التاريخية في القرآن، لمحمد باقر الصدر، دار التعارف، سوريا، ط١، ١٩٨٩م، ص١٥١-١٥٢.
(٢) فرعون في القرآن، ص٣٨ .

لأنه كان يتوسم فيها أن تشكل إطاراً للتحرك ضده[1]، فصب عليها جام ظلمه وعذابه ، وجعل منها بؤرة إجرامه وتسلطه.

ولكن يشاء الله سبحانه أن يرفع هؤلاء الذين استضعفوا إلى مصاف الأئمة ، ويهلك الذين تجبروا، وظنوا أنهم إلى الله لا يرجعون.

قال سبحانه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص:٥-٦).

هذه هي طوائف المجتمع الفرعوني الآثم، وتلكم هي طبيعته، وذلكم هو أثره في تشكيل شخصية الطاغية.

* * *

(١) السنن التاريخية في القرآن ، ص١٥٤ .

الفصل الثاني

سياسة فرعون في إدارة البلاد

وفيه:

المبحث الأول: السياسات العامة في إدارة الرعية.

المبحث الثاني: سياسته في مواجهة الدعوة .

المبحث الأول

السياسات العامة في إدارة الرعية

ويحتوي على أربعة مطالب:

المطلب الأول: مصدر الحاكمية .

المطلب الثاني: الفساد القضائي والأمني والإداري .

المطلب الثالث: سياسة الاستبداد وإظهار خلافها.

المطلب الرابع: في السياسة الداخلية.

المطلب الأول

مصدر الحاكمية

غالباً ما تصدِّر الدول الحديثة دساتيرها، ببيان مصدر الحاكمية في الدولة، أو بمعنى آخر: بيان الجهة التي تملك حق التشريع، وسن القوانين، أو قل: حق التحليل والتحريم.

أما الدول الإيمانية الربانية - كالدول التي استعرضناها في الباب الأول- فتسند هذا الحق إلى الله رب العالمين ، ومنه جل وعلا تستمد تشريعاتها، وإليه سبحانه تكل الحاكمية.

أما في دولة فرعون، فالأمر مختلف، وحتى نعرف مصدر التشريع في سياسة هذا الطاغية لابد من الوقوف أمام هذه النصوص، التي تمثل بيانات رسمية، وخطابات رئاسية، لابد من تحليلها تحليلاً عميقاً، ودراستها في ضوء اللغة والشرع.

قال سبحانه: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩). وقال سبحانه : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: من الآية٣٨). وقال سبحانه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٣-٢٤) .

ادعى الطاغية فرعون -كما تذكر الآيات- مقامين كبيرين: الألوهية والربوبية.

فما حقيقة الألوهية؟ وما حقيقة الربوبية؟

جاء في مختار الصحاح: (أَلَهَ) يأله بالفتح فيهما (إلاهة) أي عبد، ومنه قولنا: الله[1]، وأصله: (إلاه) على فِعال بمعنى مفعول، لأنه مألوه أي معبود، كقولنا: إمام بمعنى مؤتمّ به... و(الآلهة) الأصنام، سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحقّ لها،

(١) على خلاف في ذلك، انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ١٣/٢ ، وما بعدها.

وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه، والتأليه: التعبيد، والتأله: التنسك والتعبد[1].

وجاء في بصائر ذوي التمييز: (أ ل هـ) من أَلِهِ إليه يأله كسمع يسمع - إذا فزع إليه، لأنه يفزع إليه في المهمات، قال ابن إسحاق، أو من أله: سكن لأن يسكن إليه القلوب والعقول، قال المبرد: أو من أَلِه يأله ألها كفرح يفرح فرحاً- إذا تحيّر، قاله أبو عمرو بن العلاء، ومعناه: أنه تحيرت العقول في إدراك كمال عظمته، وكنه جلال عزته ، أو من أله الفصيل إذا أولع بأمه، وذلك لأنه العباد مولعون بالتضرع إليه في كل حال، أو من أله يأله إلهة وتأليها كعبد يعبد عبادة وتعبداً زنة ومعنى، قاله النضر ابن شميل. والمعنى: المستحق للعبادة، أو المعنى: المعبود[2].

هذا، وقد استعمل القرآن كلمة (إله) في اتجاهين، نلحظهما من خلال الآيات.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (يس:٧٤). ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (هود: من الآية١٠١). ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(القصص: من الآية٨٨) .

والمعنى لكلمة (الإله) من هذه الآيات، أن المشركين كانوا يتخذون شركاء مع الله، يعتقدون أن لهم سلطة على الطبيعة ، ونفوذاً فوقها.

وقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(التوبة: من الآية٣١) . وقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٣) .

---

(١) مختار الصحاح ، ص٢٢-٢٣ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ، ١٤/٢ .

في هذه الآيات يقف المتأمل على معنى آخر لكلمة الإله يختلف كل الاختلاف عن كل ما تقدم ذكره من معانيها فليس ههنا شيء تصور السلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، فالذي اتخذ إلهاً هو إما واحد من البشر أو نفس الإنسان نفسه، ولم يتخذ ذلك إلهاً من حيث إن الناس يدعونه أو يعتقدون فيه أنه يضرهم وينفعهم، أو أنه يستجار به، بل قد اتخذه الناس إلهاً من حيث تلقوا أمره شرعاً لهم ، وائتمروا بأمره وانتهوا عما نهى عنه واتبعوه فيما حلله وحرمه، وزعموا أن له الحق في أن يأمر وينهى بنفسه، وليس فوقه سلطة ظاهرة يحتاج إلى الرجوع والاستناد إليها[1].

فالآية الأولى تبين لنا كيف اتخذت اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً وآلهة من دون الله، كما بين ذلك الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من طرق عن عدي بن حاتم ﷺ، وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصراني، فسمعه يقرأ الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ (التوبة: من الآية٣١) قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحللون ما حرم الله فتحللونه» قال : فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم. (الترمذي ٣٠٢٠، البيهقي ٢٠١٧٣).

أما الآية الثانية فمعناها واضح كل الوضوح، وذلك أن من يتبع هوى النفس، ويرى أمره فوق كل أمر، فقد اتخذ نفسه إلهاً له في واقع الأمر[2].

وبين المعنيين ارتباط منطقي لا يخفى على المتأمل المستبصر ، فالذي يتخذ كائناً ما ولياً ونصيراً وكاشفاً للسوء ، ويخافه ويرى سخطه يجر عليه الضرر، ومرضاته تجلب له المنفعة - كما يعتقد المشركون في آلهتهم المزعومة- لم يفعلوا ذلك إلا لاعتقادهم أن له نوعاً من السلطة على هذا الكون وهذه الطبيعة. وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم

---

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن لأبي الأعلى المودودي، الدار السعودية، جدة، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٠-٢١.

(٢) المرجع السابق ، ص٢٩ .

أحد دون الله قانوناً، يتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة، فإنه - أيضاً- يعترف بسلطته القاهرة[1].

هذا بالنسبة لكلمة (الإله)، أما كلمة (الرب)، فقد قالوا: «الرب: المالك والمصلح والسيد والمعبود[2].

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة[3]: «الراء والباء يدل على أصول، فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه ، فالرب: المالك والخالق والصاحب، والرب: المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه، والأصل الآخر لزوم الشيء والإقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول. والأصل الثالث: ضم الشيء للشيء، وهو -أيضاً- مناسب لما قبله، ومتى أنعم النظر كان الباب كله قياساً واحداً.

قال أبو الأعلى المودودي - رحمه الله- في بحث قيم له حول الموضوع، في كتاب صغير بعنوان: المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله، الرب، العبادة، الدين، قال بعد استعراضه لآيات قرآنية استعملت كلمة (الرب)، وبعد نقله لأقوال من معاجم اللغة فيها: «وبإمعان النظر في سعة هذه الكلمة واستعراض معانيها المتشعبة يتبين أن كلمة (الرب) مشتملة على جميع ما يأتي بيانه مع المعاني:

١ - المربي الكفيل بقضاء الحاجات، والقائم بأمر التربية والتنشئة.

٢ - الكفيل والرقيب، والمتكفل بالتعهد وإصلاح الحال.

٣- السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقطب يجتمعون حوله.

---

(١) انظر المرجع السابق، ص٢٤ .

(٢) الكليات، ص٤٦٦ .

(٣) ص٣٩٨ .

٤- السيد المطاع، والرئيس وصاحب السلطة النافذة الحكم، والمعترف له بالعلاء والسيادة، والمالك لصلاحيات التصرف.

٥- الملك والسيد.

وقد جاءت كلمة (الرب) في القرآن بجميع ما ذكرناه آنفاً من معانيها، ففي بعض المواضع أريد بها معنى أو معنيان من تلك المعاني، وفي الأخرى أريد بها أكثر من ذلك، وفي الثالثة جاءت الكلمة مشتملة على المعاني الخمسة بأجمعها في آن واحد[1].

ثم طفق الشيخ - رحمه الله- يضرب الأمثلة القرآنية على ما ذكر.

والحاصل: أيُّ المعاني هذه لها تعلق فيما نحن بصدده من ادعاء فرعون للربوبية والألوهية؟ وهل كان فرعون يجهل وجود الله سبحانه؟ وهل كان من الغباء بمكان ليدعي أن له سلطة فوق الكون والطبيعة أو ما شابه؟

إن فرعون لم يكن يجهل وجود الله سبحانه ، وتتضح الحقيقة هذه من خلال كلامه هو، ومن خلال أحاديث ملئه وخطب موسى -عليه السلام- ومداولاته معه، فيقول فرعون -مثلاً- تأكيداً لنفيه نبوة موسى: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف:٥٣) . أفكان الرجل فارغ الذهن من وجود الله تعالى وملائكته حتى يقول ما قال؟ وفي موضع آخر، حوار بين موسى وفرعون في سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء:١٠١-١٠٢).

---

(١) المصطلحات الأربعة، ص٣٨-٣٩ .

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(النمل: من الآية١٤).

فإذا كان الأمر كذلك، وعرفنا أن فرعون لم يكن ينكر وجود الله، فماذا كان مثار النزاع بين موسى عليه السلام وفرعون؟ وما الذي ادعاه فرعون بقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤). وبقوله:﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: من الآية٣٨)؟ وما الذي قصده فرعون بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: من الآية٢٣)؟.

ليس مراد فرعون من كلامه السابق أن ينفي جميع ما سواه من الآلهة - حسب اعتقاده- وإنما كان غرضه الحقيقي من ذلك رد دعوة موسى وإبطالها، إذ إن موسى عليه السلام كان يدعو إلى اله لا تنحصر ربوبيته في دائرة ما فوق الطبيعة فحسب، بل هو مالك الأمر والنهي كذلك، وصاحب القوة والسلطة القاهرة بالمعاني السياسية والمدنية، لذا قال فرعون: يا قوم لا أعلم لكم مثل ذلك الإله غيري[1].

أما دعوة موسى عليه السلام -وهي سر الصدام بينه وبين فرعون- فهي في الحقيقة أنه لا إله ولا رب بجميع معاني كلمة الرب إلا الله رب العالمين، وهو وحده الإله والرب بالمعاني السياسية والاجتماعية. ومن هنا كان فرعون والملأ يعلون أصواتهم المرة بعد المرة بأن هارون وموسى قد جاءا يسلباننا أرض مصر، وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية، ليستبدلا بها ما يشاءان من النظم والقواعد[2].

قال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ (طه:٦٣).

وبهذه الطريقة نفهم غضب فرعون الشديد، وتهديده لموسى عليه السلام

---

(١) انظر المرجع السابق، ص٦٦، والألوهية والحاكمية، سامر إسلامبولي، ص١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٦٨.

بالسجن: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩). ولو أن المسألة مسألة طقوس وشعائر تعبدية لما شغل باله بما دعا إليه موسى من ترك ما سوى الله من معبودات، وإفراد رب العالمين بالطقوس والشعائر، ولو كانت دعوة موسى دعوة توحيد في العبادات فقط بهذا المعنى، لما اغتاظ فرعون منه وغضب، ولكان أكثر ما يمكن أن يقوله: إننا نرفض ترك ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا. أو أن يطلب إلى موسى مناظرة علماء دينه! [١].

أما أن يدعو موسى إلى رب بجميع معاني الربوبية ، فلم يكن فرعون على استعداد لقبول سيادة أحد فوقه في السياسة والتشريع، بل إنه لم يكن يصدق أن أحداً من رعاياه يقبل أحداً غيره حاكماً أعلى، لذلك تحدى بدءاً اصطلاح ﴿رب العالمين﴾ لأن الرسالة الآتية من عنده لا تبدو فيها ملامح إفراده بالعبودية الدينية في ميدان العبادات فقط، بل هي دعوة صريحة لسلطة سياسية أعلى[٢]، وهذا ما يحذره فرعون.

إذن، فإن الدولة الفرعونية كانت ترى لنفسها - ممثلة في شخص فرعون- الحق في التشريع وسن القوانين، أي أنها كانت ترى الحاكمية لنفسها هي.

* * *

(١) فرعون في القرآن، ص١٠١ .

(٢) فرعون في القرآن، ص١٠١ .

المطلب الثاني

الفساد القضائي والأمني والإداري

إن النظام الفرعوني لم يتخلل أوصاله الفساد فحسب، بل كان تسويق الفساد في أجهزة الدولة سياسة متبعة من سياسات فرعون في الحكم والإدارة.

ونستطيع أن نستخرج من خلال إشارات الآيات القرآنية أنواعاً من الفساد رعتها الدولة وأشرفت عليها.

وأوّل هذه الأنواع «الفساد القضائي»، إذ إن هذه الدولة الضخمة دولة تنعدم فيها الأسس القانونية، ويعاقب الناس فيها بأنواع العقوبات من قتل وتصليب وتذبيح وسجن، بدون لوائح قانونية، أو بدون تهم واضحة أو محاكمات عادلة.

ما الذي أحدثه بنو إسرائيل حتى يحكم بأن يذبح أبناؤهم، ويستحيى نساؤهم؟ وما التهمة التي وجهت إليهم حتى ينكل بهم هذا التنكيل؟

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:٤٩)، ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ (غافر: من الآية٢٥).

ولما جاء موسى يحمل دعوة الله إلى فرعون، ما كان من فرعون إلا أن يهدده بالسجن ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩).

بأي تهمة يوضع موسى في سجون فرعون؟ إنه الفساد القضائي، الذي يلقي في الدعاة في السجون بلا ذنب اقترفوه أو تهمة وجهت إليهم!

ويتجلى هذا النوع من الفساد؛ في الحكم الذي أطلقه فرعون على السحرة الذين

آمنوا برب هارون وموسى إثر التحدي.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:٧١).

توجه إلى هؤلاء التهمة بأنهم متواطئون مع موسى، بلا أدلة ولا براهين، ثم يحكم عليهم بالإعدام دون محاكمة.

فرعون لم يدرك أن العقاب لا يأتي هكذا جزافاً، بل ينبغي أن يبنى على قواعد سليمة[1]، وأسس قانونية ودستورية عادلة.

ويتصل بهذا النوع من الفساد -دائماً- نوع آخر، هو «الفساد الأمني»، ذلك حين تملك الأجهزة الأمنية سلطات كبيرة، وتحتلّ مكانة لا تسأل فيه عن تصرفاتها.

انظر قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (العنكبوت: من الآية٣٩) .

استكبر الجنود، ولم يَعُد دورهم هو رعاية أمن الناس، بل علوا على الناس، وأقلقوا أمنهم، واعتدوا على حقوقهم.

ولعل من صور هذا الفساد الأمني، ما يقصه الله سبحانه علينا في سورة القصص. قال جل ثناؤه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص:١٥).

تصور الآيات مشهداً يعتدي فيه رجل من قوم فرعون على آخر من بني إسرائيل، ويبلغ الأمر بهذا الأخير أن «يستغيث» بموسى.

---

(١) سورة طه، دروس وعبر، الفتنة بالسلطة والمال، د. زاهية راغب الدجاني، دار طعمة، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

والذي نظنه -والله أعلم- أن الرجل الفرعوني كان رجل أمن، أو جندياً من جنود فرعون، إذ لو كان رجلاً عادياً من قوم فرعون لما وصل الأمر بفرعون وملئه أن يحاولوا قتل موسى، وهو ربيب القصر.

وهذا الاعتداء من هذا الفرعوني يمثل صورة من صور الفساد الأمني، وأضف إليه -إن شئت- الاعتداءات المستمرة من النظام على بني إسرائيل بغير تهمة أو جناية كما ذكرنا قبيل قليل.

والنوع الأخير من الفساد المقنن في سياسة فرعون والذي نلمحه من الآيات ما نسميه: الفساد الإداري، ونسلط الضوء في هذا النوع على الطريقة التي يتم بها تعيين الأشخاص في المناصب والوظائف.

وليتضح الموضوع ، فلنقف مع قول السحرة لفرعون ورده عليهم قبيل التحدي بينهم وبين موسى -عليه السلام-.

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (لأعراف:١١٣-١١٤) .

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الشعراء:٤١-٤٢) .

والمشهد هنا يوضح معيار إسناد المناصب في النظام الشيطاني الفرعوني، فالذين يدافعون عن فرعون، ويحمون نظامه وكفره ومجونه وظلمه هم المقربون وأهل المناصب، ولو كانوا جهلاء سحرة دجاجلة!

إنه الفساد بأنواعه، يعتبر سياسة من سياسات فرعون الطاغية، إنها دولة الفساد، لذلك وصفهم الله بهذا الوصف فقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (لأعراف:١٠٣).

* * *

المطلب الثالث

سياسة الاستبداد، وإظهار خلافها

هذه السياسة -التحكم والاستبداد- هي ركن من أركان شخصية الطاغية، وهي المعلم الأبرز من معالم سياسته في إدارة البلاد، وهو الذي يزعم أنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، وصاحب الرأي السديد ، وصاحب الطريقة المثلى، لذا فهو الآمر لا رادّ لأمره، وهو الحاكم لا معقب لحكمه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

وفرعون كان النموذج الأوضح للاستبداد، فهو -أي الاستبداد- سياسة تنبع من شخصيته المتعالية، وحكمه الطاغوتي.

وقبل أن نطفق بالاستدلال على الاستبداد السياسي -من خلال القرآن- كسياسة من سياسات فرعون ، فلنبين المقصود بالاستبداد.

جاء في كتاب «طبائع الاستبداد»لعبد الرحمن الكواكبي -رحمه الله تعالى- ما نصه : «الاستبداد لغة: هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة.

ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة، لأنها مظاهر أضداده التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة، وأما تحكم النفس على العقل، وتحكم الأب والأستاذ والزوج، ورؤساء بعض الأديان وبعض الشركات، وبعض الطبقات، فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة.

الاستبداد في اصطلاح السياسيين: هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة

وبلا خوف تبعة، وقد تطرأ مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي، فيستعملون في مقام كلمة «استبداد»: استعباد، واعتساف، وتسلط، وتحكم، في مقابلتها كلمات: مساواة، وحس مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة، ويستعملون في مقام صفة «مستبد» كلمات: جبار، طاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق، وفي مقابلة «حكومة مستبدة» كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيدة، ودستورية.

ويستعملون في مقام وصف الرعية «المستبد عليهم» كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين[1]، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزاء»[2].

ثم قال: وأشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية»[3].

وهذه التي يتكلم عنها أخيراً هي -تماماً- حكومة فرعون.

وينقل -رحمه الله- أقوال بعض «الحكماء» المتأخرين في وصف الاستبداد، ودوائه، ومنها: «المستبد عدو الحق، عدو الحرية، وقاتلهما ، الحق أبو البشر، والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبوا، وإن دعوهم لبوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت.

المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدها عن النطق بالحق، والتداعي لمطالبته»[4].

---

(١) الاستنبات أو التنبت من اصطلاحات الفرنج، يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات، هامش الكتاب، ص٢٤.

(٢) طبائع الاستبداد، لعبد الرحمن الكواكبي، دار الشرق العربي، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩٦م، ص٢٣٧-٢٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤ .

(٤) المرجع السابق، ص٢٧ .

ويقول في موضع آخر: «الاستبداد أعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة»[1].

نعم، هذا هو الاستبداد، فأين كان فرعون من هذا كله؟

قال الله سبحانه مصوراً الحالة التي كشفت أنياب الطاغية فرعون بعد إيمان السحرة بما جاء به موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٣-١٢٤). وقال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:٧١). وقال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۚ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء:٤٩).

قال صاحب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: «كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه»[2].

والذي يظهر من هذه الآيات أن الذي أغاظ فرعون - أكثر ما أغاظه - أن السحرة آمنوا بغير إذنه، وهذه هي العقدة الرئيسية في شخصية فرعون الحاكم، فهو يريد أن يجري كل شيء في البلاد بإذنه، ومن أتى شيئاً بغير إذنه فهو معارض مخالف لسيادته وسيادة قانونه، والنصوص هنا تصور لنا ضمناً أن فرعون كان يسيطر على كل شيء في البلاد، ويتحكم في كل أمر من الأمور، حتى وزراؤه ورجال سلطته لا يستطيع الواحد منهم أن يبرم أمراً إلا من بعد توجيهاته، فهو فوق كل شيء في البلاد، وهذا معنى قوله:

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠٠.

أنا ربكم الأعلى. ففرعون لم يكتف بالتحكم المادي في الأشياء المحسوسة، بل يريد أن يتحكم في القلوب والصدور، فلا تؤمن إلا من بعد إذنه[1].

يقول سيد قطب رحمه الله في ظلاله[2]: «هكذا ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق – وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها- أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم - وهم لا يملكون من أمرها شيئاً، أو يستأذنوه أن تشرق أرواحهم -وهم أنفسهم لا يملكون مداخلها-، أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الآفاق، أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين، لكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور».

إذن، فالاستبداد كان سياسة عميقة الجذور في الدولة الفرعونية، بل تعدى استبداد فرعون إلى أن يفرض على عقول الناس القيود والسلاسل، ويعتقل فكرهم وإرادتهم، ولم يقتصر هذا على السحرة إنما عم الناس كلهم، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾(يونس: من الآية٨٣) .

والعجب كل العجب أنه في الوقت الذي يصلب الناس فيه لإيمانهم بغير إذنه، ويطاردهم ويفتنهم عن دينهم، نراه يرتدي ثوب الشورية، ويتظاهر بعدم تفرده في الرأي، بل يستأمر الناس في إصدار القرارات ، ويستشيرهم في اتخاذها.

انظر قوله تعالى : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٥) .

تظاهر فرعون أنه يشارك الملأ في الحكم والقرار، وفي القيادة والتوجيه، وأعلن أنه يحترم رأيهم، وينفذ أمرهم ، وقال لهم: ﴿فماذا تأمرون﴾[3].

---

(١) انظر فرعون في القرآن، ص٨٧ .

(٢) ٣/١٣٥٠.

(٣) القصص القرآني للدكتور صلاح الخالدي، ٢/٤٢٣.

لا يستقيم افتراض صدقه في كلامه هذا مع مواقفه السابقة، أليس هو من قال لهم: أنا ربكم الأعلى!! والآن يطلب منهم أن «يأمروه» فيما ينبغي له أن يفعل بموسى وهارون عليهما السلام لحفظ مصالح البلاد!!

وتلك شنشنة الطاغية حينما أحس أن الأرض تتزلزل تحت قدمه، عندئذ لان في القول بعد التجبر، ولجأ إلى الشعب وقد كان يدوسه بالأقدام، ويتظاهر بالشورى في الأمر، وهو الذي يستبد بهواه، ذلك إلى أن يتجاوز منطقة الخطر، ثم إذا هو هو جبار مستبد ظالم[1].

وها هو في موقف آخر يظهر شوريته السرابية في محاولة منه لكسب الناس، وإشراكهم في تحمل مسؤولية القرار، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦).

يقول لهم: ﴿ذروني﴾ زعماً منه أنه لولا مراعاة خواطرهم لقتله[2]، ولولا الخطوات القانونية، والإجراءات الدستورية التي يجب أن يمر بها القرار لقتله.

إنها سياسة أخرى من سياسات فرعون متصلة بالاستبداد، إنه في الوقت الذي يصادر فيه الفكرة من عقول الناس يتظاهر بالمرونة والحرية والشورية.

لكنه لا يلبث إلا قليلاً بعد قوله: ﴿ذروني﴾ حتى يكشف عن أنياب استبداده العميق: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: من الآية٢٩).

وبهذا تنجلي سحابة الصيف هذه وتتضح الحقيقة التي لم تزل واضحة، إنها سياسة الاستبداد.

* * *

(١) انظر في ظلال القرآن، ٥/٢٥٩٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢٦.

المطلب الرابع

في السياسة الداخلية

نستعرض في هذا المبحث عدداً من السياسات التي اتبعها فرعون في تعامله الداخلي مع رعيته، رأيت أن أذكرها في مبحث واحد، مشيراً إلى كل منها بحسب ما يقتضيه المقام، فمن هذه السياسات ما أشار القرآن إليه إشارة قصيرة، لا تكفي لتكوين مبحث كامل.

ولم أر أن أهملها في دراستنا هذه، فكان الاختيار أن تجمع تحت عنوان واحد حتى تكتمل الفائدة.

نبدأ بذكر سياسة اتبعها النظام في كثير من مواقفه التي عرضها القرآن الكريم، وهي تمثل طبيعة اتصف بها النظام الفرعوني، تلكم هي الطبيعة التآمرية التي نلحظها في سياسة النظام.

وحتى يتضح الموضوع، فلنسلط الضوء على آيات القصة المشيرة إلى هذه السياسة.

في سورة القصص يعرض الله سبحانه قصة موسى وقتله الرجل من آل فرعون، حتى إذا علم فرعون وملأه بحادثة القتل يجيء رجل يسعى إلى موسى ينصحه بالخروج من المدينة، ويحذره من المؤامرة التي حاكها الملأ في الخفاء لقتله.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص:٢٠).

وقد عبرت الآيات عن استشارة الملأ فيما بينهم بشأن موسى عليه السلام بلفظ «الائتمار» ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾. والائتمار من التآمر القائم على الكيد[1].

---

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د.صلاح الخالدي، درا النفائس، عمان، ط٢، ٢٠٠١م، ص٢٢٧ .

قال في المعجم الوسيط: «آمر فلاناً في الأمر مؤامرة: شاوره، و«ائتمر»مطاوع أمره، يقال: أمرته فأتمر. وائتمر القوم تشاوروا وأمر بعضهم بعضاً، وائتمروا بالشيء هموا به، وائتمروا بفلان تشاوروا في إيذائه، وائتمر لفلان امتثل أمره، و(تآمروا) تشاوروا، وتآمروا عليه تشاوروا في إيذائه»[1] .

فالائتمار هو التشاور، فإذا عدي هذا الفعل بالباء تضمن -كما نرى من الكلام السابق- معنيين مضافين إلى التشاور:

أولهما: أن هذه الشورى بلغت حد الهمّ والإقدام على العمل، فهي المقدمة المباشرة للفعل.

وثانيهما: أن هذه الشورى إنما هدفها الإيذاء وإيقاع الضرر بالمتآمر به. والتعبير القرآني استعمل فعل «الائتمار»وعداه بالباء، إشارة إلى ذينك المعنيين. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

وهذه المؤامرة السرية التي يقيمها فرعون وملؤه، لا بدَّ أن تكون في «اجتماعات مغلقة»، وهذا ما يتبين بالتأمل في آيات القصة القرآنية.

سورة الشعراء تعرض اجتماعاً يترأسه فرعون، يحضره ملؤه المقربون منه.

قال تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٧) .

وسورة الأعراف تعرض نوعاً آخر من الاجتماعات السرية، لكنها دون الأول في المستوى التنظيمي، يترأس هذا الملأ من قوم فرعون، ويحضره من دونهم من أتباع فرعون .

---

(١) المعجم الوسيط، ص٢٦ .

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٠٩-١١٢).

«وهذا معناه أن الاستشارة تمت على مرحلتين، تحدثت آيات سورة الشعراء عن المرحلة الأولى، وتحدثت آيات سورة الأعراف عن المرحلة الثانية.

المرحلة الأولى: جمع فرعون الملأ الخاصين، وأركان حكمه المقربين، والتقى بهم التقاءً سرياً خاصاً، وتدارسوا أمر موسى -عليه السلام-.

المرحلة الثانية: بعد اتفاق فرعون مع مستشاريه الخاصين، أراد أن يظهر أمام نظامه ووجوه قومه بمظهر المستشير الحريص على العودة إلى الرعية، وأوحى للملأ المقربين بترتيب لقاء موسع لوجوه القوم للتشاور في قضية موسى -عليه السلام-.

رتب الملأ الخاصون اللقاء الموسع لوجوه القوم مع فرعون، وأخبروا المستشارين الجدد خبر موسى، وقالوا لهم نفس العبارات التي قالها فرعون عن موسى من قبل.

وكانت نتيجة الشورى في المرحلتين والجلستين واحدة، حيث أيد الفريقان رأي فرعون في موسى - عليه السلام-، ووافقوا على حكمه، واتفقوا على طريقة تنفيذ ذلك الحكم.

وصدر رأي فرعون باسم المجلسين، مجلس الشورى الخاص، ومجلس الشورى العام[1].

وفي سورة غافر مشهدان آخران من التآمر الفرعوني، أحدهما: تآمر آخر على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ (غافر:٢٦).

---

(١) التفسير الموضوعي للدكتور صلاح الخالدي، ص٢٢٨ .

وثانيها: يوضح أن التآمر لم يكن بشخص موسى فحسب، بل هو ينال كل من عارض فرعون، ولو بكلمة حق يجهر بها ، ذلك التآمر هو تآمرهم بالرجل المؤمن الذي وقف في وجه فرعون، ورد عليه كلامه في إرادة قتل موسى -عليه السلام-.

قال سبحانه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٥).

هذه المشاهد التي تعرضها الآيات توضح سياسة من سياسات فرعون في التعامل مع المعارضين الداخليين، هذه السياسة هي التآمر عليهم وبهم، وتدبير التخلص منهم بأي طريقة .

وننتقل إلى سياسة أخرى نهجها فرعون في تعامله مع أفراد رعيته.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٤).

وقال سبحانه مخاطباً بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٤٩).

يقول أبو الأعلى المودودي -رحمه الله-: «﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ يعني لم يكن أساس حكومته تساوي الجميع أمام القانون ونيلهم حقوقاً متساوية، بل سلك تقسيم أهل البلد الواحد شيعاً وجماعات، يعطي إحداها امتيازات، ويخصها بعنايات، ويتخذ منها قادة وحكاماً، أما الأخرى، فأهلها مقادون مستضعفون مقهورون منهوبون»[1].

---

(١) فرعون في القرآن ، ص١٢٩ .

وكان غرضه من جعل أمته شيعاً أن يحفظ قوة نظامه فوقهم، فهو لا يريد أن تستقر بينهم الأمور، لأنه إن حصل ذلك، ربما تفرغوا إلى ما يحذر، فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم[1].

وقد جعل الله سبحانه هذه السياسة من فرعون مسببة عن إفساده، وجعلها أبرز مظاهر ذلك الإفساد في الأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: من الآية٤).

لقد أوجد فرعون بين شعبه الشقاق، وزرع بينهم الخلاف، كل ذلك تحت شعار: «فرق تسد»[2].

وإذا ما وقفنا مع قول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف:١١٣-١١٤).

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء:٤١-٤٢).

أقول: إذا وقفنا مع الآيتين الكريمتين رأينا سياستين أخريين تشيران إليهما. فطلب السحرة للأجر، واشتراطهم إياه قبل البدء في التحدي مع موسى - عليه السلام-، يدل على أن فرعون كان يسخر الناس في العمل بلا أجر.

قال فضيلة الدكتور فضل عباس -حفظه الله-: «وهذا يدل دلالة واضحة على أن فرعون كان يسخر الناس فيما يقومون به من أعمال»[3].

وقال عبد الوهاب النجار في «قصص الأنبياء»: «وطلب السحرة الأجر يدل

---

(١) قصص الأنبياء للشعراوي، ١٢٥١/٢.

(٢) انظر: إن فرعون علا في الأرض، د. محمد أبو فارس، ص١٣، والقصص القرآني للدكتور صلاح الخالدي، ٢٦٧/٢.

(٣) قصص القرآن الكريم، ص٥١١.

على أن أمور الفراعنة كانت سخرة»[1].

وهذا يدل على أن فرعون قد وصل به الأمر، وبلغ به الاستبداد إلى أن يستغل جهد الناس وعملهم لمصلحته بلا أجر أو مقابل.

والأمر الثاني هو شراء الذمم ، فها هو فرعون يستميل السحرة إلى صفه، ويشتري ضمائرهم بالمال والمنصب.

وهذا الذي فعله -أيضا- مع قارون - وزيره المالي- إذ كان قارون من قوم موسى -عليه السلام-، لكن الظاهر أن فرعون قد استماله، وعرض عليه المنصب فبغى هذا على قومه وتبرأ منهم وعاداهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(القصص: من الآية٧٦).

هذه أضواء وإشارات أحببت أن أضمها إلى ما سبق ذكره، تتميماً للفائدة، وإيضاحاً لصورة فرعون وسياسته في الأذهان.

* * *

(١) قصص الأنبياء ، ص٢٥٨ . وانظر : كتاب " نظرات في أحسن القصص ، ٢/٦٠ .

المبحث الثاني

سياسته في مواجهة الدعوة

ويحتوي على مقدمة ومطلبين :

المطلب الأول: توجيه الاتهامات للداعية، وتهييج الأوساط الرسمية والشعبية ضد الدعوة .

المطلب الثاني: المضايقات الجسدية .

بين يدي الموضوع:

تمثل قصة موسى -عليه السلام- وفرعون الصراع بين جند الله في جهة، والطاغوت وأعوانه في الجهة الأخرى ، تصور دعوة الله إلى عباده، وما تلاقيه من مقاومة ومضادة على يد الطاغية.

وقبل البدء بدراسة سياسات فرعون وأساليبه في مقاومة الدعوة، ينبغي أن نبين أهداف هذه الدعوة، ونبين ثوابت النظام الفرعوني التي يدافع عنها، ثم نبين خطر هذه الدعوة على نظام فرعون، الأمر الذي أشعل نار الحرب بين موسى عليه السلام داعية الله، وفرعون الحاكم الظالم. ونسوق ذلك كله بإيجاز -إن شاء الله تعالى-.

وأشير إلى أن فكرة هذا التمهيد مستقاة من كتاب «فرعون في القرآن» لأبي الأعلى المودودي -رحمه الله تعالى-.

وللدخول إلى الموضوع نطرح سؤالاً لنقف معه هنيهة: هب أن رجلاً لا حول له ولا قوة من قوم مستعبدين مستضعفين قام فجأة، ودخل بلاط فرعون، ذلك الملك الذي لم يكن فقط ملكاً مطلق العنان في مملكته الواسعة، بل كان معبوداً -أيضاً- .

أقول: إذا دخل هذا الرجل الأعزل بلاط مثل هذا الملك، فكيف تخاف هذه الدولة العظمى من مجرد قلبه العصا حية، وتخشى أن يقلب هذا الفرد الواحد عرشها، ويطيح بجميع الطبقة الحاكمة بعيداً عن سلطة البلاد؟ ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ (طه: من الآية٦٣)، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الأعراف:من الآية١٠٩-١١٠).

ثم لم الخوف من هذه الثورة السياسية ما دام هذا الرجل لم يدع غير النبوة، ولم يطلب سوى تخليص بني إسرائيل، دون إثارة لأي نوع من الدعاوى السياسية على الإطلاق؟[1].

---

(١) فرعون في القرآن ، ص١٣ .

وجواب هذا السؤال أن دعوى موسى - عليه السلام- النبوة تحوي بداخلها أنه يريد في الحقيقة تغيير نظام الحياة كلها بشكل عام، ونظام البلاد السياسي جزء منه لا محالة. إن تقديم أي شخص نفسه للناس على أنه رسول رب العالمين، يتضمن بالضرورة أنه يطلب إلى الناس طاعته طاعة كلية. لأن الله لا يبعث الرسل إلا ليكونوا مطاعين ﴿ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء: من الآية٦٤) والاعتراف بحق أي حاكم في التشريع من عند نفسه ينافي قطعاً منصب الرسالة. وهذا هو السبب الذي جعل الخوف من الانقلاب السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أوضاع البلاد يشخص أمام فرعون وأعيان دولته فور سماعهم دعوى النبوة من فم موسى -عليه السلام- [1].

أما لماذا حظيت دعوة موسى -عليه السلام- بهذه الأهمية في النظام الفرعوني؟ ولماذا سببت كل هذا الاضطراب والفوضى السياسية؟ مع أنه لم يكن معه غير أخ واحد، ولم يكن معه من الآيات سوى يد بيضاء متلألئة، وعصا تنقلب حية! أقول: يعود ذلك - والله تعالى أعلم- إلى سببين:

الأول: أن فرعون وملأه، كانوا على علم تام بشخصية موسى -عليه السلام-، فقد كانوا عارفين بسيرته الطاهرة المتينة، وكفاءته غير العادية، وصلاحيته الفطرية للقيادة، فإذا وقف الآن أمام فرعون وحاشيته يدعي النبوة، لم يكن من الممكن بحال اعتبار كلامه فارغاً.

الثاني: أن فرعون وحاشيته لما رأوا معجزتي العصا واليد البيضاء، فرقوا فرقاً شديداً، وكادوا يوقنون بأن وراء هذا الرجل قوة غير عادية فعلاً. وقولهم عنه: إنه ساحر، من جهة، ثم إظهارهم الخوف - من جهة أخرى- من أنه يريد السلطة في

---

(١) المرجع السابق، ص١٤.

الأرض كان تناقضاً صريحاً من جانبهم، وتأكيداً للخوف وفقدان الوعي الذي اعتراهم من هذه العلامة الأولى من علامات النبوة، فلو أنهم كانوا يرون موسى - عليه السلام- ساحراً حقاً لما خافوا من الثورة السياسية أبداً، لأنه لم تحدث في العالم على الإطلاق ثورة بقوة ساحر، ولا بجهد مشعوذ[1].

هذا ما أثار النظام الفرعوني ضد دعوة موسى -عليه السلام-، وهو الذي جعل فرعون يعلن العداء والحرب على موسى ودعوته، ويأخذ الأمر بكل جدية، ويحشد له كل طاقة.

من خلال الآيات الآتية نستطيع فهم أهداف الدعوة الربانية إلى فرعون. قال الله جل ثناؤه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات:١٧-١٩).

وقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٣-٤٤).

تظهر هاتان الآيتان هدف دعوة موسى -عليه السلام- الأول، وهو دعوة فرعون إلى العود عما هو عليه من الطغيان، وذكر مقام الله جل في علاه، وخشيته سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الأعراف:١٠٤-١٠٥).

وقال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء:١٦-١٧).

---

(١) المرجع السابق، ص١٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الدخان:١٧-١٨).

ويظهر هنا الهدف الثاني من دعوة موسى عليه السلام، وهو إرسال بني إسرائيل معه، وتخليصهم من استعباد فرعون.

والحاصل: أن الدعوة الربانية إلى فرعون لم تقتصر على إطلاق بني إسرائيل من الاستعباد ، بل وجهت أيضاً إلى فرعون نفسه أن تذكر الوقوف بين يدي الله، وتذكر عظمة الله وقدرته، وإحاطته وقهرهُ للجبابرة والطغاة.

وأمام هذه الأهداف الدعوية، وقف فرعون بكل قوته ليواجه هذه الدعوة وسلك في سبيل ذلك كل طريق. والقرآن قد عرض هذه السياسات الفرعونية، وصورها أوضح تصوير.

وقد مثلت سياساته في مواجهة الدعوة جانباً مهماً من جوانب السياسة العامة لفرعون، واستحوذت -ولا شك- على فكره ووقته بعد إعلان الدعوة.

* * *

المطلب الأول

توجيه الاتهامات للداعية وتهييج الأوساط الرسمية والشعبية ضد الدعوة

تبنى فرعون سياسات عديدة في محاربة دعوة الله سبحانه وتعالى، ولم يأل جهداً في مقاومتها.

ومن أبرز السياسات هذه، سياسة تشويه صورتها، وعرضها على الناس بصورة قبيحة منفرة مشككة، حتى تفقد هذه الدعوة القدرة على استمالة الناس والتأثير فيهم ، فكال فرعون لهذه الدعوة أنواع الاتهام ، اتهامها في هدفها، اتهامها في وسائلها، واتهام الداعية في شخصه، حتى لا يبقى للدعوة وجه تقابل الناس به، فهي مشبوهة الهدف والوسائل، مشبوهة الأفراد والمنتسبين.

ولنبدأ بالتدليل على ما ذكر.

قال الله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٧٨).

تمثل الآية هذه أولى الاتهامات الفرعونية لأهداف الدعوة الربانية، حيث اتهم الداعية في إخلاصه لدعوته، وتجرده لها، إنه يتهمه بأن الهدف الأوحد من هذه الدعوة هو تحقيق المكاسب المادية. وجني المصالح الدنيوية، والتسلق إلى كراسي الحكم، وإرادة الظهور والقيادة والمال والجاه[1]. وأن ليس له هدف آخر. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: من الآية٧٨) .

وانظر إلى نظم الآية المصورة لاتهامه ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ فقدم ﴿لكما﴾ على

---

(١) القصص القرآني للخالدي، ٤٢٧/٢ .

﴿الكبرياء﴾ مع أن من حقها التأخير، دلالة على تركيزه في اتهامه على أن حرص الدعوة والداعية إنما هو على المصلحة الشخصية، بعيداً عن أي أهداف مشروعة أخرى.

ولا يكتفي فرعون باتهام الداعية في هدفه، بل يتهمه -أيضاً- في وسيلته وطريقته وعلاقاته.

إنه يتهم الدعوة بالتآمر والعمالة!

ويتهم الدعوة -أيضاً- بأن من أهدافها إفساد البلاد وتخريبها ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ (طه: من الآية٦٣) ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر: من الآية٢٦).

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف:١٢٣).

فهو هنا يتهمهم بالتآمر ضد البلاد وأهلها، ويتهمهم بالعمالة والخيانة، وأن هذه المؤامرة قد تمت في الخفاء بعيداً عن أعين الناس، تحايلاً وخداعاً وتمويهاً.

قال ابن فارس: المكر: الاحتيال والخداع[1]. وقيل: هو صرف الغير عما يقصده بنوع من الحيلة[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ (طه:من الآية٧١).

وفي هذه الآية زيادة على ما قبلها، فهو يتهمهم لا بالتواطؤ مع موسى - عليه

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ص٩٩٣.

(٢) بصائر ذوي التمييز، ص٥١٦.

السلام- فحسب بل بأن موسى - عليه السلام- زعيمهم ورئيسهم ، فأراد أن يشوه -أيضاً- إيمان السحرة أمام الناس، فقال: أنتم آمنتم به لأنه كبيركم وأستاذكم، وما فعلكم إلا مكر نسجتموه مع معلمكم إفساداً وتخريباً وخيانة[1].

ويتهم الدعوة إضافة إلى ما ذكر باستخدام السحر وسيلة لتحقيق الأهداف المشبوهة. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه:٥٧). ففرعون يتهم الدعوة بسلوك طريقين لتحقيق الأهداف :

الأول: التآمر والعمالة والخيانة .

الثاني: استخدام السحر والتمويه على الناس، واسترعاء اهتمامهم واستمالتهم. ولا ينسى أخيراً أن يوجه الاتهام إلى شخص الداعية، حتى يصرف الناس عنه.

إنه يتهمه مرة بالجنون والهذيان، ويتهم عقله بالاختلال.

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء:٢٧).

ويتهمه أخرى بأنه قد أصيب بالسحر والمس، الذي دفعه إلى هذا الكلام. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ (الإسراء:١٠١).

إن فرعون لا يترك اتهاماً في ناحية من نواحي التأثير في الدعوة، إلا ويحاول تشويه صورتها، والتشكيك في صدق رسالتها، وصدق انتمائها، وسلامة رموزها وعفتهم وصلاحهم.

ولم يكتف فرعون بعد هذا كله بالتشويه والتشكيك، وإنما خطا خطوة أخرى في تهييج الملأ من حوله ثم سائر طوائف هذا المجتمع على موسى ودعوته - عليه السلام-.

---

(١) انظر قصص الأنبياء للشعراوي، ٣/١٧٨٥، وفرعون في القرآن، ص٧٢ .

وقد عمل فرعون على تهييج الأوساط الشعبية والأوساط الرسمية ضد هذه الدعوة.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء:٣٤-٣٥).

فالملأ هم كبار رجال الدولة، الذين يتولون إدارة شؤون الحكم، وقيادة الرعية باسم فرعون والتأثير على الناس، وهؤلاء الملأ حريصون على البقاء مع فرعون لتحقيق المصالح وجني المكاسب. وحريصون على الوقوف أمام كل من خالف فرعون أو خرج عليه، وقد لمس فرعون بخبثه هذا الجانب عند الملأ، فقال لهم: إن موسى بدعوته يريد أن يخرجكم من أرضكم[1]، ويقلب عليكم مناصبكم ويزيلها بها جميعاً. فأثار بذلك حفائظهم، واستجلب عداوتهم لدعوة موسى - عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (لأعراف:١٢٣).

فرعون - كما يظهر من النص- يلوي عنق الحقيقة، ليهيج الأوساط الشعبية ضد الدعوة فيتهمها بالتآمر لهدف خبيث ، هو إخراج أهل المدينة من مدينتهم.

وصور المسألة بخلاف الواقع، فقد أوهم المصريين أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم[2]، مع أن القضية خلاف ذلك تماماً، فإنه إن كان ثمة إخراج، فهو إخراج لبني إسرائيل من قيد العبودية لا لأهل مصر قوم فرعون.

فاستطاع الطاغية بذلك بعد أن شوه صورة الدعوة والداعية أن يهيج مختلف طبقات المجتمع عليها، ويثيرهم ضدها، وإن الله بالغ أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

(١) القصص القرآني، للخالدي، ٢/٤٢٢ .

(٢) نظرات في أحسن القصص، ص٥٦ .

المطلب الثاني

المضايقات الجسدية

لم يكتف فرعون بأن يشوه صورة الدعوة أمام الناس، بل لجأ إلى أسلوب آخر مواز لذلك الأسلوب، وهو التأثير الجسدي على أصحاب الدعوة.

وهذا الأسلوب متبع في السياسة الفرعونية بشكل بارز، بل لعله كان أول الحلول الفرعونية لمواجهة الدعوة، أملاً منه في رد الدعاة إلى ما كانوا عليه قبل تبنيهم دعوتهم، وتنفيراً للناس، وإرهاباً لهم عن مجرد التفكير في كلام الداعية، إذ إن ذلك سيسوقهم إلى المعاناة والتشرد.

ونلحظ هذا بوضوح في آيات القصص القرآني المتكلمة في قصة الطاغية. فقد استخدم فرعون، شتى الوسائل في التضييق الجسدي على الدعوة، فهدد بداية موسى -عليه السلام- بالسجن والاعتقال. قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩).

ولعل في قوله ﴿لأجعلنك من المسجونين﴾ إشارة إلى أن هناك نظاماً معروفاً للسجون، يعرفه الناس ويعرفون ويلاته، وأن من دخله من الناس انسلخ من كل وصف إلا وصف «المسجون»، فصار هذا الوصف دالاً عليه لا يعرف إلا به.

وكان من سياساته -أيضاً- في مواجهة الدعوة: التعذيب الجسدي.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (البقرة: من الآية٤٩). وقال سبحانه مصوراً ردة فعل فرعون وفعله المعاكس لإيمان السحرة بغير إذنه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف:١٢٤). وقال

تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:٧١).
وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء:٤٩).

﴿لأصلبنكم﴾، قال الفيروزآبادي: «الصليب: الشديد، وودك العظام، منه سمي المصلوب للقتل، لأنه يسيل ودكه»[١].

وقال الإمام القرطبي: «قال ابن عباس: كان فرعون أول من صلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف»[٢].

يظهر أن فرعون كان يبتدع الوسائل والطرق للتعذيب، ويتفنن فيها، ويسبق الطغاة إليها، ويجعلها سنة له من بعده، ينقلها عنه غيره من الطواغيت، الذين يشتركون في الصفات والسياسات.

وفرعون يبالغ في تهديد السحرة الذين آمنوا، ويعدهم بأبلغ التعذيب: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ فاختار حرف الجر (في) ولم يقل: على، وقد جيء به قصداً، ولا يسد غيره مسده[٣]. ففرعون لا يكتفي بتصليبهم على جذوع النخل، بل إنه سيجعلهم فيها، تنكيلاً بهم وتفنناً في أنواع التعذيب، وقال أبو السعود: «وإيثار كلمة (في) للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف المشتمل عليه»[٤].

---

(١) ٣/٤٣٠.
(٢) تفسير القرطبي، ٧/١٦٦.
(٣) إعجاز القرآن الكريم، د.فضل عباس، دار الفرقان، عمان، ١٩٩١م، ط بدون، ص١٨٩.
(٤) تفسير أبي السعود، ٤/٢٩٥.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: ٣٠-٣١).

قال الإمام الزمخشري: «قوله تعالى ﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين، كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً، لإفراطه في تعذيب بني إسرائيل وإهانتهم»[1].

ففرعون ذاته تحول إلى نفس العذاب المهين من شدة اتصافه به، وسلوكه سياسة في مواجهة الدعوة، بل وفي إذلال الشعوب.

ويصل الأمر بالطاغية إلى انتهاج سياسة أخرى، هي أقبح من سابقاتها، وأكثر وحشية واعتداء.

إنه يستخدم أسلوب «التصفية الجسدية»، و«الاغتيالات المدبرة»، أو بتعبير آخر: «تصفية الخصوم السياسيين».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٥-٢٦).

والآيات الدالة على هذا كثيرة، كلها تبرز سياسات العنف والإرهاب الجسدي والفكري عند فرعون في مواجهته لدعوة الله سبحانه، ولكن الله صاحب الدعوة يتكفل هو بحفظها ورعايتها ونصرها. وإن الدعاة الذين يخرجون من مثل هذه الضغوط النفسية والجسدية لكأني بهم يزدادون قوة وصلابة، وعزماً وإرادة وتصميماً على الوصول إلى هدف الدعوة الأول: انتزاع حق الألوهية المغتصبة من أيدي البشر، وإرجاعها إلى رب العزة سبحانه، ويميز الله بهذا من ينصره ورسله بالغيب، إنه قوي شديد العقاب.

* * *

---

(١) الكشاف، ٤/٢٧٠، وانظر تفسير الطبري، ٢٥/١٤٩.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد المجاهدين، سيدنا وحبيبنا وقائدنا وقدوتنا وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فبعد هذه الجولة في رياض القصص القرآني مع الحكام فيه، فإننا نستطيع أن نخلص إلى النتائج التالية:

١-أن القرآن الكريم قد اهتم برسم صورة واضحة كاملة لشخصية الحاكم الصالح، صفاتها، وسياساتها في الحكم وإدارة البلاد. كما أنه قد اهتم برسم صورة أخرى مقابلة لشخصية الحاكم الطاغية، تظهر نفسيته، وطبيعة النظام الحاكم الذي أنشأه ثم طبيعة المجتمع الذي تولّد الطاغية فيه.

وهذا الاهتمام يدل على خطورة هذا الموضوع وحساسية هذا المنصب.

٢-لا يكون الحاكم صالحاً إلا إذا اتصف في نفسه -أولاً- بصفات عديدة منها :

* الإيمان الثابت، والإخلاص الكامل للعقيدة، الذي يحوله إلى رجل عقيدة، وداعية إلى مبدأ، لا يصدر عنه سلوك إلا ضمن هذا الإطار، ويترفع لأجل ذلك عن مكاسب الدنيا الفانية. ويظهر هذا في الحكام الأربعة الذين استعرضهم الباب الأول في الرسالة.

* العلم بنوعيه: العلم الشرعي، كما ظهر في شخصيات الحكام الصالحين موضع البحث، لاسيما سليمان - عليه السلام-.

والعلم المادي، الذي يعين الحاكم الصالح على القيام بواجبه في خدمة أمته خير قيام، فيوظف علمه هذا في شتى مجالات الحياة والجهاد والإدارة والصناعة.

* الشخصية الإدارية القيادية، التي تلفت أنظار من حولها، بجمال منطقها، ونظافة سيرتها وتحليها بالأخلاق الطيبة، والسمت الإيماني المريح، ويظهر هذا جلياً في شخصية يوسف -عليه السلام-.

* القوة والشجاعة، التي تؤهله لقيادة الأمة وإصدار القرارات، وخوض المعامع والحروب، وتعينه على الخطاب الدعوي القوي الجريء المؤثر، وتعينه على ضبط أمور الدولة وشؤونها ومحاربة الفساد والمفسدين بقوة وشجاعة وحزم. وظهر هذا من خلال شخصيات كل من: داود وسليمان وذي القرنين - عليهم وعلى نبينا السلام-.

- يشترك الحكام الصالحون في سياسات عامة يديرون من خلالها بلادهم، منها:

* إسناد الحاكمية لله -سبحانه- وحده، وجعل الشرع الإلهي «المصدر الوحيد» للتشريع وسن القوانين.

ويظهر هذا فيهم جميعاً -عليهم السلام- .

* التطور الإداري والمعرفي والإنتاجي ، واغتنام ثروات البلاد لتسخيرها فيما يعود بالفائدة على الدولة ورعاياها ، وتحقيق أهدافها وسياساتها .

* الشورى وعدم التفرد بالرأي والبعد عن الإستبداد السياسي، ويظهر ذلك في سياسات داود – عليه السلام- أكثر ما يظهر.

* السياسة الجهادية بمختلف نواحيها، من إعداد نفسي وعسكري إلى فتح البلاد ودعوتها، والإهتمام بهذه السياسة من سياسات الدولة.

ونلمح ذلك جلياً في سياسات كل من: سليمان، وذي القرنين -عليهما السلام-.

٥ -محاربة الفساد، ومطاردته والقضاء عليه بألوانه كلها: العقدي والقضائي، والإداري، والأمني وغير ذلك، كما يظهر عند سليمان -عليه السلام-.

٤-تتصف شخصية الطاغية، بصفات بشعة منفرة، تجبر من حولها أن يتعاملوا معها بسياسة المداهنة والنفاق، ومن هذه الصفات:

* التكبر والعلو والطغيان، سوء الخلق، عداء الحق، اضطراب التفكير، وضعف الحجة، وانعكاس المنطق.

ويظهر كله -كما أشرنا- في شخصية فرعون.

* أن المجتمع الفرعوني بطبقاته المختلفة هو من صنع شخصية فرعون، وجرّأها على ادّعاء الألوهية والربوبية. وجعل منها طاغوتاً يأمر فيطاع، وينهى فيجاب إلى ما نهى عنه.

٦-أن النظام الذي انبثق من شخصية الطاغية وانعكس عنها، نظام شرب صفات هذه الشخصية المقيتة، فهو نظام طاغٍ ظالم، لم ينظر إلا إلى مصلحة أعمدته الفاسدة.

٧-أن هذا النظام – المنبثق عن شخصية الطاغية- كانت له سياسات في إدارة البلاد منها:

* اغتصاب حق الحاكمية من الله، وادّعاؤه لنفسه، وجعل الشخصية الفرعونية مصدراً للتشريع من دون الله.

* ترويج الفساد بألوانه وأشكاله، فالنظام الفاسد لا ينتج عنه إلا كل فاسد، ويمكننا أن نقول: إن نظام فرعون كان يعيش على هذا الفساد المنتشر، فهو عماد النظام، ومصدر وجوده، لذلك عمل هو على ترويج الفساد وإيجاده ورعايته.

* تميزت سياسات الطاغية بالاستبداد السياسي، وسحق المعارض، وتكميم الأفواه، واعتقال العقول، ومصادرة الحريات.

٨-انتهج الطاغية في محاربة دعوة الله كل أسلوب دنيء، من تشويه إعلامي كاذب لصورتها، وتهييج مغرض لأوساط المجتمع عليها. ولم يأل جهداً في تعذيب أفرادها، ومراقبتهم، ومحاربتهم في أقواتهم، بل وتصفيتهم جسدياً – إن استدعى الأمر-.

٩-الفرق بيّن واضح بين الشخصيتين بما لا يدع مجالاً للّبس في هذا الشأن. فالقرآن أراد أن يوضح هذه الشخصية ويجليها، ويوضح تلك ويجليها، حتى يسهل التمييز، ويسهل الاقتداء ، ويسهل الحذر.

وفي نهاية هذه الجولة في رياض القصص القرآني ، أحمد الله رب العالمين على ما أنعم به وتفضل عليّ أن أنجزت هذا العمل ، فما كان فيه من خير وحق فمن الله وحده ، وما كان فيه من غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله .

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا جميعاً، وأن لا يخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

المراجع

* آزاد، أبو الكلام. **ويسألونك عن ذي القرنين**، مطبوعات الشعب، القاهرة، ط بدون، ١٩٧٢م.
* الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت ١٢٧٠هـ). **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: محمد أحمد الأمهر، عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ). **زاد المسير في علم التفسير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
* ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، ط بدون.
* ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣ هـ). **التمهيد**، طبعة وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري.
* ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣ هـ). **أحكام القرآن**، راجعه: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
* ابن عطية، القاضي أبو محمد عبد الحق الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ). **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
* ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥ هـ). **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت-لبنان ، ط٢، ١٩٩٨م.
* ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥٢ هـ) **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، تحقيق محمود عبد

الوهاب فايد، القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح، ١٩٥٨م.
* ابن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ). **تفسير القرآن العظيم**، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
* أبو فارس، د.محمد عبد القادر. **المشاركة في الوزارة في الأنظمة الجاهلية**، المكتبة الوطنية، عمان، ط بدون.
١ - **النظام السياسي في الإسلام**، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٩٨٦م.
٢ - **إن فرعون علا في الأرض**، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
* الأشقر، أ.د.عمر سليمان عبد الله. **حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية**، دار النفائس، عمان، ط١، ١٩٩٢م.
* الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
* الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٥ هـ). **البحر المحيط**، تحقيق وتعليق: عادل عبد الموجود، علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
* إسلامبولي، سامر. **الألوهية والحاكمية**، دراسة علمية من خلال القرآن الكريم، دار الأوائل للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
* باجودة، د.حسن. **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف**، منشورات تهامة، جدة -السعودية، ط٢، ١٩٨٣م.
* البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ). **الجامع الصحيح المختصر**، مراجعة: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ، بيروت، ١٩٨٧م-١٤٠٧هـ.
* البروسوي، إسماعيل حقي. **روح البيان**، تعليق: أحمد عبيد عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

* البقري، أحمد ماهر . **يوسف في القرآن**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط بدون.
* البنا، حسن أحمد عبد الرحمن. **مجموعة رسائل الإمام حسن البنا**، دار الحضارة الإسلامية، ط بدون.
* بندقجي، د.محمد رياض. **مبادئ الإدارة العلمية**، (ليس هناك اسم لدار النشر)، عمان-الأردن، ١٩٨٠م.
* البيضاوي، القاضي ناصر الدين الشيرازي (ت ٧٩١هـ). **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٩٩م.
* جاد المولى ، محمد . **قصص القرآن** ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٦٤م .
* الجرمي، إبراهيم محمد. **الآباء والأبناء في القرآن الكريم**، دار عمّار، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.
* جلال الدين، السيوطي والمحلي. **تفسير الجلالين**، دار ابن كثير، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م .
* الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت ٤٧٨ هـ). **غياث الأمم والتياث الظلم**، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
* حافظ، عماد زهير. **القصص القرآني بين الآباء والأبناء**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.
* الحسيني، أبو البقاء أيوب بن موسى (ت ١٠٩٤ هـ). **الكليات**، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.
* الحمد، عبد القادر بن شيبة. **قصص الأنبياء القصص الحق**، مكتبة المعارف، الرياض-السعودية، ط١، ١٩٩٩م.

* الحنبلي، عمر بن علي بن عادل الدمشقي. **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
* حوى، سعيد. **الأساس في التفسير**، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
* الخالدي، د.صلاح عبد الفتاح.
١ - **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، دار النفائس، عمان، ط٢، ٢٠٠١.
٢ - **القصص القرآني**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
٣- **مع قصص السابقين**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م.
٤ - **مواقف الأنبياء في القرآن**، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.
* خضر، د.عبد العليم عبد الرحمن. **مفاهيم جغرافية في القصص القرآني**، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨١م.
* الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ). **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون.
* الخطيب، عبد الكريم.
١ - **قصتا آدم ويوسف عليهما السلام**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط بدون.
٢ - **القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
* الخولي، البهي. **تذكرة الدعاة**، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧م.
* الدجاني، د. زاهية راغب. **سورة طه، دروس وعبر، الفتنة بالسلطة والمال**، دار طعمة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
* درنيقة، الدكتور محمد أحمد. **قبس قرآني على المجتمع**، دار الإيمان، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٩١م.

* الرازي، محمد بن أبي بكر. **مختار الصحاح**، منشورات أبو شنب، عمان، ط بدون.
* الراشد، محمد أحمد. **الرقائق**، دار المنطلق، الإمارات- دبي، ط بدون.
* الرافعي، مصطفى صادق. **وحي القلم**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط بدون.
* رضا، محمد رشيد. **المنار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
* الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨ هـ). **تفسير الكشاف**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
* زيدان، عبد الكريم. **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.
* الزين، محمد. **مدرسة الأنبياء عبر وأضواء**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
* سالم، د.فؤاد سالم، وآخرون. **المفاهيم الإدارية الحديثة**، مركز الكتب الأردني، الأردن، ط٤، ١٩٩٢م.
* السامرائي، د.إبراهيم. **من بديع لغة التنزيل**، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٨٤م.
* السعدي، عبد الرحمن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١.
* الشرقاوي، د.أحمد. **المرأة في القصص القرآني**، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
* الشعراوي، محمد متولي. **قصص الأنبياء**، جمع المادة العلمية: منشاوي غانم جابر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط بدون.
* شلبي، محمود. **حياة سليمان**، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٦م.

* الشنقيطي، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
* الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠ هـ). **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار القلم، بيروت، ط بدون.
* الصابوني، محمد بن علي. **صفوة التفاسير**، دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
الصدر، محمد باقر. **السنن التاريخية في القرآن**، دار التعارف، سوريا، ط١، ١٩٨٩م .
* الصلابي، د.علي محمد. **تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين**، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، ط١ ، ٢٠٠١م.
* صوالحة، محمد كاظم رشيد. **القيادة المؤمنة كما يعرضها القرآن**، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور أحمد نوفل، ١٩٨٧م، الجامعة الأردنية.
* الطالب، هشام. **دليل التدريب القيادي**، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن-فرجينيا-الولايات المتحدة، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
* طبارة، عفيف عبد الفتاح. **مع الأنبياء في القرآن الكريم**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢١، ٢٠٠١م.
* الطباطبائي، محمد حسين. **الميزان في تفسير القرآن**، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٧٢م.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، ضبط وتعليق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
* طنطاوي، محمد سيد. **القصة في القرآن الكريم**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

* عباس، أ.د. فضل حسن.
١ - **إعجاز القرآن الكريم**، دار الفرقان، عمان، ط بدون ، ١٩٩١م.
٢ - **قصص القرآن الكريم**، دار الفرقان، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.
* عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٥٨م.
* عبد الفتاح، د.إمام. **الطاغية**، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، مؤسسة الرسالة، الصفاة ، الكويت، ط بدون، ١٩٩٤م.
* عسكر، السيد عبد المقصود. **القصص القرآني إقناع وإبداع**، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ط١، ٢٠٠٠م.
* العدوي، محمد محمد. **دعوة الرسل إلى الله تعالى**، بيروت، ط بدون، ١٩٩٧م.
* العمادي، أبو السعود محمد بن محمد الحنفي (ت ٩٨٢ هـ. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
* العمري، أحمد. **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ ، ١٩٨٦م.
* الغزي، عبد الله العلمي. **مؤتمر تفسير سورة يوسف**، قدم له: بهجت البيطار الدمشقي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
* الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ). **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤ ، ٢٠٠١م.
* فريد، أحمد. **تيسير المنان في قصص القرآن**، دار ابن الجوزي، السعودية-الدمام، ط٢، ١٤٢١هـ.
* فضل الله، محمد حسين. **من وحي القرآن**، دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.
* الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ). **بصائر ذوي التمييز**

في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ط بدون.

* القاسمي، محمد جمال الدين. **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.

* القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن عبد الملك (ت ٤٦٥ هـ). **لطائف الإشارات**، وضع حواشيه: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

* القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ). **الجامع الصحيح**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م.

* قطب، سيد .

١- **التصوير الفني في القرآن الكريم**، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ط٨، ١٩٨٣م.

٢- **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط٢٥، ١٩٩٦م.

* القنوجي، أبو الطيب صديق بن حسن الحسيني. فتح البيان في مقاصد القرآن، وضح هوامشه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

* القوجي، محمد بن مصلح الدين الحنفي. **حاشية الشيخ زادة على البيضاوي**، محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

* كامل، د.عبد العزيز مصطفى.

١- **مواقف إسلامية**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

٢- **الحكم والتحاكم في خطاب الوحي**، دار طيبة، الرياض-السعودية، ط١، ١٩٩٥م .

* الكلبي، محمد بن أحمد بن جزي (ت ٧٤١ هـ). **التسهيل لعلوم التنزيل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
* الكواكبي، عبد الرحمن. **طبائع الاستبداد**، دار الشرق العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٦م.
* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ).
١- **الأحكام السلطانية**، تحقيق، سمير مصطفى، المكتبة العصرية، بيروت، ط بدون، ١٩٨٦م.
٢- **نصيحة الملوك**، تحقيق: محمد الحديفي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط بدون.
* مجموعة من المؤلفين. **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩م.
* المحمود، أحمد. **الدعوة إلى الإسلام**، دار الأمة للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
* مشهور، مصطفى. **من فقه الدعوة**، دار التوزيع، القاهرة، ط بدون، ١٩٩٥م.
* مهران، محمد بيومي. **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط بدون، ١٩٩٥م.
* المودودي، أبو الأعلى.
١- **فرعون في القرآن**، ترجمة وتعريب: أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، ط بدون.
٢- **المصطلحات الأربعة في القرآن**، الدار السعودية، جدة، ط١، ١٩٩٤م.
* الميداني، عبد الرحمن حبنكة. **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.
* النبهاني، تقي الدين. **نظام الحكم في الإسلام**، دار الأمة، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م.

* النجار، عبد الوهاب. **قصص الأنبياء**، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.
* النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
* نقرة، التهامي. **سيكولوجية القصة في القرآن**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط بدون، ١٩٧١م.
* نوفل، د.أحمد إسماعيل. **سورة يوسف دراسة تحليلية**، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٩٩٩م.
* هلال، د. محمد إبراهيم. **يأجوج ومأجوج، الخزر.. إسرائيل**، دار البشير، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.
* الوكيل، محمد السيد. **نظرات في أحسن القصص**، الدار الشامية، بيروت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٤م.
* يوسف، محمد خير رمضان. **ذو القرنين**، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

* * *

ABSTRACT

The personality of Ruler in the light of the Quranic stories

By
Rafat al-masri

Supervisor
Dr Ahmmad Nawfal

This study discussed The personality of Ruler in the light of the Quranic stories, in which the researcher shed light on this personality whether or not the Ruler was faithful Righteous Person.

This thesis is divided presented different five Rulers or personalities according to the Quranic stories. This thesis is divided two parts, it consists of Six chapters.

Part one: discussed four Righteous Persons:

Chapter One: Yousef peace be upon him

Chapter Two: Daud peace be upon him

Chapter Three: Sulaiman peace be upon him

Chapter Four: Dhu al Qarnain peace be upon him

Part Two: discussed the personality of the unrighteous Ruler

Chapter One: Nature of the Ruler and his Political system

Chapter Two: Phero's Policies in Ruling his State

فهرس المحتويات

الإهداء..... ٥
الشكر ٧
تقديم ٩
المقدمة..... ١١
أولاً : مدى الحاجة إلى هذه الدراسة..... ١٦
ثانياً : القصص القرآني وقضية الحكم..... ١٩

الباب الأول
شخصية الحاكم الصالح في ضوء القصص القرآني

الفصل الأول

يوسف ـ عليه السلام ـ الحاكم الصالح

المبحث الأول: عوامل صاغت شخصية يوسف ٢٧
المطلب الأول :الاصطفاء الرباني ٢٩
المطلب الثاني :البيئة العائلية المتدينة ٣٣
المطلب الثالث :المحن والابتلاءات..... ٣٧
المبحث الثاني : صفات شخصية يوسف عليه السلام ٤١
المطلب الأول : العلم ٤٢
المطلب الثاني : العفة والصلاح ٤٧
المطلب الثالث : العفو والوفاء ٥٥
المطلب الرابع : الشجاعة والثبات ٦٦
المطلب الخامس : يوسف صاحب الشخصية الواعية الذكية ٧١
المطلب السادس : شخصيته الدعوية – عليه السلام - ٧٥

المبحث الثالث : القرآن يرسم الملامح العامة لسياسات يوسف - عليه السلام - ٨٥
المطلب الأول : وجود تصور عن الحكم ومنهجه فيه ٨٦
المطلب الثاني : الإدارة وعناصرها في حكم يوسف – عليه السلام - ٩٠
المطلب الثالث : يوسف – عليه السلام – في النظام الحاكم..... ٩٦

الفصل الثاني

داود ـ عليه السلام – الحاكم الصالح

تمهيد..... ١٠٨
المبحث الأول : من أهم العوامل التي صاغت شخصية داود..... ١١١
المبحث الثاني : الصفات الشخصية لداود – عليه السلام - ١١٥
المطلب الأول :داود الحاكم العابد ١١٦
المطلب الثاني : العلم والحكمة ١٢١
المطلب الثالث : القوة المادية والمعنوية ١٢٤
المبحث الثالث : سياسات الحكم عند داود - عليه السلام - ١٢٨
المطلب الأول : الحاكمية لله وحده ١٢٩
المطلب الثاني : الشورى ١٣٣
المطلب الثالث : اغتنام الثروات وتسخيرها للجهاد ١٣٥
المطلب الرابع : مواساة المظلومين والانتصار لهم ١٣٩

الفصل الثالث

الحاكم الصالح سليمان – عليه السلام-

مقدمة ١٤٢
المبحث الأول : عوامل صاغت شخصية سليمان – عليه السلام - ١٤٤
المطلب الأول :البيئة العائلية المتدينة ١٤٥
المطلب الثاني : الحياة السياسية المبكرة ١٤٧

المبحث الثاني : الصفات الشخصية لسليمان - عليه السلام - ١٤٩
المطلب الأول : سليمان الحاكم العابد الأواب ١٥٠
المطلب الثاني : العلم والذكاء ١٥٤
المطلب الثالث : اليقظة والحزم ١٥٩
المبحث الثالث : السياسات العامة في الحكم عند سليمان – عليه السلام - ١٦٤
المطلب الأول : دولة الدعوة ، ودعوة الدولة ١٦٥
المطلب الثاني : محاربة الفساد ١٧١
المطلب الثالث : السياسة الحربية ١٧٤
الفرع الأول : المشاعر الجهادية ١٧٤
الفرع الثاني : النظام العسكري ١٧٦
المطلب الرابع : الحرب النفسية ١٨١
المطلب الخامس: السياسة القضائية عند سليمان – عليه السلام - ١٨٤
المطلب السادس : تقريب الصالحين واستعمال الأكفأ ١٨٩
المطلب السابع : الاهتمام بالصناعات ومظاهر المدنية ١٩٢

الفصل الرابع

ذو القرنين الحاكم الصالح

تمهيد ١٩٧
المبحث الأول : الصفات الشخصية لذي القرنين ٢٠٠
المطلب الأول : الايمان والصلاح ٢٠١
المطلب الثاني : العلم والعمل ٢٠٥
المبحث الثاني : سياسات الحكم عند ذي القرنين ٢١٠
المطلب الأول : إدارة الانتاج وتوظيف الطاقات ٢١١
المطلب الثاني : في السياسة الداخلية ٢١٤

الفرع الأول: إعلان الدستور ٢١٤
الفرع الثاني : حفظ الأمن ٢١٦
المطلب الثالث : التقدم الصناعي والمعرفي ٢١٨
المطلب الرابع : المنهجية التربوية والدعوية عند ذي القرنين ٢٢١
المطلب الخامس : السياسة الجهادية عند ذي القرنين ٢٢٦

الباب الثاني

الحاكم الطاغية "فرعون"

تمهيد ٢٣١

الفصل الأول

طبيعة الحاكم ونظام حكمه

المبحث الأول : الصفات الشخصية عند فرعون ٢٣٤
المطلب الأول : العلو والطغيان ٢٣٥
المطلب الثاني : سوء الخلق وسرعة الغضب وضعف الحجة ٢٣٩
المطلب الثالث : العناد وعداء الحق ٢٤٣
المطلب الرابع : اضطراب التفكير وانعكاس المنطق ٢٤٧
المبحث الثاني : طبيعة الدولة الفرعونية ٢٥٠
المطلب الأول : أعمدة النظام الفرعوني ٢٥١
المطلب الثاني : طبيعة المجتمع الفرعوني وأثره في تشكيل شخصية فرعون ٢٥٨

الفصل الثاني

سياسة فرعون في ادارة البلاد

المبحث الأول : السياسات العامة في إدارة البلاد..... ٢٦٧
المطلب الأول : مصدر الحاكمية ٢٦٨
المطلب الثاني : الفساد القضائي والأمني والاداري ٢٧٥
المطلب الثالث : سياسة الاستبداد وإظهار خلافها ٢٧٨
المطلب الرابع : في السياسة الداخلية ٢٨٣
المبحث الثاني : سياسته في مواجهة الدعوة ٢٨٩
بين يدي الموضوع ٢٩٠
المطلب الأول : توجيه الاتهامات للداعية وتهييج الاوساط الرسمية والشعبية ضد الدعوة .. ٢٩٤
المطلب الثاني : المضايقات الجسدية ٢٩٨
الخاتمة..... ٣٠١
المراجع والمصادر ٣٠٥
الملخص بالانجليزية ٣١٥
الفهرس ٣١٧